إيقاظ العلماء

و

تنبيه الأمراء

أحمد بن عبد الله الكوزه كاني

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Kuzah Kinani

ايقاظ العلماء

و

تنبيه الأمراء

احمد بن عبد الله الكوزه كناني

(RECAP) ([redacted])
BJ1291
.K89

مركز النشر- مكتب الاعلام الاسلامي

● اسم الكتاب:	ايقاظ العلماء وتنبيه الامراء
● الكاتب:	الشيخ احمد بن عبدالله الكوزه كناني
● حقّقه وقدّم له:	مركز النشر- مكتب الاعلام الاسلامي
● الناشر:	مركز النشر- مكتب الاعلام الاسلامي
● الطبعة:	الثانية
● طبع على مطابع:	مكتب الاعلام الاسلامي
● تاريخ النشر:	صفر ١٤٠٦
● طبع منه:	٢٠٠٠نسخة

حقوق النشر محفوظة للناشر

مراكز التوزيع

● قم - شارع ارم - مكتبة مكتب الاعلام الاسلامي - هاتف: ٢٣٤٢٦

● طهران - شارع ناصر خسرو - قاق حاج نايب - سوق خاتمي - هاتف: ٥٣٩١٧٥

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 016923870

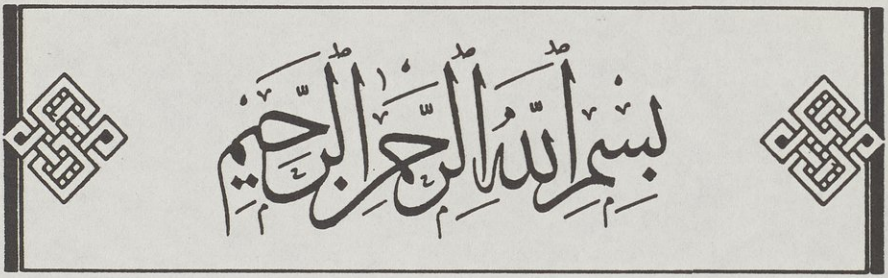

كلمة الناشر ١١
كلمة للمؤلف ١٥
المقدمة ١٩
معاشرة الناس. ١٩
صفات الرئاسة الدينية والدنيوية. ٢٠
اصناف الناس وكيفية التعامل معهم. ٢٢
طرق اجراء القواعد والأركان والاحكام. ٢٥
تكليف سلاطين الاسلام في هذا الزمان. ٢٦
ايقاظ: ٢٨
مايجب على السلطان. ٢٨
ايقاظ: ٣١
المُلك والمراد من الملك. ٣١
نزع الملك، وجوه نزع الملك. ٣٣
عهدالامام علي عليه السلام الى مالك الاشترحين ولاه على مصر. ٣٤
تنبيه الامراء في احكامهم وسياساتهم وطريقة سلوكهم مع الرعية باصنافها. ٣٣
الولاة وحقوقهم على الرعية وحقوق الرعية عليهم. ٤٢
ايقاظ العلماء ٤٣

ايقاظ: ٤٤
وجوه اشرفية العلم ومن اتصف به. ٤٤
العلم والجهل ومنشؤهما. ٤٦
تفاوت العلوم واختلاف طلبة العلم والعلماء-واصنافهم. ٤٦
ايقاظ:
العلم حياة القلب. ٤٧
ايقاظ:
الانسان وتركيبه من بدن طبيعي وروح ملكوتي. ٤٨
ايقاظ:
العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الاخرة. ٥٠
الفتوى: لابد للمجتهد من علم يقيني. ٥٣
عادة بعض المحصلين والمشتغلين في عصرنا. ٥٥
حب الدنيا رأس كل خطيئة. ٦٢
ايقاظ:
الفقية ـ المراد من الفقية. ٦٦
ايقاظ:
الهدى ـ المراد بالهدى. ٧٠
الضلال ـ ابواب الضلال. ٧١
ايقاظ:
العلماء الربانيون ـ مايفسد الاعمال. ٧٢
ايقاظ:
علماء كل امة خلفاء نبيهم ـ مايجب عليهم ومالايجب عليهم. ٧٥
ايقاظ:
لابدللعالم ان يكون اكثر بحثه في العلوم ـ تفاوت العلوم، وان بعضها اشرف من بعض. ٧٨
ايقاظ:
علم طريق الاخرة. ٨٠
صفات علماء الآخرة. ٨٢
ايقاظ:
العلم الموجب لخشية الله ـ العالم صاحب الدرجات. ٨٥
ايقاظ:

السعادة والشقاوة الدنيوية والاخروية. ٨٦
ايقاظ:
على العلماء تقديم طهارة النفس على رذائل الاخلاق. ٩١
ايقاظ:
غلبة الكبر على بعض العلماء. ٩٣
التفاخر في العلم اعظم الآفات. ٩٥
ايقاظ:
اسباب الكبر ـ انواع التكبر والرد عليها. ٩٩
الصفات التي تدعوا الى التكبر. ١٠٥
يجب ان يُكلِّم الناس على قدر عقولهم. ١٠٧
ضرر كثرة السؤال. ١٠٩
ايقاظ:
التواضع والحلم، ومدح الموصوف بهما. ١١١
ايقاظ:
العلم علمان ـ حقيقي وغيرحقيقي ـ خواصهما. ١١٢
ايقاظ:
الفقيه ـ صفاته. ١١٤
العلم الذي ليس فيه تفقه. ١١٦
ايقاظ:
ان الانسان كماينتفع من الهام الملك، كذلك ينتفع بوجه من وسوسة الشيطان. ١١٨
ايقاظ:
النية شرط في العبادات كلها ـ لكل امريء مانوى. ١٢١
انماالاعمال بالنيات. ١٢٣
ايقاظ:
ذم طلب الرئاسة. ١٢٥
ايقاظ:
اعظم المداخل التي يأتي الشيطان من قبلها ـ الشهوة والغضب والهوى. ١٢٩
الحسدمن ارذل الاخلاق المذمومة ـ اثرالحسد وحقيقته. ١٣١
المراد من اولي الامر. ١٣٤
قصة الكردي الذي قتل امه. ١٣٥

ايقاظ:
على العالم الزهد في الدنيا وليس التزهد ـ علامة الزاهدين. ١٣٦

ايقاظ:
خواص بعض علماء الزمان. ١٣٨
مواعظ المسيح عيسى بن مريم(ع). ١٣٩
ماورد عن الائمة(ع) في مراعاة حقوق الناس. ١٤٢

ايقاظ:
اداب المعلم والمتعلم. ١٤٤
حق الجليس وحق الصاحب. ١٤٦

ايقاظ:
ادب الولد مع الوالدين. ١٤٧

ايقاظ:
اصناف الناس. ١٥١
ادب مصاحبة كل صنف من الناس ـ حقوق الصحبة. ١٥٣

إيقاظ:
جملة من الوصايا والنصائح التي ينتفع بها المعلم والمتعلم. ١٥٦
تعليم الجهال والعوام وثوابه. ١٥٩

إيقاظ:
تأديب الطالبين للعلم ادباً ينفعهم علمه في الدنيا،وعمله في الآخرة. ١٦٣
و يل لعلماء السوء. ١٦٥
حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب.

إيقاظ:
على العلماء الا تصاف بصفة العدل والانصاف. ١٦٨

إيقاظ:
الجهاد ـ الجهاد جهادان: الجهاد الاكبر والجهاد الاصغر ١٧٠
الجهاد الاكبر هو جهاد النفس. ١٧٢
الرسالة الموسومة بـ «زجر النفس» المنسوبه لهرمس الهرامة. ١٧٤
الفصل الاول: المعانى العقلية الموجودة وجوداً دائماً. ١٧٤
الفصل الثاني :الدنيا دار علم و بحث واختبار للمتألمين. ١٧٦
الفصل الثالث:لايمكن ان يجتمع للانسان حب الدنيا وحب الاخرة. ١٧٨

الفصل الرابع:عالم الطبيعة صفو وكدر. ١٧٩
الفصل الخامس: كل جوهر يرجع الى أصله. ١٨١
الفصل السادس:ما اشغل ساكن الدنيا عن مقتنياتها ولذاتها. ١٨٢
الفصل السابع:المواضع المنبهة تصقل النفوس. ١٨٣
الفصل الثامن:قبل مفارقة القرين الغادر، تخيل فراقه. ١٨٤
الفصل التاسع: لكل صنعة اداة لايُستوفى عملها الّا بها. ١٨٦
الفصل العاشر:ان حياة النفس في مفارقتها عالم الطبيعة، وان موتهااللبوث فيها. ١٨٦
الفصل الحادي عشر: كل مكروه اصابك فإن اصله وسببه من قبلكومن خطئك. ١٨٧
الفصل الثاني عشر:من غرس شجرة اثمرت الظفر. ١٨٩
الفصل الثالث عشر:من غرس طيباً اكل طيباً، ومن غرس خبيثاً اكل خبيثاً. ١٩٠

إيقاظ:

على العلماء الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. ١٩٣

ايقاظ:

يجب على العالم اجتناب الوساوس في جميع افعاله واقواله. ١٩٩
الوسوسة. ٢٠٢
علاج الوسوسة. ٢٠٤

ايقاظ:

يجب على العلماء الصبر. ٢٠٧
فضيلة الصبر، واجر الصابرين. ٢٠٩
لطيفة: من اكل لقمة السؤال لاينحني ظهره على الكسب. ٢١١
افضل الاعمال ـ مناجاة النبى(ص) ليلة المعراج. ٢١٢
وصايا رسول الله(ص) لعلي(ع). ٢١٨
وصايا ونصائح مذكورة فى الزبور. ٢١٩
وصايا عيسى بن مريم (ع) لأصحابه. ٢٢٠

ايقاظ:

ذم الغرور. ٢٢١

ايقاظ:

فرق المغترين وجهات غرورهم. ٢٢٥
الخاتمة. ٢٣٠

كلمة الناشر

التحولات التي تطرأ على حضارات الشعوب والامم، من تقدم وازدهار، وتأخر وانحطاط، وكذلك الانتصارات التي تحرزها الدول أو الاندحارات التي تصيبها؛ لهي اقوى دليل على ماللتأثير الكبير والخطير لفئتي العلماء والحكام على تلك التحولات.

فالعلماء يخططون و يرسمون أُسس الحياة، ومايرافقها من بث روح الهمة و بعث حركة الحياة الحرة الكريمة في نفوس ابناء الأُمّة، والحكام هم الذين ينفذون هذه القوانين للسير بأسس تلك الحياة نحو العيش الكريم والحياة الافضل.

اذا كان العلماء بأفكارهم واقوالهم واقلامهم، وما يطرحون من افكار، ومايسعون اليه من تحريك الشعوب؛ في سبيل اصطلاح المجتمع، وتحسين احوالهم المعاشية، وتطهير نفوسهم من ادران المفاهيم الجاهلية؛ بما يتلقونه من افكار واراء العلماء، فيرتفعون الى السمو الروحي والافكار الانسانية الرفيعة، حيث يتغلبون على اهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم الدنيوية. فيصبحون حماة للمبادئ والافكار السامية.

والحكام يضعون القوانين العادلة، التي ترفع من شأن الانسانية، وتحمي المجتمع، وتحفظ عزته وكرامته وحقه في الحياة الحرة الكريمة؛ من حرية اعتقاده بالشرائع السماوية، وبناء حياته على اسس تتعلق بالارتباط الروحي بالنور الآلهي، والسير نحو التعاليم الآلهية السامية.

فالحكام ينفذون هذه القوانين ويحمونها، و ينشرون العدل والمساواة في احكامهم،

و يقلعون جذور التفرقة والتخلف وعدم المساواة و...، و يأخذون بأيدي شعوبهم نحو الكمال الانساني.

مما لاشك فيه ان هذا يخلق مجتمعاً واعياً ومدركاً لمفاهيم الحياة الانسانية السامية، التي تخلصه من أدران الشرك والجاهلية، وتوجهه، وتأخذ بيده نحو التعاليم السماو ية العالية، فيسعى الى تطبيقها على نفسه ومجتمعه. فيصبح المجتمع البشري مملوءً بالطهارة والقداسة والتضحية والايثار. عندها يكون الانسان قد وصل الى اوج انسانيته.

الآن، وفي هذه الفترة من سطوع الافكار الاسلامية السامية، وانتشارها بين ابناء المجتمع، و تحريك القلوب وتوجيهها للتمسك بها «ولاية الله»، وفي الوقت الذي يسعى فيه الحكام بالتوجه نحو الاحكام الاسلامية السامية، و يعملون على تطبيق تشريعاتها على امتهم، والعلماء يعيشون في واقعهم الملموس بين ابناء مجتمعهم، و يرتبطون بهم ارتباطاً وثيقاً، لأن حيثية الاسلام هي القضية المستهدفة.

في هذه الحالة يجب ان يكون الجميع يقضين منتبهين و واعين لما يدور حولهم، و ينظرون بعيون يقظة، لما يجري في المجتمعات البشرية حولهم؛ والتي ترقب بتعمق الى الاسلام، ماذا يريد أن يفعل؟ والمسلمون، وحكام المسلمين، كيف يطبقون القوانين والتشريعات الاسلامية على انفسهم ومجتمعهم؟

و بالتوجه الى أهمية هذه المسألة، وضرورة طرح الجيد من الافكار، والتوجه الى الاعمال الفاضلة، وغيرها من الضروريات الواجبة التي يحتاج اليها المجتمع.

فهاتان الفئتان ذو أهمية عظيمة في بناء المجتمع؛ بما لهم من تأثير واسع على ابناء أمتهم؛ يتطلب منهم الحذر واليقظة تجاه هذه المسؤليات الجسيمة والخطيرة.

وبما أن لهذه المؤسسة من اثر كبير، ارتأت ان تُقَيِّم احد العلماء الواعين، اليقظي الذهن والقلب، وتعيد طبع احد مؤلفاته القيمة، التي تبحث في هذا الموضوع.

فللمؤلف اطلاع واسع على ماللدور الكبير والخطير للحكام والعلماء في بناء المجتمع، والسمو به الى التقدم والازدهار، أو الرجوع به الى التخلف والانحطاط، فقد سطر كتابه الموسوم «أيقاظ العلماء وتنبيه الامراء» الذي نضعه بين ايديكم.

و بالتوجه الى التأثير الأعمق والاوسع، لأعمال واقوال واقلام وحياة العلماء ورجال الدين، و بالنظر الى المعرفة الدقيقة على اوضاع العلماء، والحوازات العلمية، ومايبدون من تساهلات، وعدم انتباه لمايدور حولهم، وعدم تقوى بعضهم و... اخذ في نشر اقواله بإفاضة، وذكر حقائق ذو فائدة عظيمة، وتعاليم ذو قيمة عالية.

مؤلف الكتاب:

الحاج ملا احمد الكوزه كناني التبريزي، نسبة الى (كوزه كنان) وهي قرية تبعد حوالي ٤٨ كيلومتراً عن تبريز.

من علماء ومفكري اوائل القرن الرابع عشر الهجري. اقام في النجف الاشرف، وكان من تلامذة العلامة الشيخ حسن مامقاني، ومن المقربين اليه[١].

كتب عنه الشيخ آقا بزرك الطهراني:

«الشيخ المولى احمد بن عبدالله الكوزه كناني النجفي: عالم ورع، وفاضل تقي، كان في النجف الاشرف مشتغلاً على علمائها الاعلام يوم ذاك، وله تصانيف كثيرة»[٢].

وكتب عنه المرحوم السيد محسن الامين:

«ملا احمد التبريزي الكوزة كناني: من مؤسسي حزب المشروطة في الغري، وكان عالماً، فاضلاً ذكياً، متوقد الفهم»[٣].

مؤلفاته:

خلف المرحوم الكوزة كناني اثاراً قيمة، ومؤلفات مفيدة والتي تدل جميعها عن تحقيقاته الواسعة، ونظرته الثاقبة الى المفاهيم الاسلامية السامية.

وقد طبعت بعض مؤلفاته، منها:

١ ـ هداية الموحدين في اصول الدين: كتاب باللغة الفارسية في ثلاثة اجزاء، طبع في تبريز في السنوات: ١٣٠٣، ١٣١١، ١٣١٧ هجري[٤].

يحتوي الجزء الاول: بحث في اثبات وجود الله تعالى: صفاته، بيان فلسفة ارسال الرسل...

ويحتوي الجزء الثاني: بيان مطالب في اثبات خلافة وولاية الامام علي عليه السلام، والأئمة المعصومين عليهم السلام، عقلاً ونقلاً.

ويحتوي الجزء الثالث: تحقيقات حول اثبات المعاد، اوضاع واحوال القيامة، ومسائل تتعلق بذلك.

١ ـ ريحانة الادب، ج٥/١٠٢.

٢ ـ نقباء البشر، ج٢/١٠٩.

٣ ـ اعيان الشيعة؛ بعشرة اجزاء؛ ج٢/٤٨٩.

٤ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج٢٥/.

٢ ـ روضة الامثال: كتاب تحقيقي كبير، وذو قيمة عالية. يبحث حول «الامثال في القرآن الكريم»، اورد في بداية الكتاب بحثاً عن البلاغة واقسامها، واورد فيه فوائد التمثيل، ثم ذكر جميع الايات القرآنية التي تشتمل على الامثال، وفسرها .[٥]

٣ ـ مباحثة النفس.[٦]

٤ ـ ايقاظ العلماء وتنبيه الامراء: هذا الكتاب الذي بين ايديكم.

كتب هذا الكتاب بأسلوب سهل و بسيط، و بعبارات جيلة، معتمداً على الآيات القرآنية، والاحاديث والروايات عن النبي(ص) والأئمة المعصومين عليهم السلام، وقسم من واقع الحياة الملموسة، وعن الواجبات والمسؤليات التي تجب والتي لا تجب للحكام والعلماء، حيثما جر البحث اليه.

والكتاب من الآثار القيمة، الذي يحتاج الى الدراسة والتعمق فيه.

آملين ان ينال رضا الباحثين عن الحقيقة والسالكين الطريق المستقيم.

مركز النشر ـ مكتب الاعلام الاسلامي

٥ ـ نفس المصدر السابق، طبعة سنة ١٣٢٥هجري، ج١١/٢٨٨.

٦ ـ نفس المصدر السابق (باللغة الفارسية)، طبعة سنة ١٣١٧هجري، ج٢/٤٠.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الّذي تَقَدَّسَتْ سَبحات وجهه عن سمة الحدوث والزّوال، وَتنزّهت سرادقات جَلاله عن صمّة التّغير والانتقال، تعالى في عزّ جَلاله عن مطارح الأفهام، وتَقدّسَ في كبريائه عن مشابهة الأنام، له العُلوّ الأعلىٰ فوق كلّ عال، وله الجَلال فوق كلّ جَلال. نحمده عَلىٰ جَمِيع الأحوال ونشكره في الغدوّ والآصال ونستمدّ به بأفضل الأعمال والصّلوة والسّلام على نبيّ الرّحمة، الّذي تصدّع نفسه في نجاة الأمّة عن حيرة الضّلالة، الى ساحل الهداية، محمّدٍ وآله وأهل بيته المطهّرين، الّذين جَعلهُم الله حجّة للخلق والرّحمة على العُلماء وَالأُمراء، الّذين أصلح الله بهم أمور المُسلمين وَقرّرهم آثاراً مبسُوطة وظلالاً ممدودة ومكّنهم من إحياء معالم الدّين، مادامَت السّموات والأرضون واللّعنة على أعدائهم أجمعين.

وبعد فيقول: العبد الجاني، الفاني، **أحمد الكوزه كناني**، لمّا رأيت في عصرنا هذا انثلام بنيان الملّة والدّين وانطفاء مصباح شريعة سيّد المرسلين بأفول شموس أهل العلم والإيمان وظهور خفافيش الجهلة في هذا الزّمان، الّذي سوق العلم فيه كاسد ومتاعه فاسد ومدارسه عاطلة ومجالسه باطلة وحاميه ذليل وناصره قليل؛ بخلاف الجهل فان متاعه نافعة وأعلامه خافقة وأربابه مكرّمون وأصحابه معظّمون، يستهزئون بالعلم وطلاّبه «ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيٰنِهِمْ

يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً»[١].

ومعاونة الأيّام بتربية اللّئام وتوقير الجَهَلة والظّلام ومعادات أهل العلم والعرفان واستصغار أهل الحكمة والبُرهان وانقطاع مسالك الأوامر والنّواهي، الّذي هو من أشدّ النّوايب والدّواهي، مع انعكاس وجوه النّاس الى القفاء واعراضهم عن الآخرة الى الأولى، حتّى كأنّهم لم يقرأوا «وللآخرة خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ»، فزاد تعجّبي وطال تفكّري، فقلت: اللهم عظم بلاؤنا وأفرط بنا سوء حالنا وقصرت بنا أعمالنا وقعدت بنا أغلالنا، فارحم اللهم علماءنا وأمراءنا، فوجدت منشأ هذا الخلل العظيم ومبنى ذلك الخطر القويم ومبدأ الفساد الجسيم من طائفتي العلماء والأمراء كما ورد في الخبر من جملة وصايا النّبيّ صلّى الله عليه وآله على مافي البحار قال: «**صنفان من أمّتي اذا صلحا، صلحت أمّتي واذا فسدا، فسدت أمّتي قيل: يارسول الله ومَن هم؟ قال: الفقهاء والأمراء**»[٢].

وعلى ماذكره السيّد الجزائري «ره» في كتابه الموسوم بمسكّن الشجون انه صلوات الله وسلامه عليه قال: «**طائفتان اذا صلحا صلحت امّتي واذا فسدا فسدت أمّتي: العلماء والأمراء**»[٣].

ووجهه واضح، لأنّ نظام العالم شرعاً موقوف على الأحكام الصّادرة عن العلماء واجراؤها على الأمراء، كماقال السيّد «ره»: العلماء «يجب عليهم القول والأمراء يجب عليهم إجراء أحكامه»[٤]. انتهى.

فاذا تصادفا في المأمور بهما تنتظم أمور الرّعية شرعاً وعُرفاً وإن لم يصادفا «فحينئذ»، لوأطاع الرّعيّة على العلماءفتنتظم الأمور الشّرعيّة دون العُرفية وإلاّ فلابدّ من ظهور الفساد في العالم، سيّما اذا تخاصم الأمراء والعلماء،خصوصاً اذا فسد أحدهما أو كلاهما فيختلط الإسلام ولايسلم الإيمان. فسنح ببالي وخطر بخيالي أن أشمّر ساعد الجدّ على تأليف مختصر سُمّي **بإيقاظ العلماء وتنبيه الأمراء**. ورتّبته على مقدّمة وايقاظات أسأل الله من فيضه العَميم متوسّلاً بنبيّه الحليم وأهل بيته

١ ـ سورة البقرة/١٥.

٢ـ تحف العقول/٤٢، مؤسسة الأعلمي في بيروت.

٣ـ المرجع السابق.

٤ـ الكتاب المسمّى بمسكّن الشجون للسيد نعمةالله الجزائري.

ذوي الجاه العظيم. أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم وأن ينتفع به كلّ قاصر وعليم وأن يكون سبباً للفوز الى جنّات النّعيم وأن يحفظني من تكفير النّاظرين، إذ ربّ حقّ يكفّر قائله و ينبغي أن لايجاب سائله «**قُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**»[١].

شعر:

اذ ربّ جوهر علم لوأبوح به — لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال دينّونَ دَمي — يرون أقبح مايأتونه حسناً

إذ ليست الطّبائع في درجة واحدة، بل النّاس على أطوار مختلفة ولهم مشتهيات متباينة متباعدة.

شعر:

وكم من عائب قولاً صحيحاً — وآفته من الفهم السّقيم

فان وافق بأطوارهم فنعم الموافقة وإلاّ فانّ من المعلومات ان الحقّ لايوافق عقول قوم فسدت قرائحهم بأمراض وعلل أعيت أطبّاء النّفوس عن علاجهم، بل تحصيل العلوم مازادهم إلاّ نفوراً واستكباراً وغروراً «وحينئذٍ » لسنا وإياهم ولوجئتهم بكلّ آية لايؤمنون بها لأنّ قلوبهم مشحونة بأمراض مهلكة وأخلاق مغو ية مردية «**وقد خاب من دسّيٰها**» «**يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النّار**».[٢] نار الحسد والاستكبار وشرارة الحقد والإنكار[٣]. فهم الّذين لم ينالوا من العلم نصيباً ولاالشّقي منهم يصير سعيداً بل يضلّ به كثيراً وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً لأنّهم الأخسرون أعمالاً «**الّذينَ ضلّ سعيُهم في الحيوة الدنيا**».[٤]

١- سورة الكهف/٢٩.

٢- سورة البقرة/١٦٧.

٣- كما فسّره الفخر الرّازي في تفسيره.

٤- سورة الكهف/١٠٤.

امّا المقدّمة

فاعلم أوّلاً: انَّ من أوضح الواضحات عقلاً وأبين المسلَّمات نقلاً، انَّ من عمدة المكارم الجميلة والخصائل الجليلة، حسن المعاشرة مع النَّاس، سواء كانت مع الأعلى منه أو المساوي أو الأدنى، قريباً كان أم بعيداً، صديقاً كان أو عدوّاً. وخلاصة معناه ان يسلك مع كلّ أحد سلوكاً لايورث النّفار والبغضة، بل يوجب الأُلفة والمودّة، كما قال الله عزّ وجلَّ: «ادفع بالّتي هي أحسن فاذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم»[1].

وظاهر انَّ ذلك، إنَّما يكون بترك ابراز مايخالفه، بل بإظهار مايوافقه «وحينئذٍ» نقول: امَّا أن يكون هذا مطابقاً لما في قلبه وإعتقاده أو مخالفاً وعلى التّقديرين أصل هذا الفعل لاكلام في رجحانه شرعاً، مالم يستلزم ارتكاب شيء من الفسوق. وهذا الفعل الّذي هو عبارة عن حُسن المعاشرة مع الخلق وإن كان من غير الملّة، جاذب لقلوب النّاس اليه قهراً؛ وإنَّما قلنا وإن كان كافراً: لأنَّ الله تبارك وتعالى قدقرّر في كتابه سهماً من الصّدقات للمؤلّفة قلوبهم وعمل به نبي الرّحمة، فجعل لهم سهماً من الغنائم.

والحاصل انَّ ماذكرناه من لوازم الرّئاسة لمن كان في صددها، الّتي أوّلها ملامة

١ . سورة فصّلت/٣٤.

وثانيها ندامة وثالثها عذاب من الله يوم القيمة؛ إلاّ مَن رحم وعدل، على ماورواه الطّبراني عن شدادبن أوس عن النبي صلّى الله عليه وآله ولهذه وإن كانت نبويّة إلاّ انّه في الواقع ربّما يكون كذلك، لأنّ الدّنيا اذا توجّهت الى بعض النّاس يتنافس فيها كما تنافس قبله و يظلم الأدنى و يتملّق الأعالي و يتكبّر على الأواسط فيكون في كلّ وقت من الأوقات مبتلياً بأحد من الملامة أو النّدامة.

و يظهر سرّ ماقلناه من بسط الكلام في هذا المقام فنقول: انّ كلّ من كان في صدد الرئاسة، دينيّة أو دنيويّة، لابدّ له من ملاحظة قوانين يعمّ نفعها جميع أوقاته وحالاته، مع كلّ طبقة من طبقات أهل الزّمان من فوقه ومن دونه، بمقتضى حالات النّاس منها إنّ كلّ واحد من النّاس، متى ماتأمّل في نفسه وتأمّل أحوالها وأحوال غيره من أصناف النّاس، وجد نفسه في رتبتها مشتركة مع طائفة منهم ووجد فوق رتبته طائفة منهم أعلى منزلة منه، بجهة أو جهات ووجد دونها طائفة هم أدون منه بجهة أو جهات، لأنّ الملك الأعظم وإن وجد نفسه في محل لايرى لأحد من النّاس في زمانه أعلى من منزلته، فانّه متى ما تأمّل حاله وجد فيهم من يفضل عليه بنوع من الفضيلة، إذ ليس في أجزاء العالم ماهو كامل من جميع الجهات وكذلك الوضيع، الخامل الذّكر، يجد من هو دونه بنوع من الصّفات وهكذا ينبغي استعمال السّياسة، مع هؤلاء الطّبقات الثّلاث، امّا مع الأرفعين فلينال مرتبتهم وامّا مع الأكفّاء فليفضل عليهم وامّا مع الأوضعين فلاينحطّ الى رتبتهم.

ومنها: انّ أنفع الطّرق الّتي يسلكها المرء في استجلاب علم الرّئاسة والسّياسة، أن يتأمّل أحوال النّاس وأعمالهم وتصرّفاتهم ماشهد منها وماغاب عنه و يدقق النّظر فيها ويميّز بين محاسنها ومساويها و بين النّافع والضّار لهم منها ثمّ ليجتهد في التّمسك بمحاسنها، لينال من منافعها مانالوا و في التّحرّز والإجتناب من مساويها، ليأمن من مضارّها وليسلم من غوائلها مثل ماسلموا.

ومنها: انّ لكلّ شخص من الأشخاص قوّتين، إحداهما ناطقة والأخرى بهيميّة ولكلّ واحدة منهما ارادة واختيار وهو كالواقف فيمابينهما، ولكلّ واحدمنها نزاع غالب، فنزاع القوّة البهيمية نحو، مصادقة اللّذات العاجلة الشّهوانيّة من الأغذية وأنواع

الأسباب الموجبة للراحة، من المآكل والمشارب والمناكح والمراكب والملابس والمجالس والمناظر والمسموعات والمشمومات والمطعومات وغيرها.

ونزاع القوّة النّطقيّة نحو الأفعال المحمودة العواقب، كأنواع العلوم والأفعال الّتي تجدي العواقب المحمودة، وأوّل ماينشأ الانسان يكون في حيّز البهائم الى ان يتولّد فيه العقل أوّلاً فأوّلاً وتقوى القوّة النّاطقة، فالقوّة البهيميّة اذا غلبت، فالنّقصان يحصل في النّاطقيّة، فتكون أقوى وأغلب، وكلّ ماكان كذلك فالحاجة الى اخماده وتنزيهه تكون أشدّ فالواجب على كلّ من يروم نيل النّوائل أن لايتغافل عن نفسه وايقاظها وتحريصها على ماهو أصلح وأعود عليه، وإن لايمهلها ساعة، فانّه متى ماأمهلها وهي حيّة لابدّ أن تتحرّك الى نحو مرادها ومطلوبها، وذلك موجب تعطيل وقته، الّذي كان ينبغي أن يحصل فيه فضيلة القوّة الناطقيّة الّتي ذكرناها فيفوت «حينئذٍ»، عنه جميع ماهو من الأخلاق الكريمة «فحينئذٍ»، هو والحيوان سواء.

ومنها: انّ المرء لايخلو في جميع تصرّفاته من أن يلقى أمراً محموداً، أو أمراً مذموماً وله في كلّ واحد من الأمرين فائدة ان استفادها ويجد في كلّ واحد منهانفعاً، يمكن جرّها الى نفسه و يصادف في كلّ واحد منهما موضع رضاً وهو ان يحتال التّمسك بذلك الأمر المحمود، بأيّ وسيلة كان، بقدر وسعه وطاقته ليلقى الأمر المحمود، فلوجدّ في الوصول كما ذكرنا فلابدّ له من الإيصال بمطلوبه: من طلب شيئاً وجدّ، وجد، «والّذين جٰاهدُوا فينا لنهدِينّهُم سُبلَنا»[1].

واذا يلقاه الأمر المذموم فليجتهد في التحرّز منه والاجتناب عنه وان لم يجد الى ذلك سبيلاً وهو واقع فيه فليبالغ في نفسه عن نفسه، غاية مايمكن. وإن لم يمكن التّبرّي منه، فليعزم على نفسه انّه متى تيسر له الخلاص منه وليفتح الى نفسه دواعي ذلك الأمر، أي التحرّز من ارتكاب الأمر المذموم وهذه رياضة النفس وأبلغ وأقوى مايوجب التّدرج الى درجات العُلى، والتّرقّي الى أوج الكمالات هو رياضة مخالفة النّفس وترك تبعيّة الهوى، فانّ المرء يصادف في جميع أحواله، دقّها وجلّها، خيرها وشرّها بالتحمّل على

١. سورة العنكبوت/٦٩.

رياضة النفس الى ماهو مطلوبه.

ومن جملة رياضة النَّفس: الاحتراز من اظهار العداوة والحقد مع النَّاس ولوكان عدوّاً ليصرف وجه النَّاس اليه وإن كان تحصيل العلم لتلك الجهة مذموماً، كما سيجيء.

ولكن الكلام في قوانين مطلق الرئاسة، بل لابدَّ له صرف وجه العداوة الى نفسه بأن يقول أنا أو كلامي الفلاني، مثلاً صار سبباً لعداوة فلان لي، فليعالجها بأهون مايقدر عليه.

ومنها ماينبغي استعماله مع الأكفّاء وهم لايخلون من أن يكونوا أصدقاء أو أعداء أو ليسوا كذلك، بل لاأصدقاء ولاأعداء امَّا الأصدقاء فهم صنفان:

الصنف الأوّل: الأصفياء المخلصون للصداقة، فينبغي للمرء أن يديم ملاطفتهم وتعهّد أسبابهم واهداء مايستحسن ومايتيّسر له، إليهم في كلّ وقت؛ و يظهر لهم البشاشة من دون إظهار ملال وكلال وليجتهد في اكثارهم غاية الجهد؛ فانَّ الصّديق زين المرء وعضده وعونه ومذيع فضائله وساتر عيوبه وكاتم هفواته وغافر زلاّته، فما كانوا أكثر كان أنفع، للاقتناء كما قيل: أفضل مايقتني الرجل الصّديق المخلص.

والصّنف الثاني: هم الأصدقاء في الظّاهر من غير صدق فيمايظهرونه، بل تشبّه وتصنّع، فينبغي للمرء أن يحسن إليهم ولايطلعهم على شيء من أسراره وسيّما من عيوبه، ولايلقي إليهم من خواص أحاديثه وأحواله، ولايحدثهم عن نفعه وضرره، ولاعن أسباب منافعه ويجتهد في استمالتهم والصّبر معهم ومعاملتهم، بحسب الظّاهر ودون أخذهم بالبواطن، ولايأخذهم بالتّقصير ولايقطع عنانهم فيمايكون من التّقصير ولايجازيهم على ذلك.

وامَّا الأعداء فيكفي في مماشاتهم قول القائل: «بادوستان مروّت با دشمنان مدارا»[1].

وأحسن طرق المداراة، هو السّكوت عن العدوّ وعدم التفوّه بشيء من نفعه

١. المروءة مع الأصدقاء والمداراة مع الأعداء.

وضرره. هذا بالنّسبة الى العدوّ العاقل وامّا العدو الجاهل، فسئل افلاطون أيّ الأسباب أهون؟ قال: «ملاءمة الجهّال». وامّا اذا لم تنفع الملاءمة معهم بأيّ نحو كان، فلابدَّ من اعمال أسباب الظفر عليهم، منها ماذكره بعض الحكماء: «من انَّ ملاك أسباب الظّفر بالأعداء، هو انَّه يجب أن يطلب المرء العلوّ على عدوّه في كلّ فضيلة يذكر بها، إن كان من أهل الفضل و يتحرّى أن يقف العدوّ على ذلك و يعلمه منه، فانَّ ذلك مما يضعفه ويحمده و يأمر به، بأن يحصي عليه معايبه حتى لايلقى صغيراً ولا كبيراً، لاظاهراً ولاباطناً، إلاّ جمعه ونشره في النّاس وليبوح في ذلك الصّدق، كي لايذهب جدبه وليجتنب الكذب عن العدوّ، فانَّ الكذب عليه قوّة له. وان يتعرّف أخلاق العدوّ وشيمه وعاداته، ليقابل بكلّ واحد منها بما يضاده و يناقضه؛ وليجتهد في معرفة مايضجره و يقلقه فيوكل بسبب من أسباب ضجره وقلقه، فانهجه، فانَّ ذلك ملاك الظّفر به ومن أنفع أسباب الفضيحة عليه، وأصل ذلك كلّه والمرجع هو طلب السّلامة منه ومن مكائده بكلّ ماأمكن» انتهى محلّ الحاجة.

وامّا الطائفة الثّالثة: فهم طبقات: منهم النّصّاح، الّذين ينتزعون بالنّصيحة، فالواجب على المرء أن يتفرغ مع كلّ من ادّعى انَّه ناصح له، و يستمع الى قوله و يعزم على قلبه أولاً، بأن لايغيّر بكل قول يسمعه وأن لايعمل بكلّ ماينهى اليه، بل يتأمّل أقاو يلهم و يعرف أغراضهم، غاية التّعرف، ليقف من معرفة أغراضهم على حقيقة أقاو يلهم واذا لاح له وجه الصّواب وحقيقة الأمر في شيء ممّا ألقوه اليه، بادر الى انفاذ الأمر اليه، وليكن بإلقاء البشاشة لكلّ منهم، واظهار حرص على مايلقيه.

ومنهم الصّلحاء، الّذين هم أناس ينتزعون لإصلاح مابين النّاس، فيجب على المرء أن يمدحهم دائماً فيما يفعلونه وأن يتنبّه بهم في جميع أحواله، فان مذاهبهم مرضية عند جميع النّاس ومهما تشبه المرء بهم، عرف الخير وحسن النيّة.

ومنهم السّفهاء، فيجب على المرء استعمال الحلم معهم وأن لايواشيهم ولايطمّنهم ولايقابلهم بما هم من السّفاهة، بل يتلقاهم بحلم وزين وسكوت منيع، ليأسوا من مقالاته بما هم فيه ولايؤده بعد ذلك ومتى مايلقوه بالمسامحة وقلّة الاكتراث، تسامح معهم.

ومنهم أهل الكبر والمنافسة فيجب على المرء أن يقابلهم بمثله، لأنَّه إن تواضع لهم، اخشنوا له و يضعف وتوهموا انَّ فعلهم ذلك صواب وانَّه لابدَّ للنَّاس من التّواضع لهم ومتى ماينكر المرء عليهم وكابرهم في الأحوال فتأدّبوا به وعلموا انَّ الذنب في ذلك منهم ورجعوا الى التواضع وحسن العشرة، مع انَّ التكبّر مع المتكبرحسنة.

وامَّا الّذين دونه من النَّاس فأصناف: منهم الضعفاء وهم صنفان:

أحدهما المحتاجون وذوالفاقة، الملحّون منهم فينبغي أن يلاحظهم ولايبذل لهم على إلحاحهم شيئاً، ليدّجروا عن ذلك إلاَّ اذا علم انَّه صادق فيما يحتاج اليه من الضّروري. ومنهم الكاذبون فيما يدعونه من الفاقة. فينبغي أن يميّز بينهم، فان ميّز الفاقة الصادقة منهم، فليواس معهم مواساة وسطاً من غير منع و بذل تام، وإلاَّ فيعاهدهم الكذب بضرب من التّدبير حتى يملّوا من الانتظار فينصرفون عنه.

وثانيهما المتعلّمون وذوالحاجة الى العلم فمنهم ذوالطّبائع الرديّة، يقصدون تعلّم العلوم، ليستعملوها في الشّرور والغرور، فينبغي للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ولايعلّمهم شيئاً إلاَّ تعليمهم علم الأخلاق ويجتهد في كشف ماهم عليه من رداءة الطّبع ليحترزوا.

ومنهم البلداء الّذين لايرجى ذكاؤهم وتكميلهم نفساً، فينبغي أن يحملهم على ماأعود عليهم.

ومنهم المتعلّمون ذوالأخلاق الطّاهرة والطبائع الجيدة، فيجب أن لايدّخر عليهم شيئاً ممَّاعنده من العلوم والمواساة عليهم وتربيتهم.

هذا كلّه آداب ينفع الرؤساء ملاحظتها، سيّما اذا كان من سلسلة العلماء وزمرة الفقهاء، فانَّ تكاليفهم غير تكاليف الفقراء والجهال والعوام والسفهاء، لأن شأنهم جليل وحملهم ثقيل وطريقهم طويل و بعد نيل الرئاسة لايبقى من دنياهم إلاَّ قليل وهو لايروي الغليل، ولايشفي العليل، بل ربّمالايفطم منهم الفصيل، فلاينبغي اشتغالهم في أوقات الرئاسة وأيّام الأيالة؛ إلاَّ التّمسّك بعروة الشّريعة الوثقى وترويج أمورها وملاحظة مواردها، بحيث لوعلموا انحراف النَّاس، كلاً أو بعضاً عن جادّتها، اتّفقوا على ردعهم ومنعهم، فان انتهوا فيها وإلاَّ شدّوا إليهم حالاً فحالاً بملاحظة اقتضاء

الحالات والأشخاص، شدّة وضعفاً؛ وإن لم يمكنهم الخروج عن عهدتهم فعليهم ارجاع أمرهم الى حكّام الزّمان، المعادن منهم، فانّا نرى أحوال كلا الفريقين منقلبة، فلابدّ من ايقاظهم لأنّهم رقود، وانقلاب أوضاع الاسلام من أعدل الشهود، فلعلّهم يلتفتون الى اندراس الحقّ ورواج الباطل بسبب تسلّط الكفّار على بلاد الاسلام.

واجراء القواعد والأركان والأحكام فيها تارة باعطاء الشهريّة الى سفهائهم واحضارهم في مجلس درسهم وإن لم يعتقدوا بماعندهم لأنّ الاسلام يعلو ولايعلى عليه إن شاء الله. ولكنّ الكلام في تكثير سوادهم والرّكون إليهم «ولا تركنوا إلى الّذين ظلموا»[1] وأيّ ظلم أشدّ من ظلمهم أنفسهم، من كونهم ضالّين طريق الحق. وأخرى ببناء متجر يسمّى بنك، ومادراك ماالبنك، وهو عبارة عن أخذ زمام الأهالي طرّاً، بيد عدوّ الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إيّاهم وتسليمهم له، بالرئاسة والسلطان، على ماهو الظّاهر ولايحتاج الى البيان.

وثالثة باستئجار أمتعتهم الكليّة، المنحصرة على بلادهم.

ورابعة بتطميع اخراج المعادن المكنونة في جبالهم وأوديتهم وشراء الأشياء الخلقة باسم العنتقة بالقيم العالية، الخارجة عن حدّها بعشر مرّات، بل بشراء شيء لاقيمة له عندنا، بقيمة تحيّر فيه العقول ولايفهم سرّه الفحول.

وخامسة بتعليم العساكر علم الرّمي والجدال. فبهذا كلّه ضعف الاسلام وقوة الكفر، كما في الحديث «إذا أخفرت الذّمّة نصر المشركون على المسلمين»[2] يعني اذا نقض العهد بين المشركين والمسلمين، أُديل لأهل الشّرك من الإيمان. وليعلم انّ مايستفاد من الأخبار: انّ عدل السّلطان يوماً يعدل عبادة العابد خمسين سنة،[3] لأنّ العابد ينفع نفسه فقط والسّلطان ينفع غيره؛ ومن البديهيّات المعلومة، انّ صفة العدل ولوكانت في الكافر ينبع عن عذاب النار، كما في الخبر المرويّ عن النبي صلّى الله عليه وآله، حيث رأى ليلة المعراج سلطان زمانه أنوشيروان، الّذي افتخر«ص» بتولّده في أيّامه متنعّماً

١ . سورة هود/١١٣.

٢ . لم نعثرعلى النص في المصادر المتوفرة لدينا.

٣ . لم نعثرعلى النص في المصادر المتوفرة لدينا.

بنعمة الله في النار[١]. فتكليف سلاطين الاسلام في هذا الزّمان، الّذي غلب الفساد على الصلاح بعدما يجب عليهم من العدل والانصاف والتجنّب عن الظّلم والتعذيب، أن يحسموا تلك الموادّ الجديدة و يقلعوا بنيان الكفّار من بلاد الاسلام تدريجاً، مخافة تأثير المجالسة ومن المعلوم انّها مؤثّرة، كما نشاهد بالعيان من انقلاب أوضاع بلاد الاسلام من جميع الجهات، من الملبوسات إناثاً وذكوراً ومن المآكل والمشارب والمجالس وكيفيّة الأكل والشّرب؛ فانّ النّفس امّارة بالسّوء، مائلة الى ماحرّم الله والإنسان حريص على طلب الدّنيا، سيّما اذا وجد شيئاً جديداً يأخذ به. لأنّ لكلّ جديد لذّة. وهذا كلّه من المحسوسات لامن المعقولات، فانّ مكائد الكفّار كصنايعهم خفية أو نسيتم قضيّة الرّجل الكافر المسمّى بـ«پادري» أحدث في بلادالاسلام، بعض الأقوال ليردّ الاسلام الى الكفر ولهذا أتعب العلماء أنفسهم في ردّه، فصنّفوا مصنّفات عديدة في ردّه، شكر الله مساعيهم الجميلة، ولعمري، لإن أهمل قلع تلك الشجرة الملعونة عن بساتين الاسلام، لاينقضي قليل من الأيّام، إلاّ وانّ أصلها ثابت في الرّوم وفرعها في ايران، كما كان في هندوستان، فتثمر ثمرات تذيب عن طعمها الاسلام و يذهب عن رائحتها الإيمان، فعلى الاسلام السلام، وعلى وجه الإيمان اللّطام.

فان قلت: فانّا نرى بالعيان، بل بالضرورة والعقل والحسّ، حاكم بان كلّ شجرة تثمر مافي كمونه فشجرة الخير لا تثمر إلاّ خيراً، وشجرة الشر لا تثمر إلاّ شرّاً، لأنّ الشّيء لايثمر إلاّ نوعه وشكله ولايلد حيوان إلاّ مثله، فهل رأيت حماراً ولد انساناً و بالعكس؟ فاختلاط الكفّار في الاسلام لايؤثر أصلاً.

قلنا: انّ ماذكرت واقع لاريب فيه؛ ولكنّنا نرى بالعيان عيناً يقيناً، تركيب الأشياء المختلفة بعضها مع بعض، يثمر طبيعة ثالثة كالفرس مع الحمار، فانّه يتولّد منهما حيوان يسمّى بغلاً، فيوجد فيه أثر الأب والأمّ؛ فاختلاط الكفّار مع الاسلام نظير هذا، فينتج منهما مذهب لايسمّى كفراً ولااسلاماً، فيطهر ذاهبه من جهة و ينجس من أخرى، مذبذبين بين ذلك.

١. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

لانقول انَّ ماذكرناه، علّة تامّة لارتفاع الاسلام عن البين بالمرّة، بل أمر اتّفاقي فلولم يكن في العالم أمور اتّفاقيّة، ليست لها أسباب معلومة، لارتفع الخوف والرّجاء واذا ارتفعا لم يوجد في الأمور الانسانيّة نظام البتة، لافي الشّرعيّات ولافي السّياسات، لأنَّه لولا الخوف والرّجاء ماكتسب أحد شيئاً لغده، ولما أطاع مرؤس رئيسه، ولماعنى رئيس بمرؤسه، ولما أحسن أحد لغيره، ولما أطيع أمر، ولماقدّم معروف، الّذي يعلم جميع ماهو كائن في غد لامحالة، على ماسيكون ثمَّ سعى سعياً فهو عابث، بل أحمق يكلّف نفسه فيمايعلم انَّه لاينتفع به، فخيف على الانسان الكامل، التكاهل والتّساهل عن صرف أوقاته الشّريفة العزيزة في شغل لاينفع وعمل لاينجع؛ بل اللازم عليه الاشتغال بكسب الكمالات بالالات، فانَّ من المعلوم المبرهن عند ذوي العقول انَّ جوهر نفس الانسان جوهر ساذج عال، يناسب جميع العوالم و ينتقش فيه جميع النّقوش، فلابدَّ من التّأثر قطعاً، فإنّا نرى تبعيّة العوام لكلّ ناعق وناهق فمجرّد سماع مذهب جديد، يميلون إليه وليس هذا إلاّ من التّأثير والتّأثر، الحاصل من الاختلاط، فاسداً كان الأثر أو صحيحاً ولذا كان عُبّاد الأمم السّابقة، يختارون الجبال والصّحاري للعبادة، حتى يبقوا على فطرتهم الأصلية ولايبيعون دينهم بدنياهم، ولله در القائل، شعر:

فيا بائعاً هذا ببخس معجّل ... كأنّك لاتدري بلى سوف تعلم
فان كنت لاتدري، فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري، فالمصيبة أعظم
وإن ضافت الدّنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل، سوف تعلم
فحيّ على جنات عدن، فانّها ... منازلك الأولى وفيها المخيّم
ولكنّنا سبي العدو فهل نرى ... نعود الى أوطاننا ونسلم.

أو ماينظر الأمراء الى طريقة الماضين منهم، حتّى يمشوا على وتيرتهم المستقيمة و يسلكون مسلكهم الجميل، لتبقى أسماؤهم في الألسن بالخير مذكورة وآثارهم بالعدل مشهورة؛ فمن باب التّذكر اذكر انَّه ورد في الآثار: «انَّ انوشيروان كان في اوّل أمره ظالماً، حتّى بلغ ظلمه الرّهبان في صوامع الجبال فكتب إليه بعضهم: بسم الله الرّحمن الرّحيم، ملكتم فأسأتم ووسّع الله عليكم، فضيقتم أنسيتم سهام الأسحار وهي صائبة، خصوصاً اذا خرجت من أعين

أجريتموها ومن ابدان أعريتموها ومن أكباد أقرحتموها؛ فاعملوا ماشئتم فانّا صابرون وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. فلمّاقرأه أقلع عن الظّلم ووضع سلسلة العدل»[١]. ففي هذا تنبيه للحكّام والأمراء بل السّلاطين مطلقاً.

ايقاظ

يجب على السّلطان:

أوّلاً: تهذيب أخلاقه بما هو مرسوم في دين نبيّه وشريعته، ثمّ التّقليد على عالم من علماء عصره وانتخاب عالم متديّن، ورع في دينه ودنياه، مصاحباً له في غالب أوقاته وصحبته، علم الشّريعة معه وأخذ المسائل الشّرعية منه، ولايظنّ انّه ليس بمسؤول عن التكاليف الشرعية، بل السّؤال عنه يوم القيمة وحسابه بالنّسبة الى غيره من الرعية، نظير شأنه بالنّسبة إليهم: فكما انّ وزيره أشدّ سؤالاً وجواباً عنده، بالنّسبة الى واحد من العساكر والحواجب؛ لكون الوزير أعرف بحقّ السّلطان وسطوته عن غيره، وأرفع شأناً عنده وأثقل حملاً من غيره وأكثر شغلاً عن سائر متعلّقيه، «فكذلك» السّلطان بالنّسبة الى ملك الملوك المحاسب يوم الدّين.

وثانياً: اختيار وزير أو وزراء عدول مجتنبين عن أكل الرشوة وأخذ الحرام، العاقل في أمور السّلطنة والسياسة، الكامل في التّسلّط من جميع الجهات البصير في أمر الرّعيّة، الأمين في أمر الدّولة، غير خائن للسّلطان والرّعيّة؛ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إذا أراد الله بعبد خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه»[٢].

وليعلم الوزراء أيضاً، انّ وجه تسميتهم بهذا الاسم واتّصافهم بتلك الصّفة، هو اشتقاق لفظ الوزير من الوزر، فلابدّ له من ملاحظة أن لايكون حاملاً أوزار النّاس

١. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

٢. سنن السنائي، مع شرح جلال الدين السيوطي كتاب البيعه، ج١٥٩/٧.

يوم القيمة؛ نعوذ بالله.

وثالثاً: انَّ الواجب عليه مراقبة أحوال رعيّته، لكونهم بمنزلة العيال عليه واصلاح مافسد من أمورهم، فمن كان عياله وأولاده ومتعلقيه أكثر، تكون أوقاته مستوعباً لتربية صغارهم ومستغرقاً لاصلاح أمورهم، فالرّعايا والحكّام والعساكر كلّهم عيال السّلطان، فلابدَّ من العدل فيما بينهم وملاحظة أطوارهم، مثلاً: فكلّ حادثة وقعت في ملكه، مستند اليه فيجب عليه دفعه. لايقول انَّ الحاكم الفلاني ظلم الرّعيّة، فأنا لست بمطّلع على فعله، فانَّ الواجب على السّلطان، التبيّن والفحص، لأنَّ وزيره وكلّ من تحت يده، من الذين يباشرون أمور المسلمين، لابدَّ أن يكونوا من أهل العدل والإنصاف، المجتنبين عن الحيف والاعتساف، فان علم عن واحد منهم تكثير المال، يسأل عنه، من أين حصّله؟ فان كان مورده تحصيل المال على وفق القواعد الشّرعيّة، فبها وإلاَّ يأخذ منه و يردّه الى المظلوم، فان كانوا كذلك، فالحياة في الدنيا خير لهم وللرعيّة أيضاً، وإلاَّ فبالعكس؛ كما قال النّبي صلّى الله عليه وآله: «**اذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها واذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاؤكم وأموركم الى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**»[١].

ولابدَّ للسّلطان أن يحسن في رعيّته حتّى يجلب قلوبهم إليه، لاأن يسيء لهم حتّى يبغضونه، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «**جبلت القلوبُ على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**»[٢].

فظهر انَّ السلطان مسؤول: «**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لايُفْتَنُونَ**»[٣].

والسّلطان أعزّ النّاس وأعظمهم: «**هركه بامش بيشتر، برفش بيشتر**»[٤]، فهو مسؤول في جميع حالاته، مثلاً: إذا صدر ظلم على الرّعية، فهو امَّا منه أو من حكّامه المنصوبين من قِبله، فعلى التّقديرين المسؤول هو السّلطان، لأنَّه امَّا مباشر لساناً من الأمر والحكم أو

١. بحار الأنوار ج ٧٧ ص ١٣٩.
٢. تحف العقول/٣٢.
٣. سورة العنكبوت/٢.
٤. مثل فارسي: من كان سطحه أكبر، كان ثلجه أكثر.

سببٌ أفلايرون انَّ جنودهم اذا فتحوا قلعة، يقول النَّاس: السّلطان الفلاني، فتح القلعة، مع انَّ المباشر هو العسكر لا السّلطان. فهُم عين الرعيّة وحفاظهم، فلابدَّ لهم من الإطّلاع على أحوالهم.

وحكي: «انَّ شخصاً مسافراً نام في أثناء الطّريق تحت شجرة وترك مامعه من الزّاد والدّراهم تحت رأسه فلمَّا استيقظ، رأى ماتركه مسروقاً قدأخذه اللّص، فمشى الى السّلطان وعرض قصّته فقال له السّلطان: لِمَ نمت حتّى يسرق منك دنانيرك وزادك، قال: انَّ السّلطان مُدَّ ظلّه العالي، يقظان وليس بنائم وإلاَّ مانُمت، فأمر السّلطان أن يعطوه من خزينته ماسرق منه، وقال صدقت»[1].

فظهر انَّ الملوك والولاة رعاة الرّعية، ورعاة الغنم كما يجب عليهم حفظها من الذّئاب الضّواري، كذا يجب على السّلطان حفظ الرّعيّة من الذّئاب الضّواري، الّذين هم يأكلون نعمة السّلطان ويخونونه و يأخذون من الرّعيّة و يظلمونهم والسّلطان راقد في وسادة الإستراحة. قال في مواعظ المسيح في الإنجيل: «انَّ الله «تعالى» يحبّ الوالي الّذي يكون كالرّاعي، لايغفل عن رعيّته».

ورابعاً: أن يكون أكثر أوقاته مصروفاً: امَّا لمجالسة العقلاء والعلماء وامَّا لمطالعة سير الملوك الماضين من كتب التّواريخ وأخذ شيمة الصّالحين منهم وترك أطوار الطّالحين. وان يجمع باله في التّفكّر في أمر تعمير البلدان وترك صحبة النّسوان، لأن القلب يموت من كثرة صحبتهنَّ و يزيد في الجهل كما قال «ص»: «ثلاثة مجالستهم تميت القلب»، وعدّ منها الحديث مع النّساء! سيّما اذا كان أكثر من حَدِّه، فاذاً يفسد الأمر كلّه. قال «ص»: «كيف بكم اذا فسدت نساؤكم»[2]. وإن كان القلب يفرح على الظّاهر من النّظر الى وجوههنَّ، الّتي كالبدور في ليلة تمامه وكماله سيّما بعد تزينهنَّ بزينة الفرنجيات وغمزهنَّ بغمزات الغانيات ولبسهنَّ لباس نساء الدّول الاجنبيات، ومشيهنَّ كالحدءا المقبلات، مع تسمين الأسافل وتلوّي الكفلات بحيث تزيد للنّاظرين الرّغبات.

١. بحار الأنوار، ج ٧٧ ص ٤٦.
٢. تحف العقول/ ٤١.

يقال: ان النبي «ص» كان اذا ضاق قلبه يخاطب عائشة «كلّميني ياحميراء»، لأنّا نقول: انّه «ص» اذا غلب على قلبه المبارك التفكر في جلال الله وجبروته وعظمة كبريائه وهيبته، يكاد أن يخرج روحه الشّريف عن جسده، فيريد صارفاً له عن ذلك فيشغل قلبه بصحبة النّساء، لالأجل اللّذة النّفسانيّة البهيميّة، الغالبة على أغلب النّاس. ومن هذا الباب قوله «ص»: «انّه ليغان على قلبي فأستغفر الله كلّ يوم سبعين مرّة».

ايقاظ

اعلم انّ المفسّرين اختلفوا في ذيل قوله تبارك و«تعالى»: «قلِ ٱللَّهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء»،[1] انّ المراد من الملك، هل هو النّبوّة والرّسالة أو السّلطنة؟. وليعلم أوّلاً: انّ الملك هو القدرة والمالك هُو القادر، فقوله مالك الملك: معناه القادر على القدرة والمعنى انّ قدرة الخلق على كلّ مايقدرون عليه، ليست إلاّ بقدرة الله «تعالى»، فهو الّذي يقدر كل قادر على مقدوره ويملك كلّ مالك مملوكه، لابمعنى ايجابه «تعالى»، بل فاعلاً مختاراً في مقدوره: «وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ... الخ»[2]، «وَهَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً»[3].

فظهر انّ الأقدار من الله «تعالى» والمقدور اختياره من العبد، قال صاحب الكشّاف: «مالك أي يملك جنس الملك، فيتصرّف فيه تصرّف الملاّك، فيما يملكون.[4] ولمّا كان الله مالك الملك على الإطلاق «تُؤتي الملك مَن تشاء»، قيل المراد منه النّبوّة والرّسالة كما قال الله «تعالى»: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً».[5]

١. سورة آل عمران/٢٦.
٢. سورة البلد/١٠.
٣. سورة الانسان/٣.
٤. تفسير الكشّاف ج ص.
٥. سورة النساء/٥٤.

النبوّة أعظم مراتب الملك، لأنَّ العلماء لهم أمر عظيم على بواطن الخلق والجبابرة لهم أمر على ظواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظّواهر، فامَّا على البواطن فلأنَّه يجب على كلّ أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم وأن يعتقد انَّه هُو الحقّ. وامَّا على الظّواهر فلأنَّهم لوتمرّدوا واستكبروا لاسْتوجبوا القتل.

وقيل: انَّ المراد من الملك مايسمَّى ملكاً في العرف وهو عبارة عن مجموع أشياء أحدها تكثير المال والجاه؛ امَّا تكثير المال فيدخل فيه ملك الصّامت والنّاطق والدُّور والضّياع والحرث والنّسل. وامَّا تكثير الجاه فهو أن يكون مهيباً عند النَّاس مقبول القول، مطاعاً في الخلق.

والثاني: أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته وتحت أمره ونهيه.

والثالث: أن يكون بحيث لونازعه في ملكه أحد، قدر على قهر ذلك المنازع وعلى غلبته ومعلوم انَّ كلّ ذلك لايحصل إلاَّ من الله «تعالى»، امَّا تكثير المال، فقد نرى جمعاً في غاية الكياسة، لايحصل لهم مع الكدّ الشّديد والعناء السّديد، قليل من المال ونرى الأبله الغافل قديحصل له من الأموال مالايعلم كمّيّته، وامَّا الجاه فأمر أظهر فانَّا نرى كثيراً من الملوك بذلوا الأموال لأجل الجاه ومع ذلك كانوا أكثر حقارة ومهانة في أعين النَّاس والرّعيّة وقديكون على العكس، من يكون أحداً معظّماً في العقائد مهيباً في القلوب، ينقاد له الصغير والكبير و يتواضع له القاصي والدّاني.

وامَّا الثاني: وهو كونه واجب الإطاعة، فانَّ هذا تشريف يشرف به بعض عباده.

وامَّا الثالث: وهو حصول النّصرة والظّفر فمعلوم أيضاً انَّ ذلك ممَّا لايحصل إلاَّ من الله «تعالى»، فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وعند هذا ظهر بالبرهان العقلي صحّة ماذكره الله «تعالى»، من قوله «**تُؤتي المُلك من تشاء وتنزع الملك ممَّن تشاء**»[1].

وقال الكعبي من المُعتزلة: قوله «تعالى»، «**تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممَّن تشاء**»، ليس على سبيل الاختيار ولكن بالاستحقاق فيؤتيه من يقوم به ولاينزعه إلاَّ ممَّن فسق

١ . سورة آل عمران/٣٦.

عن أمر ربّه؛ و يدلّ عليه، قوله «لاينال عهدي الظّالمين»[١]، وقال في حقّ العبد الصّالح «انّ الله اصطفيٰه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم»، فجعله سبباً للملك. وقال الجبائي: «هذا الحكم مختصّ بملوك العدل وامّا ملوك الظّلم فلايجوزأن يكون ملكهم بإيتاء الله». وكيف يكون ذلك بإيتاء الله وقد ألزمهم أن لايملكوه ومنعهم عن ذلك فصحّ بما ذكرنا انّ الملوك العدول، هم المنتصبون بانّ الله «تعالى» أتاهم ذلك الملك، فأمّا الظّالمون فلا، قالوا ونظير هذا ماقلناه في الرّزق، انّه لايدخل تحته الحرام الّذي زجره الله عن الانتفاع به وأمره بأن يرّده على مالكه فكذا هاهنا قالوا و أمّا النّزع فبخلاف ذلك لأنّه كما ينزع الملك من الملوك العادلين لمصلحة تقتضي ذلك ، فقد ينزع الملك عن الملوك الظّالمين، ونزع الملك يكون بوجوه:

منها الموت وازالة العقل وازالة القوى والقدرة والحواس.

ومنها بورود الهلاك والتلف على الأموال.

ومنها أن يأمر الله «تعالى»، المحقّ بأن يسلب الملك الّذي في يد المتغلّب، المبطل و يؤتيه القوّة والقدرة والنصرة، فاذا حاربه المحق وقهره وسلب ملكه. جاز أن يضاف هذا السّلب والنزع اليه «تعالى»[٢]. انتهى محلّ الحاجة.

أقول: لمّاكان كتابي هذا ينطق عليكم بالحقّ ولاحق أحقّ بالذّكر من كلام من الحقّ معه، وهو مع الحقّ فانّ أحسن المواعظ ماصدر عن واعظ يتّعظ بموعظته، حتّى يؤثّر في قلوب المستمعين فأحببت أن اكتفي في مقام تنبيه الأمراء في أحكامهم وسياساتهم وطريقة سلوكهم مع الرّعيّة بأصنافهم المتفرّقة وجنودهم وولاة بلدانهم، المنصوبين من قبلهم على ماعهده عليّ عليه السلام الى مالك بن الحارث الأشتر، حين ولاّه على مصر لجباية خراجها ومجاهدة عدوّها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها لكونه جامعاً جميع قواعد الايالة والسّياسة والكياسة ومشتملاً على مواعظ يليق أن تكتب بالنّور على أحداق الحور وهو على ماروا ه الشّيخ الأجل أبومحمد الحسن بن عليّ بن شعبه قدّس الله روحه في كتابه الموسوم بـ«تحف العقول» الّذي عجز عن ادراك كنه

١ . سورة البقرة/١٢٤.

٢ . راجع تفسير البيان؛ ج٢/٤٣٠، مجمع البيان ج٢//٤٢٨.

غوامض مطالبه وحقيقة معضلات خطبه ومواعظه فهم الفحول.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، وإتّباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه، الّتي لا يسعد أحد إلاّ بإتباعها، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه و يده ولسانه؛ فإنّه، جلّ آسمهُ، قد تكفّل بنصر من نصره، وإعْزازِ مَن أعزّه.

وأمره أن يكسر نفسه مِن الشّهوات، و يَزعَها عندَ آلجَمَحاتِ، فانّ النّفس امّارة بالسوء، إلاّ ما رحم آللهُ.

ثمّ اعلم يا مالك، انّي قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وأنّ النّاس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، و يقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحبّ الذّخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك ، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك، فانّ الشحّ بالنّفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت. وأشعر قلبك الرّحمة للرّعيّة، والمحبّة لهم، واللّطف بهم، ولا تكونَنّ عليهم سبُعاً ضَارياً تغتنم أكلهم، فانّهم صنفان: امّا أخ لك في الدّين، أو نظير لك في الخلق، يَفرُطُ منهمُ الزّللُ وتَعرِضُ لهمُ العِللُ، و يؤتىٰ على أيديهم في العَمدِ والخَطأِ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الّذي تحبّ وترضىٰ أن يعطِيك اللهُ من عفوِهِ وصَفحِهِ، فإنّك فوقهم، ووالي الأمرِ عليك فوقك، واللهُ فوق من ولاّك ! وقَدِ آستكفَاكَ أمْرَهُم، وآبتلاك بهم. ولاّ تنصبنّ نفسك لحرب الله فانّه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمنّ على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعنّ الى بادرة وجدتَ منها مندوحة، ولا تقولنّ: انّي مؤمّر آمُرُ فأُطاع، فانّ ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدّين، وتقرّب من الغير. وإذا أحدثَ لك ما أنّت فيه من سلطانِك أبّهةً أو مَخِيلةً، فانظر الى عِظَمِ مُلك اللهِ فوقَك، وقُدرته منك على ما لا تَقدِرُ عليه من نفسِك، فإنّ ذلك يُطامِنُ إليك من طماحِك، و يَكُف عنك من غَربِك، و يَفِيءُ إليك بما عَزَبَ عنك من عَقلِك!

إيّاكَ ومُساماةَ آللّهِ في عَظمتِه، والتّشبُّهَ به في جَبَرُوته. فإنّ اللهَ يذلُّ كَلَّ جبّارٍ، و يُهينُ كُلَّ مُختالٍ.

أنصفِ اللهَ وأنصفِ النّاسَ مِن نَفسِك، ومِن خاصّةِ أهلِك. ومَن لك فيهِ هَوىً مِن رَعِيّتِك، فإنّك

إلاّ تفعلْ تَظلِم ! ومَن ظَلمَ عِبادَ ٱللّهِ كَانَ ٱللّهُ خصمَهُ دُونَ عِبادِه. ومَن خَاصَمَهُ ٱللّهُ أدحَض حُجَّتَهُ. وكَانَ لِلّهِ حَرباً حتّى يَنزِعَ أويَتُوبَ. وليس شَيءٌ أدعىٰ إلى تَغْيِيرِ نِعمَةِ ٱللّهِ وتَعجِيلِ نِقمَتِه مِن إقامَةٍ على ظُلمٍ، فإنَّ ٱللّهَ سَمِيعٌ دَعوةَ ٱلمُضطَهَدِينَ، وهُوَ لِلظّالِمِينَ بِالمِرصَادِ.

ولْيَكُنْ أَحَبَّ ٱلأُمُورِ إليكَ أوسَطُها في الحَقِّ، وأعَمَّها في العَدلِ، وأجمَعُها لِرِضىٰ الرَّعِيَّةِ ، فإنَّ سُخطَ العامَّةِ يُجحِفُ بِرِضىٰ الخاصَّةِ، وإنَّ سُخطَ الخاصَّةِ يُغتَفَرُ مَعَ رِضىٰ العامَّةِ. وليس أحدٌ مِن الرَّعِيَّةِ أثقَلَ على الوالِي مَؤُونَةً في الرَّخاءِ، وأقَلَّ مَعُونَةً لهُ في البَلاءِ، وأكرَهَ لِلإنصافِ، وأسْأَلَ بِالإلحافِ، وأقَلَّ شُكراً عِندَ الإعْطاءِ، وأبطَأَ عُذراً عِندَ المَنْعِ، واضعف صَبراً عِندَ مُلِمّاتِ الدَّهرِ مِن أهلِ الخاصَّةِ. وإنّما عِمادُ الدِّينِ، وجِماعُ المُسلِمِينَ، والعُدَّةُ للأعداءِ، العامَّةُ مِن الأُمَّةِ؛ فليَكُنْ صِغوُكَ لَهُم، ومَيلُكَ مَعَهُمْ.

ولْيَكُنْ أبعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنك، وأشنَأَهُم عندَك ، أطلَبُهم لِمَعائِبِ النّاسِ؛ فإنَّ في النّاسِ عُيوباً، الوالِي أحقُّ مَن سَترَها، فلا تكشِفَنَّ عمّا غابَ عنكَ منها، فإنّما عليكَ تَطهِيرُ ماظَهَرَ لك، وٱللّهُ يحكُم على ماغابَ عنكَ، فاستُرِ العَورةَ ماٱستطعتَ يَستُرِ ٱللّهُ منكَ ماتُحِبُّ سَترَه مِن رَعِيَّتِكَ. أطلِقْ عنِ النّاسِ عُقدَةَ كُلِّ حِقدٍ، وٱقْطَعْ عنكَ سبَبَ كُلِّ وِترٍ، وتَغابَ عن كلِّ مالايَضِحُ لك، ولا تَعجَلَنَّ الى تصديقِ ساعٍ، فإنَّ السّاعِي غاشٌ، وإنْ تَشبَّهَ بالنّاصِحِينَ.

ولا تُدخِلَنَّ في مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعدِلُ بكَ عنِ الفَضلِ، ويَعِدُكَ الفَقرَ، ولاجَباناً يُضعِفُكَ عنِ ٱلأُمُورِ، ولاحَرِيصاً يُزَيِّنُ لكَ الشَّرَهَ بِالجَورِ، فإنَّ البُخلَ والجُبنَ والحِرصَ غرائِزُ شَتّى يَجمَعُها سُوءُ الظَّنِّ باللهِ.

إنَّ شَرَّ وُزَرائِكَ مَن كَانَ للأَشرارِ قبلَكَ وزِيراً، ومَن شَرِكَهُم في ٱلآثامِ فلايكونَنَّ لكَ بِطانَةً، فإنَّهم أعوانُ ٱلأَثَمَةِ، وإخوانُ الظَّلَمَةِ، وأنتَ واجِدٌ منهم خيرَ الخلفِ مِمَّن له مِثلُ آرائِهِم ونَفاذِهِم، وليس عليه مثلُ آصارِهِم وأوزارِهِم وآثامِهِم، مِمَّن لم يُعاوِنْ ظالِماً على ظُلمِه، ولاآثِماً على إثمِه: أُولئكَ أخَفُّ عليكَ مَؤُونَةً، وأحسنُ لكَ معُونَةً، وأحنىٰ عليكَ عَطفاً، وأقلُّ لغيرِكَ إلفاً، فاتَّخِذْ أُولئكَ خاصَّةً لخلواتِكَ وحفلاتِكَ، ثمَّ لْيَكُنْ آثرُهم عندَكَ أقوَلَهم بِمُرِّ الحَقِّ لك، وأقلَّهُم مُساعَدَةً فيمايَكونُ منكَ ممّا كَرِهَ ٱللّهُ لأوليائِه، واقِعاً ذلكَ مِن هَواكَ حيثُ وقعَ. وٱلْصِقْ بأهلِ الوَرَعِ والصِّدقِ؛ ثمَّ رُضْهُم على ألايُطرُوكَ ولايبجَحُوكَ بباطِلٍ لم تفعَلْه، فإنَّ كَثرَةَ الإطراءِ تُحدِثُ الزَّهوَ وتُدنِي من العِزَّةِ.

ولايكونَنَّ المحسن والمسيء عندكَ بمنزلة سواء، فانَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الاحسان، وتَدريباً لأهلِ الإساءةِ على الإساءةِ! وألزم كلاًّ منهم ماألزم نفسه. واعلم انّه ليس شيء بأدعى الى

حسن ظنّ راعٍ برعيّته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إيّاهم على ماليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظنّ برعيّتك، فانّ حسن الظنّ يقطع عنك نصباً طويلاً. وانّ أحقّ من حسن ظنّك به لمن حسن بلاءك عنده، وإنّ أحقّ من ساء ظنّك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقُضْ سُنَّةً صالِحَةً عَمِلَ بها صُدورُ هٰذه الاُمَّةِ، واجْتمعَتْ بِهٰا الألفةُ، وصلحتْ عليها الرعيّةُ. ولاتحدثنَّ سنّةً تضرّ بشيءٍ من ماضي تلك السننِ، فيكونَ الأجرُ لمنْ سنَّها، والوِزْرُ عليك بمانقضتَ منها.

وأكثرْ مدارسةَ العلماءِ، ومناقشةَ الحكماءِ، في تثبيتِ ماصلحَ عليه أمرُ بلادِك، وإقامةِ مااستقامَ بهِ النَّاسُ قبلَك.

واعلمْ أنّ الرّعيّةَ طبقاتٌ لايصلحُ بعضُها إلاّ ببعضٍ، ولاغنىٰ ببعضِها عن بعضٍ: فمنها جنودُ اللّهِ، ومنها كُتّابُ العامّةِ والخاصّةِ، ومنها قُضاةُ العدلِ، ومنها عُمّالُ الإنصافِ والرّفقِ، ومنها أهلُ الجزيةِ والخَراجِ من أهلِ الذّمّةِ ومُسلمةِ النّاسِ، ومنها التُّجّارُ وأهلُ الصّناعاتِ ومنها الطّبقةُ السُّفلىٰ من ذوي الحاجةِ والمَسكَنةِ، وكلٌّ قدسمّىٰ اللهُ لهُ سهمَه، ووضعَ على حدِّهِ فريضةً في كتابِه أو سُنّةِ نبيّه ـ صلى اللهُ عليه وآلِهِ وسلّم ـ عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجُنودُ، بإذنِ اللّهِ، حُصونُ الرعيّةِ، وزَينُ الوُلاةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وسُبلُ الأمنِ، وليس تقُومُ الرّعيّةُ إلاّ بِهِم. ثم لاقِوامَ لِلجُنودِ إلاّ بمايُخرجُ اللّهُ لهُم من الخَراجِ الّذي يَقوَونَ به على جهادِ عدوِّهِم، ويَعتمدونَ عليه فيما يصلحُهم، ويكونُ من وراءِ حاجتهم. ثم لاقِوامَ لهٰذينِ الصِّنفَينِ إلاّ بالصّنفِ الثّالثِ من القُضاةِ والعُمّالِ والكُتّابِ، لمايُحكمُونَ من المعاقِدِ، ويجمعونَ منَ المنافِعِ، ويُؤتَمنُونَ عليه من خواصِّ الاُمُورِ وعوامِّها. ولاقِوامَ لهم جميعاً إلاّ بالتجّارِ وذوي الصّناعاتِ، فيما يجتمعون عليه من مرافِقِهِم، ويُقيمونَه من أسواقِهِم، ويكفونَهُم من التّرفّقِ بأيديهم مالايبلُغُه رِفقُ غيرِهم. ثمّ الطّبقةُ السُّفلىٰ من أهلِ الحاجةِ والمَسكَنةِ الذين يحقُّ رِفدُهم ومَعونتُهم. وفي اللّهِ لكلٍّ سَعةٌ، ولكلٍّ على الوالِي حقٌّ بقَدرِ مايُصلحُه، وليس يَخرُجُ الوالِي من حقيقةِ ماألزمَهُ اللّهُ من ذٰلِكَ إلاّ بالإهتمامِ والاسْتعانةِ باللّهِ، وتَوطِينِ نفسِه على لُزومِ الحقّ، والصّبرِ عليهِ فيما خَفَّ عليه أو ثَقُلَ. فولِّ من جُنودِكَ أنْصحَهم في نفسِكَ لِلّهِ ولِرَسوله ولإمامِكَ، وأنْقاهم جَيباً، وأفْضلَهم حِلماً، ممّن يُبطِىءُ عن الغَضبِ، ويَستريحُ الى العُذرِ، ويَرأفُ بالضُّعفاءِ، ويَنبُو على الأقْوياءِ، وممن لايُثيرُه العُنفُ، ولايَقعُدُ به

الضَّعفُ. ثم ألصِقْ بذوي المُروءاتِ والأحْسابِ، وأهلِ البُيُوتاتِ الصَّالحةِ، والسَّوابقِ الحَسنةِ، ثم أهلِ النَّجدةِ والشَّجاعةِ، والسَّخاءِ والسَّماحَةِ؛ فإنَّهم جِماعٌ منَ الكَرمِ، وشُعبٌ منَ العُرفِ. ثم تَفقَّدْ من أُمورِهم مايَتفقَّدُ الوَالدانِ من وَلدِهما، ولايَتفاقمَنَّ في نفْسِك شَيءٌ قَوَّيتَهم به، ولا تَحقِرنَّ لُطفاً تَعاهدتَهم به وإن قلَّ؛ فإنَّه داعِيَةٌ لهم الى بَذلِ النَّصيحةِ لك، وحُسنِ الظَّنِّ بك. ولا تَدعْ تفقُّدَ لَطيفِ أُمورِهم اتِّكالاً على جَسيمِها، فإنَّ لِليَسيرِ من لُطفِك مَوضِعاً يَنتفِعُونَ به، وللجَسيمِ مَوقِعاً لايَستغنونَ عَنه.

ولْيَكنْ آثرُ رُؤُوسِ جُندِك عِندَك مَن واساهم في مَعونَتِهِ، وأفضلَ عليهم مِن جِدتِه، بمايَسعُهم ويَسعُ مَن وَراءَهم مِن خُلوفِ أهليهم، حتَّى يَكونَ هَمُّهم هَمّاً واحِداً في جِهادِ العَدوِّ؛ فإنَّ عَطفَك عليهم يَعطفُ قُلوبَهم عليك، وإنَّ أفضلَ قُرَّةِ عَينِ الوُلاةِ اسْتقامةُ العَدلِ في البِلادِ، وظُهورُ مودَّةِ الرَّعِيَّةِ. وإنَّه لا تَظهَرُ مَودَّتُهم إلاَّ بسَلامةِ صُدورِهم، ولا تَصِحُّ نَصيحتُهم إلاَّ بحِيطتِهم على وُلاةِ الأُمورِ، وقِلَّةِ اسْتثقالِ دُوَلِهم، وتَركِ اسْتبطاءِ انْقطاعِ مُدَّتِهم، فافْسَحْ في آمالِهم، وواصِلْ في حُسنِ الثَّناءِ عليهم، وتَعديدِ ماأبلَى ذَوو البَلاءِ مِنهم؛ فإنَّ كَثرةَ الذِّكرِ لِحُسنِ أفْعالِهم تَهزُّ الشُّجاعَ، وتُحرِّضُ النَّاكلَ، إن شاءَ اللهُ.

ثم اعرِفْ لكلِّ امرىءٍ منهم ماأبلَى، ولا تَضمَّنَّ بَلاءَ امرىءٍ إلى غيرِه، ولا تُقصِّرنَّ به دُونَ غايةِ بَلائِه، ولايَدعُوَنَّك شَرفُ امرىءٍ إلى أنْ تُعظِّمَ مِن بَلائِه ماكانَ صَغيراً، ولاضَعةُ امرىءٍ إلى أنْ تَستصغرَ مِن بَلائِه ماكانَ عَظيماً.

واردُدْ إلى اللَّهِ ورَسولِه مايُضلِعُك مِن الخُطوبِ، ويَشتبِه عليك مِن الأُمورِ؛ فقدقال اللَّهُ تَعالَى لِقَومٍ أحبَّ إرشادَهُم: «يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمرِ مِنكُم، فإنْ تَنازَعْتم في شَيءٍ فرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ» فالرَّدُّ إلى اللَّهِ: الأخذُ بمُحكمِ كِتَابِهِ، والرَّدُّ إلى الرَّسولِ: الأخذُ بسُنَّتِه الجامعةِ غيرِ المُفرِّقةِ.

ثم اخترْ للحُكمِ بَينَ النَّاسِ أفضلَ رَعيَّتِك في نفْسِك، ممن لا تَضيقُ به الأمُورُ، ولا تُمحِّكُه الخُصومُ، ولايَتمادَى في الزَّلَّةِ، ولايَحصرُ مِن الفَيءِ إلى الحَقِّ إذا عَرفَه، ولا تُشرِفُ نفْسُه على طَمعٍ، ولايَكتفِي بأدنَى فَهمٍ دُونَ أقصاهُ؛ وأوقفَهم في الشُّبهاتِ، وآخذَهم بالحُججِ، وأقلَّهُم تبرُّماً بمُراجعَةِ الخَصمِ، وأصْبرَهم على تكشُّفِ الأمُورِ، وأصرمَهم عندَ اتِّضاحِ الحُكمِ، ممنْ لايَزدهيهِ إطراءٌ، ولايَستميلُه إغراءٌ، وأُولئك قَليلٌ. ثم أكثرْ تَعاهدَ قَضائِه، وافسَحْ له في البَذْلِ مايُزيلُ عِلَّتَه، وتَقلُّ معه حاجتُه إلى النَّاسِ. وأعطِه مِن المَنزلةِ لدَيك مالايَطمعُ فيه غيرُه مِن خاصَّتِك، لِيَأمَنَ بذلك اغْتيالَ الرِّجالِ له عندَك.

فانظرْ في ذلك نظراً بليغاً، فإنَّ هٰذا الدِّينَ قد كان أسيراً في أيدِي الأشرارِ، يُعملُ فيه بالهَوىٰ، وتُطلبُ به الدُّنيا.

ثم انظرْ في أمورِ عُمَّالِك فاستعملْهم اختباراً، ولا تُولِّهم مُحاباةً وأثرةً، فإنَّهما جِماعٌ مِن شُعبِ الجَورِ والخِيانةِ. وتوخَّ منهم أهلَ التَّجربةِ والحَياءِ، مِن أهلِ البُيوتاتِ الصَّالحةِ، والقَدمِ في الإسلامِ المُتقدِّمةِ، فإنَّهم أكرمُ أخلاقاً. وأصحُّ أعراضاً، وأقلُّ في المَطامعِ إشراقاً، وأبلغُ في عَواقِبِ الأمُورِ نَظراً. ثم أسْبغْ عليهم الأرزاقَ، فإنَّ ذلك قوَّةٌ لهم على استصلاحِ أنفسِهم، وغِنىً لهم عن تَناوُلِ ماتحتَ أيدِيهم، وحُجَّةٌ عليهمْ إنْ خالفُوا أمْرَك أو ثَلمُوا أمانتَك. ثم تفقَّدْ أعمالَهم، وابْعثِ العُيونَ مِن أهلِ الصِّدقِ والوَفاءِ عليهم، فإنَّ تَعاهدَك في السِّرِّ لأمُورِهم حَدوةٌ لهم على استعمالِ الأمانةِ، والرِّفقِ بالرَّعيَّةِ. وتحفَّظْ مِنَ الأعوانِ؛ فإنْ أحدٌ منهم بَسطَ يَدهُ إلى خِيانةٍ اجْتمعتْ بها عليه عندَك أخبارُ عُيونِك، اكْتفيتَ بذلك شاهداً، فبَسطتَ عليهِ العُقُوبةَ في بَدنِه، وأخذتَه بما أصابَ مِن عَملِه، ثم نَصبتَه بمَقامِ المَذلَّةِ، ووَسمتَه بالخِيانَةِ، وقلَّدتَه عارَ التُّهمةِ.

وتفقَّدْ أمرَ الخَراجِ بما يُصلحُ أهلَه، فإنَّ في صلاحِه وصلاحِهم صَلاحاً لِمَن سِواهُم، ولا صلاحَ لِمَن سِواهُم إلاَّ بهم، لأنَّ النَّاسَ كلَّهُم عِيالٌ على الخَراجِ وأهلِه. ولْيَكنْ نَظرُك في عِمارةِ الأرضِ أبلغَ مِن نَظرِك في استجلابِ الخَراجِ، لأنَّ ذلك لا يُدركُ إلاَّ بالعِمارةِ؛ ومَن طَلبَ الخَراجَ بغَيرِ عِمارةٍ أخربَ البِلادَ، وأهلكَ العِبادَ، ولم يَستقمْ أمرُه إلاَّ قَليلاً. فإنْ شَكوْا ثِقلاً أو عِلَّةً، أو انْقطاعَ شِربٍ أو بالَّةٍ، أو إحالةَ أرضٍ اغْتمرَها غَرقٌ، أو أجحفَ بها عَطشٌ، خَفَّفتَ عنهم بما تَرجُو أنْ يصلحَ به أمرُهُم، ولا يَثقلنَّ عليك شيءٌ خَفَّفتَ به المَؤُونةَ عنهُم. فإنَّه ذُخرٌ يَعودونَ به عليك في عِمارةِ بلادِك، وتَزيينِ ولايتِك، مع استجلابِك حُسنَ ثَنائِهم، وتَبجُّحِك باستفاضةِ العَدلِ فيهم، مُعتمداً فَضلَ قوَّتِهم، بما ذَخرتَ عندَهُم مِن إجْمامِك لهم. والثِّقةَ مِنهُم بما عوَّدتَهُم مِن عَدلِك عليهم ورِفْقِك بهم. فرُبَّما حدثَ مِن الأمُورِ ما إذا عوَّلتَ فيه عليهم مِن بَعدُ احتملُوه طَيِّبةً أنفسُهُم به؛ فإنَّ العُمرانَ مُحتملٌ ماحمَّلتَه، وإنَّما يُؤتَى خَرابُ الأرضِ مِن إعْوازِ أهلِها، وإنَّما يُعوِزُ أهلَها لإشرافِ أنفسِ الوُلاةِ على الجَمعِ، وسُوءِ ظَنِّهم بالبَقاءِ، وقِلَّةِ انْتفاعِهم بالعِبرِ.

ثم انظرْ في حالِ كُتَّابِك، فوَلِّ على أمُورِك خَيرَهُم، واخْصصْ رَسائلَك الَّتي تُدخلُ فيها مَكائدَك وأسرارَك بأجْمعِهِم لِوُجوهِ صالحِ الأخْلاقِ مِمَّن لا تُبطرُه الكَرامةُ، فيَجترىءَ بها عليك في خِلافٍ لك بحَضرةِ مَلأٍ، ولا تَقصرُ به الغَفلةُ عن إيرادِ مُكاتباتِ عُمَّالِك عليك. وإصْدارِ جَواباتِها على الصَّوابِ

عنك، فيما يأخذُ لك ويُعطِي منك، ولا يُضعِفُ عَقداً آعْتقده لك، ولا يَعجِزُ عن إطْلاقِ ما عُقِدَ عليك، ولا يَجهلُ مَبلغَ قَدرِ نَفسِه في الأمُورِ، فإنَّ الجاهلَ بقَدرِ نفسِه يَكونُ بقَدرِ غيرِه أجْهلَ. ثم لا يَكنِ آختيارُكَ إياهُم على فِراستِكَ وآستنامتِكَ وحُسنِ الظَّنِّ منك، فإنَّ الرِّجالَ يَتعرَّضونَ لِفراساتِ الوُلاةِ بتصنُّعِهِم وحُسنِ خِدمتِهِم، وليس وراءَ ذٰلِكَ مِن النَّصيحةِ والأمانةِ شَيءٌ. ولكنِ آختبرهُم بما وُلُّوا لِلصَّالحينَ قَبلَكَ، فاعْمِدْ لأحسنِهِم كانَ في العامَّةِ أثراً، وأعرفِهِم بالأمانةِ وَجهاً، فإنَّ ذٰلِكَ دَليلٌ على نَصيحتِكَ لِلّهِ ولِمَن وُلِّيتَ أمرَهُ. وآجعَلْ لِرأسِ كُلِّ أمرٍ مِن أمُورِكَ رَأساً مِنهم. لا يَقهرُه كَبيرُها، ولا يَتشتَّتُ عليه كَثيرُها، ومَهما كانَ في كُتَّابِكَ مِن عَيبٍ فتَغابَيتَ عنه ألْزمتَه.

ثم آستوصِ بِالتُّجَّارِ وذَوي الصِّناعاتِ، وأوصِ بِهِم خَيراً: المُقيمِ منهم والمُضطربِ بمالِه، والمُترفِّقِ ببَدنِه، فإنَّهم مَوادُّ المَنافعِ، وأسبابُ المَرافِقِ، وجُلَّابُها مِن المَباعِدِ والمَطارِحِ، في بَرِّكَ وبَحرِكَ، وسهلِكَ وجَبلِكَ، وحيثُ لا يَلتئِمُ النَّاسُ لِمَواضِعِها، ولا يَجترِؤونَ عليها، فإنَّهُمْ سِلْمٌ لا تُخافُ بائقَتُهُ، وَصُلح لا تُخشىٰ غائلتُه. وتَفقَّدْ أمُورَهُم بِحَضرتِكَ وفي حَواشي بِلادِكَ. وآعْلمْ -مع ذلِكَ أنَّ في كَثيرٍ مِنهُم ضِيقاً فاحشاً، وشُحّاً قَبيحاً، وآحتكاراً لِلمَنافِعِ، وتَحكُّماً في البياعاتِ، وَذلِكَ بابُ مَضرَّةٍ لِلعامَّةِ، وَعَيبٌ على الوُلاةِ. فَامْنَعْ مِنَ الاحتكارِ، فإنَّ رَسُولَ اللّهِ -صَلَّى اللّهُ عَليهِ وآلِهِ وسلَّمَ- مَنعَ منه. ولْيَكنِ البَيعُ بَيعاً سَمحاً: بِمَوازينِ عَدلٍ، وأسعارٍ لا تُجحِفُ بِالفَريقَينِ مِن البائِعِ وَالمُبتاعِ. فَمَن قارفَ حُكرَةً بَعدَ نَهيِكَ إيَّاهُ فَنكِّلْ بِهِ، وَعاقِبْهُ في غَيرِ إسْرافٍ.

ثم اللّهَ اللّهَ في الطَّبقةِ السُّفلىٰ مِن الَّذينَ لا حِيلةَ لهُم، مِن المَساكينِ والمُحتاجينَ وأهلِ البُؤسىٰ والزَّمنىٰ، فإنَّ في هٰذه الطَّبقةِ قانعاً ومُعتَرّاً، وآحفظْ لِلّهِ ما آستحفظَكَ مِن حَقِّهِ فيهِم، وآجعلْ لهُم قِسماً مِن بَيتِ مالِك، وقِسماً مِن غَلَّاتِ صَوافي الإسلامِ في كُلِّ بَلدٍ، فإنَّ لِلأقصىٰ مِنهم مِثلَ الَّذي لِلأدنىٰ، وكُلٌّ قدِ آسترُعيتَ حَقَّه، فلا يَشغلنَّكَ عنهُم بَطرٌ، فإنَّكَ لا تُعذرُ بتضييعِكَ التَّافِهَ لإحْكامِكَ الكَثيرَ المُهمَّ. فلا تُشخِصْ هَمَّكَ عنهُم، ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ لهُم، وتَفقَّدْ أمُورَ مَن لا يَصلُ إليكَ مِنهم مِمَّن تَقتحمُه العُيونُ، وتَحقرُهُ الرِّجالُ؛ فَفرِّغْ لأولٰئِكَ ثِقتَكَ مِن أهلِ الخَشيةِ والتَّواضُعِ، فَلْيَرفَعْ إلَيكَ أمُورَهُم، ثم آعْمَلْ فيهِم بالإعْذارِ إلى اللّهِ يَومَ تَلقاهُ، فإنَّ هٰؤلاءِ مِن بَينِ الرَّعيَّةِ أحوَجُ إلى الإنصافِ مِن غَيرِهِم، وكُلٌّ فأعذِرْ إلى اللّهِ في تادِيةِ حَقِّه إليهِ. وتَعهَّدْ أهلَ اليُتمِ وذَوي الرِّقَّةِ في السِّنِّ مِمَّن لا حِيلةَ لهُ، ولا يَنصبُ لِلمَسألةِ نَفسَهُ، وذٰلكَ على الوُلاةِ ثَقيلٌ، والحَقُّ كلُّهُ ثَقيلٌ؛ وقد يُخفِّفُهُ اللّهُ على أقوامٍ طَلبُوا العاقبةَ فصَبَّرُوا أنفُسَهُم، ووَثِقُوا بِصِدقِ مَوعُودِ اللّهِ لَهُم.

وٱجعلْ لذوي ٱلحاجاتِ منك قِسماً تُفرِّغُ لَهم فيهِ شَخصَك، وتَجلِسُ لَهم مَجلساً عاماً فتتواضعُ فيه لِلّهِ الّذي خَلقك، وتُقعدَ عنهم جُندكَ وأعوانَكَ مِن أحراسِك وَشُرطِك، حتّى يُكلّمَكَ مُتكلِّمُهم غيرَ مُتتعتِعٍ، فإنّي سَمعتُ رَسولَ ٱللهِ -صَلّىٰ ٱللهُ عليه وآلِه وسَلّمَ- يَقولُ في غيرِ مَوطنٍ: «لَن تُقدّسَ أُمّةٌ لايُؤخذُ لِلضّعيفِ فيها حَقُّهُ مِن ٱلقويّ غيرَ مُتتعتِعٍ». ثم ٱحتمِلِ ٱلخُرقَ مِنهم وٱلعِيَّ. وَنَحِّ عنهُم الضّيقَ وٱلأنفَ يَبسطِ ٱللهُ عليكَ بذلكَ أكنافَ رَحمتِه، ويُوجبْ لكَ ثوابَ طاعتِه، وأعطِ ماأعطَيتَ هَنيئاً، وٱمنعْ في إجمالٍ وإعْذارٍ!

ثم أُمورٌ مِن أُمورِك لابدَّ لكَ مِن مُباشرتِها: مِنها إجابةُ عُمّالِك بِمايَعيَا عَنهُ كُتّابُك، ومِنها إصْدارُ حاجاتِ النّاسِ يومَ وُرودِها عَليك بِماتَحرَجُ بِه صُدورُ أعوانِك. وأمْضِ لِكُلّ يَومٍ عَملَه، فإنَّ لِكُلِّ يومٍ مافيهِ. وٱجعلْ لِنفسِك فيمابَينَك وبَينَ ٱللهِ أفضلَ تِلكَ ٱلمواقيتِ، وأجزلَ تِلكَ ٱلأقسامِ، وإنْ كانَتْ كُلُّها لِلهِ إذا صَلحتْ فيها النّيّةُ، وسَلمتْ مِنها الرَّعيّةُ.

ولْيكنْ في خاصّةِ ماتُخلِصُ بهِ لِلهِ دِينَك: إقامَةُ فَرائضِهِ الّتي هِيَ لهُ خاصّةً، فأعْطِ ٱللهَ مِن بَدنِك في لَيلِك ونَهارِك، ووَفِّ ماتقرّبتَ بهِ إلى ٱللهِ مِن ذٰلك كاملاً غيرَ مَثلومٍ ولامَنقوصٍ، بالِغاً مِن بَدنِك مابَلغَ. وإذا قُمتَ في صَلاتِك لِلنّاسِ، فلاتكونَنَّ مُنفِّراً ولامُضيِّعاً، فإنَّ في النّاسِ مَن بهِ ٱلعِلّةُ ولهُ ٱلحاجةُ. وقد سألتُ رَسولَ ٱللهِ -صَلّى ٱللهُ عليه وآلِه وسَلّمَ- حِينَ وَجّهني إلى ٱليمنِ كَيفَ أُصلّي بِهم؟ فقالَ: «صَلِّ بهم كَصلاةِ أضعفِهم، وكُنْ بِالمُؤمنينَ رَحيماً».

وأمّا بَعدُ، فلاتُطوِّلَنَّ ٱحتجابَك عَن رَعيّتِك، فإنَّ ٱحتجابَ الوُلاةِ عَن الرَّعيّةِ شُعبةٌ مِن الضّيقِ، وقِلّةُ عِلمٍ بالأمُورِ؛ والإحتجابُ مِنهُم يَقطعُ عَنهم عِلمَ ماٱحتجبوا دُونَه فيَصغُرُ عِندَهُم ٱلكَبيرُ، ويَعظُمُ الصَّغيرُ، ويَقبحُ ٱلحَسنُ، ويَحسنُ ٱلقَبيحُ، ويُشابُ ٱلحَقُّ بِالباطلِ. وإنّما الوالِي بَشرٌ لايَعرفُ ماتوارىٰ عَنه النّاسُ بهِ مِن ٱلأُمورِ، ولَيستْ على ٱلحَقِّ سِماتٌ تُعرَفُ بِها ضُروبُ الصِّدقِ مِن ٱلكَذِبِ، وإنّما أنتَ أحَدُ رَجلينِ: إمّا ٱمرُؤٌ سَخَتْ نفسُك بِالبَذلِ في ٱلحَقِّ، فَفِيمَ ٱحتجابُك مِن واجِبِ حَقٍّ تُعطيهِ، أو فِعلٍ كَريمٍ تُسديهِ! أو مُبتلىً بِالمَنعِ، فَماأسرَعَ كَفَّ ٱلنّاسِ عَن مَسألتِك إذا أيِسُوا مِن بَذلِك! مَع أنَّ أكثرَ حاجاتِ النّاسِ إلَيكَ مِمّا لامَؤونةَ فيهِ عَليك، مِن شَكاةِ مَظلمةٍ، أو طَلبِ إنْصافٍ في مُعاملةٍ.

ثم إنَّ لِلوالِي خاصّةً وبِطانةً، فيهِمُ ٱستئثارٌ وتطاوُلٌ، وقِلّةُ إنْصافٍ في مُعاملةٍ، فَاحسِمْ مادّةَ أُولٰئك بِقطعِ أسْبابِ تِلكَ ٱلأحوالِ. ولا تُقطِعَنَّ لأحدٍ مِن حاشيتِك وحامّتِك قَطيعةً، ولايَطمعنَّ مِنكَ في ٱعتقادِ عُقدةٍ، تَضرُّ بِمَن يَليها مِن النّاسِ، في شِربٍ أو عَملٍ مُشتركٍ، يَحملُونَ مَؤونَته على غَيرِهم، فيَكونَ مَهنأُ

ذلِكَ لَهُم دُونَك، وعَيبُه عَليكَ في الدُّنيا والآخرَة.

والزِمِ الحَقَّ مَن لَزِمَه مِن القَريبِ والبَعيدِ، وكُن في ذلِكَ صابراً مُحتسباً، واقعاً ذلك مِن قرابَتِك وخاصَّتِك حَيثُ وَقعَ، وابتَغِ عاقبتَه بما يَثقلُ عليكَ منه، فإنَّ مَغبَّةَ ذلِكَ مَحمودةٌ.

وإنْ ظنَّتِ الرَّعيَّةُ بك حَيفاً فأصحِرْ لهم بعُذرِك، واعدِلْ عنكَ ظُنونَهم بإصحارِك، فإنَّ في ذلك رِياضةً منك لنَفسِك، ورِفقاً برعيَّتِك، وإعذاراً تَبلُغُ به حاجتَك مِن تَقويمِهم على الحَقِّ.

ولا تَدفَعَنَّ صُلحاً دَعاكَ إليه عَدوُّكَ وللهِ فيهِ رِضىً، فإنَّ في الصُّلحِ دَعةً لِجُنودِك، وراحةً مِن هُمومِك، وأمناً لِبِلادِك، ولكنِ الحَذرَ كُلَّ الحَذرِ مِن عَدوِّك بَعدَ صُلحِه، فإنَّ العَدوَّ رُبَّما قاربَ لِيَتغفَّلَ، فَخُذْ بِالحَزمِ، واتَّهِمْ في ذلك حُسنَ الظَّنِّ. وإن عَقدتَ بَينَكَ وبَينَ عَدوِّك عُقدةً، أو ألبستَه مِنك ذِمَّةً، فحُطْ عَهدَك بالوَفاءِ، وارْعَ ذِمَّتَكَ بالأمانةِ، واجعلْ نفسَكَ جُنَّةً دُونَ ما أعْطيتَ، فإنَّه ليس مِن فَرائضِ اللهِ شَيءٌ النَّاسُ أشَدُّ عَليهِ اجتماعاً، مَع تَفرُّقِ أهوائِهِمْ، وتَشتُّتِ آرائِهِم، مِن تَعظيمِ الوَفاءِ بِالعُهودِ. وقد لزِمَ ذلكَ المُشركونَ فيما بَينَهُم دُونَ المُسلمينَ لِما استَوبَلُوا من عواقب الغدر؛ فلا تغدرَنَّ بذمتك، ولاتخيسَنَّ بعهدك، ولا تَختلَنَّ عَدوَّك، فإنَّه لايَجتَرِىءُ عَلى اللهِ إلاّ جاهلٌ شَقيٌّ. وقدجَعلَ اللهُ عَهدَه وذِمَّتَه أمناً أفْضاهُ بَينَ العِبادِ برَحمتِه، وحَريماً يَسكنونَ إلى مَنعتِه، ويَستفيضونَ إلى جِوارِه، فلاإدْغالَ ولامُدالسةَ ولاخِداعَ فيهِ، ولا تَعقِدْ عَقداً تُجوِّزُ فيهِ العِلَلَ، ولا تُعوِّلَنَّ عَلى لَحنِ قَولٍ بَعدَ التَّأكيدِ والتَّوثِقَةِ. ولايَدعونَّكَ ضِيقُ أمرٍ، لزِمَكَ فيهِ عَهدُ اللهِ، إلى طَلبِ انفِساخِه بِغيرِ الحَقِّ، فإنَّ صَبرَكَ على ضِيقِ أمرٍ تَرجُو انفراجَه وفَضلَ عاقبتِهِ، خيرٌ مِن غَدرٍ تَخافُ تَبعتَهُ، وأنْ تُحيطَ بِكَ مِن اللهِ فيهِ طِلبةٌ، لا تَستقبِلُ فيها دُنياكَ ولاآخرتَكَ.

إيَّاكَ والدِّماءَ وسَفكَها بغَيرِ حِلِّها، فإنَّه ليس شَيءٌ أدنى لِنِقمةٍ، ولاأعْظَمَ لِتَبعةٍ، ولاأحرى بزوالِ نِعمةٍ، وانقِطاعِ مُدَّةٍ، مِن سَفكِ الدِّماءِ بغَيرِ حَقِّها. واللهُ سُبحانَه مُبتدىءٌ بِالحُكمِ بَينَ العِبادِ؛ فيما تَسافكُوا مِن الدِّماءِ يَومَ القِيامةِ؛ فَلاتُقوِّيَنَّ سُلطانَكَ بسَفكِ دَمٍ حَرامٍ، فإنَّ ذلكَ مِمّا يُضعِفُه ويُوهِنُه، بَل يُزيلُه ويَنقلُه. ولاعُذرَ لكَ عِندَ اللهِ ولاعِندي في قَتلِ العَمدِ، لأنَّ فيهِ قَودَ البَدنِ. وإنِ ابتُليتَ بخَطأٍ وأفرَطَ عَليكَ سَوطُكَ أو سَيفُكَ أو يَدُكَ بالعُقوبةِ؛ فإنَّ في الوَكزةِ فما فَوقَها مَقتلةً، فلا تَطمحَنَّ بِكَ نَخوةُ سُلطانِكَ عَن أنْ تُؤدِّيَ إلى أولياءِ المَقتولِ حَقَّهُم.

وإيَّاكَ والإعجابَ بنَفسِك، والثِّقةَ بما يُعجِبُكَ مِنها، وحُبَّ الإطراءِ، فإنَّ ذلكَ مِن أوثَقِ فُرَصِ الشَّيطانِ في نَفسِه لِيَمحقَ مايَكونُ مِن إحْسانِ المُحسنينَ.

وإيّاك والمَنّ على رعيّتك بإحسانك، أو التزيّد فيما كان من فعلك، أو أنْ تعدهم فتتبع موعدك بخُلفك، فإنّ المَنّ يبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحقّ، والخُلف يوجب المقت عند اللهِ والنّاس. قالَ اللهُ تعالىٰ: «كبر مقتاً عند اللهِ أنْ تقولوا مالا تفعلونَ».

وإيّاك والعجلة بالامور قبل أوانها، أو التسقّط فيها عند إمكانها، أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كُلّ أمرٍ موضعه، وأوقع كُلّ أمرٍ موقعه.

وإيّاك والإستئثار بما النّاس فيه اُسوة، والتّغابي عمّا تعنىٰ به ممّا قد وضح للعيون، فإنّهُ مأخوذٌ منك لغيرك. وعمّا قليلٍ تنكشف عنك أغطية الامور، و ينتصف منك للمظلوم. املك حميّة أنفك، وسورة حدّك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كُلّ ذلك بكفّ البادرة، وتأخير السّطوة، حتّى يسكن غضبك فتملك الإختيار: ولن تحكم ذلك من نفسك حتّى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربّك.

والواجب عليك أنْ تتذكّر مامضىٰ لمن تقدمك من حكومةٍ عادلةٍ، أوْ سُنّةٍ فاضلةٍ، أو أثرٍ عن نبيّنا -صلّى اللّهُ عليه وآلِه وسلّم- أو فريضةٍ في كتاب اللّهِ، فتقتدي بما شاهدت ممّا عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا، واستوثقتُ به من الحُجّة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علّةٌ عند تسرّع نفسك إلى هواها. وأنا أسألُ اللّهَ بسعة رحمته، وعظيم قُدرته علىٰ إعطاءِ كُلّ رغبةٍ، أنْ يُوفّقني وإيّاك لما فيه رضاهُ من الإقامة علىٰ العُذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حُسن الثّناءِ في العبادِ، وجميل الأثر في البلادِ، وتمام النّعمة، وتضعيف الكرامة، وأنْ يختم لي ولك بالسّعادةِ والشّهادةِ، «إنّا إليه راجعونَ». والسّلامُ على رسولِ اللّهِ -صلّى اللّهُ عليه وآلِه وسلّم- الطّيّبين الطّاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً، والسّلامُ.[١]

أقول: فلو عمّمنا الولاة الى ولاة الجور، فلابدّ للرّعيّة أيضاً ملاحظة حقوقهم، كما يجب على الولاة ملاحظة حقوق الرّعيّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، في بعض خطبه بصفّين بعد الحمد والثناء: «امّا بعد فقد جعل الله تعالى لي عليكم حقّاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الّذي لي عليكم فالحقّ أوسع الأشياء في التّواصف وأضيقها في التّناصف لايجري لأحد إلاّ جرىٰ عليه ولايجري عليه إلاّ جرىٰ له ولو كان لأحد أن يجري ذلك له ولايجري عليه لكان ذلك لله عزّ وجلّ خالصاً دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في

١. نهج البلاغة صبحي صالح، رسائل أمير المؤمنين ٤٢٦/٥٣. تحف العقول/٩٠.

كلّما جرت عليه ضروب قضائه ولكن حقّه على العباد أن يطيعوه وجعلت كفارتهم عليه بحسن الثّواب تفضّلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد له أهلاً ثمّ جعل من حقوقه حُقوقاً فرضها لبعض النّاس على بعض فجعلها تتكافأفي وجوهها و يوجب بعضها بعضاً ولايستوجب بعضها إلاّ ببعض فاعظم ماافترض الله تبارك وتعالى من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرّعية وحقّ الرّعيّة على الوالي فريضة فرضها الله عزّوجلّ لكلّ على كلّ فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم وقواماً لتيسير الحقّ فيهم فليست تصلح الرّعيّة إلاّ بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرّعيّة فاذا أدّت الرّعيّة الى الوالي حقّه وأدّى الوالي اليها حقّها كذلك عزّ الحقّ بينهم فقامت مناهج الدّين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن وصلح بذلك الزّمان وطاب بها العيش وطمع في بقاء الدولة و يئست مطامع الأعداء وإذا غلبت الرّعيّة وُالِيَهَا وأَجْحَفَ الوالي الرّعيّة اختلفت هنالك الكلمة وظهرت مطالع الجور وكثر الأدغال في الدّين وتركت محاج السّنن فعمل بالهوى وعطّلت الآثار وكثرت علل النّفوس ولايستوحش لجسيم حقّ عطّل ولالعظيم باطل فعُل وهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار وتخرب البلاد وتعظم تبعات الله عزّوجلّ عند العباد»[1].

هذا تمام الكلام بالنّسبة الى تنبيه الأمراء إجمالاً.

وامّا ايقاظ العلماء، فلمّا كانت زلاّتهم أشدّ من زلاّت الأمراء، لكونهم منتسبين الى الدّين وفسادهم يوجب فساد الرّعيّة، كما قال في منشور الحكم: «زلّة العلماء كزلّة السّفينة تغرق، و يغرق معها خلق كثير»[2].

وقيل لعيسى عليه السّلام: «مَن أشدّ النّاسِ فتنة؟ فقال: زلّة العالم، لأنّه إذا زلّ، زلّ بزلّته عالم كثير»[3].

«والفاضل الفندرسكي شبّه العالم برجل من الرّجال فذكر انّ الملوك والحكّام رأس ذلك الرّجل والعلماء قلبه، فكما انّ سلامة الرّجل في سلامة قلبه فكذا سلامة العالَم في سلامة العالِم وكذا طرف الفساد».

فوجب أن نشير الى بعض المطالب المهمّة تنفعنا في الدّين والدنيا.

١. نهج البلاغة صبحي صالح/٣٣٢ من خطبته «ع»/٢١٦.
٢. غرر الحكم/١٨٨.
٣. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

ايقاظ

أقول: اعلم انَّ العلماء ذكروا في اثبات أشرفيّة الانسان عن سائر الحيوانات وأشرفيّة العلم ومن اتّصف به وُجوهاً، من دليل العقل:

أحدها: انَّ المعقولات تنقسم، الى موجودة ومعدومة والعقول السّليمة تشهد بأنَّ الموجود، أشرف من المعدوم؛ بل لاشرف للمعدوم أصلاً؛ ثمَّ الموجود ينقسم الى جماد ونامٍ والنَّامي أشرف من الجماد، ثمَّ النَّامي ينقسم الى حسّاس وغير حسّاس والحسّاس أشرف من غيره، ثمَّ الحسَّاس ينقسم الى عاقل وغير عاقل ولاشك انَّ العاقل أشرف من غيره؛ ثمن العاقل ينقسم الى عالم وجاهل ولاشبهة انَّ العالم أشرف من الجاهل؛ فتبيّن بذلك؛ انَّ العالم أشرف المعقولات والموجودات، وهذا أمر يلحق بالواضحات وقضيّة قياساتها معها.

ثانيها: انَّ الأمور على أربعة أقسام، قسمٌ يرضاه العقل ولا ترضاه الشّهوة وقسم عكسه وقسم يرضيانه وقسم لايرضيانه: فالأوّل كالأمراض والمكاره الدّنيويّة؛ والثاني المعاصي أجمع؛ والثالث العلم؛ والرّابع الجهل، فمنزلة العلم من الجهل بمنزلة الجنَّة من النار، فكما انَّ العقل والشّهوة لايرضيان بالنَّار، كذا لايرضيان بالجهل وكما انَّهما يرضيان بالجنة، كذا يرضيان بالعلم، فمن رضي بالعلم فقد خاضَ في جنَّة حاضرة، ومن رضي بالجهل فقد رضى بنار حاضرة: ثمَّ مَن اختار العلم يقال له: بعد الموت تعودت المقام في الجنَّة، فادخلها وللآخر تعودت على النَّار، فادخلها والدّليل على أنَّ العلم جنَّة والجهل نار: انَّ كمال اللّذة في ادراك المخفيّات وكمال الألم في البعد عن المحبوب، فالجراحة إنَّما تؤلم، لأنَّها تبعد جزء من البدن عن جزء محبوب من تلك الأجزاء وهو الاجتماع، والإحراق بالنَّار أشدّ إيلاماً من الجرح، لأنَّ الجرح لايكون إلاَّ ببعد جزء معيّن عن

جزء معيّن، والنار تُتلِف جميع الأجزاء وتقتضي تبعيد بعض الأجزاء عن بعض.

وإذا تقرّر ذلك، فكلّما كان الإدراك أعوض وأشدّ والمدرك أشرف وأكمل والمدرك أبقى وأنقى، فاللّذة أشرف وألذّ، ولاشك انّ محلّ اللّذة هو الرّوح وهو أشرف من البدن وان ادراك العقل أشرف وأعوض. وامّا المعلوم فلاشك انّه من غيره، لأنّه هو الله ربّ العالمين وجميع مخلوقاته من الملائكة وغيرهم وجميع تكليفاته، وأيّ معلوم أشرف من ذلك؛ فاذاً قد تطابق العقل والنّقل على شرف العلم وارتفاع محلّه وعظم جوهره ونفاسته ذاته. وسيذكر النّقل الوارد في شرف العلم والعالم.

فالعلم هو الصّفة الّتي خصّه الله الإنسان به، بعد نعمة الخلق وأكرمه بها، حيث قال وعزّ من قائل: «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ»[١].

وصفة الكرامة أشرف الأوصاف، لأنّ الكرم افادة ماينبغي، وقال «تعالى» ذكره: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»[٢]. بل تعليم القرآن مُقدم على خلق الانسان، حيث قال: «الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ»[٣]. وإن قيل: انّ المراد من علّم القرآن تعليم الملائكة قبل خلق الإنسان ولكن كلامنا في صفة العلم من حيث كونه أشرف الأوصاف، وإن كان في الملائكة قبل الإنسان.

وقد علّم الله تعالى سبعة نفر سبعة[٤] أشياء: علّم آدم الأسماء كلّها والخِضر عُلِّم الفراسة و يُوسف علم التّعبير وداوُد «ع» صنعة لبُوس وسُليمان منطق الطّير ومُوسىٰ التّوريٰة، وعيسى الإنجيل و يعلّمه الكتاب والحكمة والتّوريٰة والإنجيل، ومحمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم، عُلِّم الشّرع والتّوحيد و يُعلّمك الكتاب والحكمة. فعلم آدم «ع» كان سبباً في سُجود الملائكة له والرّفعة عليهم، وعلم الخضر «ع» كان سبباً لوجود موسى، تلميذاً له و يوشع «ع» وتَذلُّله له، كما في الآيات وعلم يوسف كان سبباً

١. سورة العلق/ ١-٥.
٢. سورة الرّحمان/٣.
٣. سورة الرّحمان/ ١-٢.
٤. كذا في النسخة والظاهر ثمانية بدل سبعة في الموضعين.

لوجدان الأهل، والمملكة والإجتباء وعلم داوُد «ع» كان سبباً للرّئاسة والدّرجة وعلم سُليمان «ع» كان سبباً لوجدان بلقيس وغلبته إيّاها[1] وعلم عيسى «ع» كان سبباً لزوال التّهمة من أُمّه وعلم محمّد صلّى الله عليه وآله كان سبباً للشّفاعة. والعلم هو الخير الكثير والعلم هو الحفظ الأكبر و بالعلم يدور معاش أهل الدّنيا و بالعلم تنتظم جميع الأمور و بالعلم تجري الفلك في البحار و بالعلم تدور الأمور في اللّيل والنّهار.

و بالجهل يعذّب الكفّار و بالجهل يعاقب الفجّار، ولم يكتّى أبوجهل بهذه الكنية إلاّ لجهله، و به صار فرعون مفسداً وطاغياً و به قتل قابيل هابيل.

والحاصل؛ منشأ جميع المفاسد في العالم هو الجهل، كما انّ منشأ جميع المحاسن والمصالح، هوالعلم؛ غاية مافي الباب: العلوم متفاوتة والعلماء مختلفون، وليس كل علم ينجو حامله ولا كلّ عالم يحظ من علمه؛ وربّ علم يهلك عالمه، كالسّحرة، وربّ عالم يضيع علمه، كمن علم ولم يعمل بعلمه ولذا قال أبوعبدالله عليه السلام: «طلبة العلم ثلاثة، فاعرفوهم بأعيانهم وصفاتهم، صنف يطلبه للجهل والمراء وصنف يطلبه للإستطالة والختل وصنف يطلبه للفقه والعقل فصاحب الجهل والمراء موذ مُمارٍ، متعرض للمقال في أندية[2] الرّجال، بتذاكر العلم، وصفة الحلم قدتسربل بالخشوع[3] وتخلّى من الورع، فدقّ الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه وصاحب الإستطالة والختل ذُوخَبّ وملق، يستطيل على مثله من أشباهه؛ و يتواضع للأغنياء من دونه، فهو احلوائهم هاضم ولدينه حاطم، فاعمى الله على هذا خبره وقطع من آثارالعلماء أثره وصاحب الفقه والعقل ذوكآبة وحزن وسهر. قدتحنّك في برنسه وقام اللّيل في حندسه، يعمل و يخشى وجلاً، داعياً مشفقاً، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق اخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيٰمة أمانه»[4].

١. الظاهر سقوط علم موسى من القلم، فانّ الانسان محلّ النسيان «محسن بن محمد».

٢. أندية: النّادي بمعنى المجلس، «مجمع البحرين».

٣. سربله فتسربل أي ألبسته السّربال وقوله تسربل بالخشوع من هذاالباب وهو استعارة، «مجمع البحرين». تسربل بالسربال: تلبس به: تقول العامة «تسربل الرجل» إذا ارتبك في أمره حتى لايدري كيف يتصرّف فيه. «المنجد».

٤. أصول الكافي ج ١ ص ٤٩، طبعة دار الكتب الاسلامية.

و روى الصّدوق ره في كتاب الخصال، على ماذكره الشّهيد ره باسناده الى أبي عبداللّه قال: انّ من العلماء من يحبّ أن يجتمع علمه ولايحبّ أن يؤخذ عنه فذاك في الدّرك الأوّل من النار. ومن العلماء من اذا وعظ أنف واذا وعظ عنف فذاك في الدرك الثاني من النّار و من العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثّروة والشّرف ولايرى له في المساكين وضعاً فذاك في الدّرك الثّالث من النّار ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسّلاطين فان ردّ عليه وقصر في شيء من أمره غضب فذاك في الدّرك الرّابع من النّار ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنّصارى ليعززبه علمه ويكثربه حديثه فذاك في الدّرك الخامس من النّار ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول سلوني ولعلّه لايصيب حرفاً واحداً واللّه لايحبّ المتكلّفين فذاك في الدّرك السّادس من النّارِ ومن العلماء من يتّخذ العلم مروة وعقلاً فذاك في الدّرك السّابع من النّار».[1]

وسيأتي تمام الكلام وتحقيق المقام في إيقاظ آخر «ان شاء الله».

ايقاظ

اعلم انّ مايستفاد من كلمات المحقّقين المتألّهين وهو الحقّ المبين، انّ القلب ميّت وحياته بالعلم؛ والعلم ميّت أي منقاد من القلب وحياته أي وجدانه بالطّلب والطّلب ضعيف وقوّته بالمدارسة، فاذا قوي بالمدارسة فهو محتجب واظهاره بالمناظرة واذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم ونتاجه بالعمل، فاذا ازدوج بالعمل توالد وتناسل ملكاً أبديّاً، لاآخر له وانّ نملة واحدة نالت الرّئاسة بمسألة واحدة علمتها وذلك قولها «وهم لايشعرون». كأنّها اشارة الى تنزيه الأنبياء عليهم السلام، من المعصية وايذاء البرىء من غير جرم

١. خصال الصّدوق، ج ٢ ص ١٠٦.

فقالت: «لايحطمنّكم سليمان وجنوده»[١]. فانّما صدر عنه، لأنّه لايشعر بكم: فمن علم حقائق الأشياء من الموجودات، قديمها وحديثها، جواهرها وأعراضها، جسمانيّاتها وروحانيّاتها وملكها وملكوتها، دنياها وآخرتها، مشهوداتها ومغيّباتها، فكيف لايستحقّ الرئاسة العظمى والخلافة الكبرى من الله تعالى في الدّين وانّ الكلب المعلّم مع انّه نجس، فمايصيده طاهر مزكّى وليس هذا إلاّ ببركة العلم. فالنّفس الطّاهرة في الفطرة الأولى اذا تلوّثت بأوساخ المعصية، كيف لا تتطهّر ولا تتقدّس ببركة العلم بالله واليوم الآخر، حتّى تنخرط في سلك القدّيسين وحزب الملائكة المقرّبين وهذه اشارة الى فضيلة العلم. وسيجيء في آخر المختصر زيادة توضيح «ان شاء الله».

ايقاظ

واعلم انّ الانسان يكون في هذه النّشأة الدّنيويّة، مركّباً من بدن طبيعي، مظلم سفلي ومن روح ملكوتي عُلويّ، ولكلّ منهما خاصيّة غير خاصيّة الأخرى، فخاصيّة الرّوح العلم والمعرفة وخاصيّة البدن الحركة والاستحالة. وأيضاً فمن خاصيّة الروح البقاء والدّوام وخاصيّة البدن، الاندثاروالإنصرام[٢]،ومع ذلك، كلّ منهما يحتاج الى الآخر، في هذه النّشأة التّعلّقيّة، وعلّة تعلّق النّفس بهذا البدن الكثيف الظّلماني وهبوطها عن عالم النّور ومعدن السّرور، نقصها وقصورها، فيحتاج في استكمالها، و بلوغها من حدود النّقص الى درجة الكمال، الى سعي وعمل وحركات علميّة وعمليّة وأعمال طاعات بدنيّة وقلبيّة؛ وكلّ ذلك لايمكن إلاّ بالبدن، فهي محتاجة في تحصيل الكمال الى البدن والبدن أيضاً مادام بقاءه وحياته محتاج الى التّغذية والتّكامل، وتوليد المثل الى نفس مدبّرة له، فكلّ منهما يحتاج الى الآخر و ينتفع به

١. سورة النمل/١٨.

٢. الدّثور: الدروس. الإنصرام: الإنقطاع، «مجمع البحرين».

ومثالهما معاً مثال الزَّمِن المقعَد والأعمى، فالنَّفس كبصير لاقدرة له على المشي ونيل المقصود، والبدن كماشٍ لايبصر شيئاً ولايشخّص المطلوب عن المغضوب إلاَّ بالاستعانة، فاذا تطابقا وتصادقا وأعان كلّ واحد منهما صاحبه في نيل مقصوده، بأن يركب البصير المقعد، على الأعمى الرّاجل، فيسيرا معاً، أمكنهما سلوك طريق يؤدّي الى المطلوب من تنعّمها بالمشارب والمآكل وغيرها، من أسباب التعيّش.

وأمّا إذا أراد الأعمى، أن يمشي منفرداً من غير أن يقوده بصير، فيوشك أن يقع في بئر أو هاوية أو يفترسه سبع، فيهلك وفي الغالب تراه يمشي على غير هُدى فيزداد بُعداً كلّما يزداد سيراً وسرعة.

فهذا مثال ضرب للنَّفس والبدن في سلوك سبيل الله والمشي الى طريق طاعة الله وارادة الوصول الى دار الرّحمة والرّضوان وطيّ الطّريق الى بساتين الجنان.

فظهر بماذكرنا، حال العالم بلاعمل والعامل بلاعلم، فانَّه لايزيد عليهما من فعلهما إلاَّ البعد عن المقصود، كما في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله: من عمل على غير علم كان مايفسد أكثر ممَّا يصلح»[1].

وفيه أيضاً، عن عليّ بن ابراهيم عن أبيه عن القسم بن محمد عن المنقري عن عليّ بن هاشم بن البريد عن أبيه، قال: «جاء رجل الى علي بن الحسين عليهما السّلام فسأله عن مسائل، فأجاب ثمَّ عاد ليسأل عن مثلها، فقال: عليّ بن الحسين عليهما السّلام: مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا علم مالا تعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فانَّ العلم اذا لم يعمل به، لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بعداً»[2].

فظهر انَّ العلم بلاعمل والعمل بلا علم، لايزيدان صاحبهما إلاَّ خساراً.

وليعلم أيضاً انَّ العلوم على قسمين، فمنها مايتعلّق بالعمل و يقال له علم المعاملة وثمرتها وغايتها نفس العمل. ومنها مالايتعلّق بعمل ولا المقصود منه شيء من الأعمال والمعاملات، وهو العلم المحض والمعرفة الخالصة ولاغاية له، إلاَّ الجلايا القدسيّة،

١. أصول الكافي ج ١ ص ٤٤، طبعة دار الكتب الاسلامية.
٢. أصول الكافي ج ١ ص ٤٤، طبعة دار الكتب الاسلامية.

كالعلم بصفات الله وآثار ذاته تعالى، وأفعاله؛ فهذا العلم كلّما يزداد، يزداد صاحبه بصيرة وفي قلبه نوراً و بالحقّ استيناساً والى عالم الآخرة ودار الملكوت اشتياقاً، وعن دار الدّنيا استيحاشاً.

وامّا العلم المتعلّق بالأعمال والمعاملات، فليس في ازدياده واشتداده فائدة إلاّ بقدر مايحتاج اليه، لأجل العمل، وفائدته إنّما هي نفس العمل فاذا لم يعمل به، كان وجوده في النّفس لكونه علماً جزئياً، متعلّقاً بأمور جزئيّة، جسمانيّة متغيّرة، حجاباً عن الحق، وزيادته والاستغراق فيه، نسياناً للآخرة وسداً من الرجوع الى جانب القدس واشتغالاً بما سواه طول العمر.

ثمّ يتشعب منه آثار رديّة تنبعث منه عادات ممرضة للنفس ومميتة للقلب، فهذا هو المراد من قوله: «فانّ العلم اذا لم يعمل به، لم يزد صاحبه إلاّ كفراً».

والمراد به: انّه اذا وقع الإهتمام به لاعلى قصد العمل والاستغراق فيه، فأكثر مايسمّون في عرف النّاس علماء ليسوا بالحقيقة علماء، بل حاصل علومهم مجرّد حفظ الأقوال المشهورة وضبط الأحاديث والرّوايات والإقتدار على مجادلة الخصومات، بايراد المقدّمات الجدليّة والأبحاث الكلامية؛ فكلّ ذلك ليس بعلم حقيقي؛ بل العلم في الحقيقة، هو مايقذفه الله في قلب المؤمن وقدعبّر الله سُبحانه وتعالى عنه في كتابه الكريم بأسماء مختلفة، تارة بالحكمة وأخرى بالهدى وثالثة بالفضل ورابعة بالنّور.

ايقاظ

اذا عرفت هذا فاعلم: انّ من المهمّات العظيمة، معرفة العلامات الفارقة، بين علماء الدّنيا وعلماء الآخرة، فالثّاني أي عالم الآخرة أعزّ من الكبريت الأحمر، فانّي أرى اقبال بعض علماء هذا الزّمان بالكليّة، على جمع الدّراهم والدّنانير، واستقرائهم على أنّ زخارف الدّنيا الدّنية، مفاتيح العروج الى الدّرجات العلميّة، و ينابيع لطائف المعاني العقليّة واقتصارهم في الإكتساب على صورة يتميّزون بها عن الجهّال و يصحّ بها

عليهم اطلاق أرباب الكمال، ذاهلين عمّا أودعه عالم الأسرار في حقائق الصّغار والكبار، من استعداد نيل مايوجب الإنخراط في ملك الملكوت وتهيّؤ النّفس للإستيناس بسكّان عالم الجبروت، ناظرين الى أولى الحقيقة بنظر الحقارة، متصرّفين فيهم تصرّف أصحاب الشّوكة والإمارة، غيرمنتبهين لماقدتقرّرفي بداية العقول وتبيّن لذوي أصحاب المعقول والمنقول أن تميّز صاحب العلم والفضل عن ذوي الجهل والرذيلة بالتّشبّث بالصّفات الرّبانيّة والتخلّق بالأخلاق الحقّانية وانّ تفضيل الجهّال على ذوي الكمال ادخال الرقبة في ربقة الحُمق والضّلال وايقاع النفس في غضب الله ذي العزّ والجلال.

وخلاصة المقال انّ العالم الرّباني والفاضل الصّمداني المعرض عن العالَم الفاني والمقبِل الى العالَم الباقي كالعنقاء في الطّيور، لارسم له سوى الإسم وذلك لأنّ له علامات وصفات فلووجدت عالماً متّصفاً بها، كلّها أو بعضها فافد نفسك لنفسه وروحك لروحه، لأنّه الّذي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقّه: «**عُلماء أمّتي أفضل من أنبياء بني اسرائيل**»[1].

بناء على التّعميم في الخبر فمن علامات العالم الرّباني الأخروي، أن لايطلب الدّنيا بعلمه بأن يطلب العلم للرئاسة على الرّعيّة، بمعنى ان يتوجّه اليه وجوه النّاس فانّه لايشمّ رائحة الجنّة أصلاً، كما ورد في الخبر أو يكون مقرّباً عند السّلاطين والحكّام، بحيث يسمعون عنه الكلام أو يستعدّون عند دخوله عليهم للقيام. والحاصل أن يجعل تعلّمه علم الدّين، غاية وطريقاً للدّنيا، بأن يطلب الدّنيا بعمل الدّين فليس له في الآخرة من نصيب إلاّ النّار، كما تشهد بذلك الأخبار كما في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «من أراد الحديث لمنفعة الدّنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة، أعطاه الله خير الدّنيا والآخرة»[2]، وكما في قوله «تعالى»: «تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لايُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلافَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[3].

١. البحار: ج ٢ ص ٢٢.
٢. أصول الكافي ج ١ ص ٤٦، طبعة دار الكتب الاسلامية.
٣. سورة القصص/٨٣.

بل هذا العالم الّذي استخدم عقله للشّهوات وكانت غاية سعيه ومنتهى قصده، طلب الحاجات الفانيات، أسوء حالاً يوم العرصات عن سائر المخلوقات، لأنّهم طلبوا الدّنيا وقصدوا المحسوسات بالجارحات وهذا العالم قدطلب الدّنيا الخسيسة بلبّ ذاته ولطيف جوهره وعقله فهو ممّن جعل مادّة عقله مصورة بصورة الشّهوات الفانية والآمال الباطلة وجمع بين المتضادّين ووقع بين المتجاذبين المتفاسدين فيكون أشدّ حسرة على مافاته، من الجواهر اللّطيفة، بدلاً عن القشور التافهة الدنيّة، بل انّه يعذّب في الآخرة عذاباً أليماً، كما هو صريح الأخبار، بخلاف العالِم، الطّالب بعلمه الآخرة والمعرفة، فانّه لماقصد الآخرة وسعى لها سعيها، حصلت له ملكة فاضلة، وتصوّرت ذاته بصورة الآخرة، فيكون عزيزاً في دنياه وسعيداً مقرّباً في عقباه. وسيجيء زيادة على ذلك ذمّ علماء الدّنيا عن قريب «ان شاء الله».

ومنها أن لايكون متسرّعاً الى الفتوى، بل يكون محترزاً ماوجد الى الخلاص سبيلاً؛ فان سئل عمّا شك فيه قال: لاأدري، وإن سئل عمّا يظنّه، باجتهاد وتخمين، احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية، لأنّ هذا هو الحزم والورع، هكذا نقل عن الغزالي في «إحياء العلوم».

أقول: قال الفيض ره في منتخب كشف المحجّة، لعليّ بن طاووس ره: وروى عن الصّادق عليه السّلام انّه قال: «لاتحلّ الفتيا لمن لايستفتي من الله عزّوجلّ بصفاء سرّه، واخلاص عمله، وعلانيّته وبرهان من ربّه في كلّ حال، لأنّ من أفتى، فقد حكم والحكم لايصحّ إلاّ بإذن من الله وبرهانه»[1].

ومن حكم بالخير بلامعاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله ومأثوم بحكمه، قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «أجرأكم على الفتيا أجرأكم على الله عزّوجلّ». أولايعلم المفتي انّه هو الّذي يدخل بين الله «تعالى» وبين عباده وهو الحائر بين الجنّة والنار؛ قال سفيان بن عيينية: كيف ينتفع بعلمي غيري وأنا قدحرمت نفسي نفعها ولاتحلّ الفتيا في الحلال والحرام بين الخلق، إلاّ لمن كان أتبع الخلق من أهل زمانه وناحيته وأولاده

١. البحار: ج٢ ص١٢٠ عن (مصباح الشريعة).

بالنَّبيّ «ص» قال النَّبي «ص»: وذلك لربما ولعلَّ، ولعلَّ وعسى. ولأنَّ الفتيا عظيمة.

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السَّلام لقاضٍ: «هل تعرف النَّاسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: فهل أشرفت على مراد الله عزَّوجلَّ في أمثال القرآن؟ قال لا، قال: إذاً هلكت وأهلكت».

والمفتي يحتاج الى معرفة معاني القرآن وحقائق السُّنن و بواطن الاعارات والأدات والإجماع والإختلاف والإطّلاع على أصول ما أجمعوا عليه واختلفوا فيه، ثمَّ الى الاختيار، ثمَّ الى العمل الصَّالح ثمَّ الى الحكمة ثمَّ الى التّقوىٰ ثمَّ «حينئذ» ان قدر. الى هنا كلام الصَّادق عليه السلام انتهى.

أقول: كلَّما صدر عن الفاضل الألمعي حقّ، في مقدّمات الإجتهاد، إلاَّ انّ بعضها لادخل له للفتوى، كما لايخفى على المتأمّل في مباحث الإجتهاد والتّقليد في علم الأصول. نعم في الأصول العقائديّة لابدَّ من العلم والقطع بخلاف المسائل الفقهيّة فانَّ الفتوى جائز بعدما حصل الظنّ من الأدلّة المقرّرة، كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام، كما في الكافي قال عليه السلام: «ماعلمتم فقولوا ومالم تعلموا فقولوا الله أعلم»[1]. يعني اذا سئلتم عن شيء من المسائل الأصوليّة الاعتقاديّة، فماعلمتموه علماً يقيناً، فقولوا وأجيبوا عن المسألة واذا سئلتم عن شيء من المسائل العمليّة الفقهيّة فماعلمتموه علماً قطعيّاً أو ظنّيّاً، راجحاً مستفاداً من الأدلة الشرعية، المقرّرة، المستقيمة، المتعارفة بين العلماء من الكتاب والسّنة والإجماع والعقل، لا تقليداً وتبعاً، واعتماداً على فهم الأساتيذ من دون استفراغ وسع في الاجتهاد، فقولوا وأجيبوا عن المسألة.

والظّاهر ان قوله عليه السّلام: فقولوا في الأوّل، ليس أمر إيجاب؛ بل أمر إباحة وجواز أو استحباب، إذا كان في البلد من به الكفاية وإلاَّ فالأمر للايجاب سيّما اذا كان الحكم أو الفتوى ممَّا يحتاج اليه السّائل. وهذا الّذي ذكرناه، إنَّما هو شأن العلماء وامَّا الجهلة، فخارجة عن الجواب مطلقاً، بل «الظاهر» من قوله «ع»: «فقولوا الله أعلم في الأخرى»، أعلم العلماء من الأنبياء والأوصياء والملائكة والعلماء، من سائر الأمم

١. أصول الكافي ج ١ ص ٤٢، طبعة دار الكتب الاسلامية.

لأن مقتضى صيغة التّفضيل أن يكون للمفضّل عليه شركة في طبيعة مافيه الفضل وهو مبدأ الاشتقاق وليس للجاهل العامي، نصيب من العلم والمعرفة التّامة، فلايجوز له أن يقول: الله أعلم اذا سئل ولم يعلم؛ إلاّ ان استعمل اللّفظ مسلوباً عن معنى التفضيل، بل يكون بمعنى العالم كما قيل به، في قوله «تعالى»: «**الله أعلم حيث يجعل رسالته**»[1].

بل ماذكرنا في حقّ الجاهل، مصرّح به في الخبر كما في الكافي عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «**للعالم إذا سئل عن شيء وهو لايعلمه أن يقول الله أعلم وليس لغير العالم أن يقول ذلك**»[2].

وهذا الخبر نصّ فيما ذكرنا، بل في خبر آخر انّه «ع» نهى عن ذلك وعلّله بأنّه يوقع غالباً في قلب السّائل شكّاً، فيتّهمه بالعلم، وأمر أن يقول المسؤول عن شيء لايعلمه، بدل الله أعلم، لاأدري حتى لا تتطرّق إليه تهمة علم من جانب السّائل، كما عن محمّدبن مُسلم عن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً، قال: «**إذا سئل الرّجل منكم عمّالايعلم فليقل لاأدري ولايقل الله أعلم فيوقع في قلب صاحبه شكّاً، وإذا قال المسؤول: لاأدري، فلايتّهمه السّائل**»[3]. فانّ خطر الاجتهاد خطر عظيم حتّى قيل: انّ ابن مسعود مع انّه من علماء العامة قال: انّ الّذي يفتي النّاس لمجنون، وكان يقول تريدون أن تجعلونا جسراً تعبرون علينا إلى جهنّم؛ وقال جُنّة العالِم لاأدري.

وروي عن شعبي وهو من علماء العامّة، انّه قال: لاأدري نصف العلم ومن سكت حيث لايدري لله فليس أقلّ أجراً ممّن نطق؛ لأن الإعتراف بالنّقص كمال للنّفس. وهكذا كانت عادة الصّحابة. قال الغزالي: وفي الخبر «**العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنّة قائمة ولاأدري**»[4]. وروي انّ ابراهيم النّبيّ «ع» إذا سئل عن مسألة بكىٰ و يقول: لم تجدوا غيري حتّى أحتجتم إليّ. وكان من الفقهاء من يقول: لاأدري أكثر من أن يقول أدري،

١. سورة الأنعام/١٢٤.
٢. أصول الكافي ج ١ ص ٤٢.
٣. أصول الكافي ج ١ ص ٤٣.
٤. كنز، خ ٢٨٦٦٠ (وفيه: وسنة ماضية).

منهم سفيان الثوريّ ومالك بن أنس والفضيل بن عياض و بشربن الحرث.

وروي عن عبدالرّحمن بن أبي ليلى انّه قال: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، مامنهم من أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلاّ وَدّان أخاه كفاه ذلك، وفي لفظ كانت المسألة تعرض على أحدهم، فيردّها الى الآخر و يردّه الآخر الى آخر، وهكذا حتّى يعود الى الأوّل، وهكذا كانت عادة أصحاب الصّفة فيما أهدي الى واحد منهم، فأهداه الى الآخر فدار بينهم حتّى رجع الى الأوّل .

فلينظر العاقل المتفطّن في زماننا هذا كيف انعكس الأمر في بعض علماء زماننا، فصار المهروب عنه مطلوباً والمطلوب مهروباً، فانّا نرى بالعيان في مجالسنا الآن، اذا سئل سائل عن مسألة من واحد معيّن مخاطب منهم، يجيبوه من ألف مكان وكلّ يدّعي الإجتهاد و يُظهر فضله على أمثاله والمسؤول ساكت يتفكّر، إن كان ظاهراً من أهل الديانة والتّقوى وإلاّ فهو أيضاً أحد المتكلّمين ولايستفيد السّائل منهم شيئاً ولايحصل على نتيجة من مجادلتهم، إلاّ قيلاً وقالاً.

وصاحب هذه الصفات متردّد دائماً، بين المنقصة والكمال، معلّق بين الأرض والسّماء، مذبذب لاإلى هؤلاء ولاالى هؤلاء، فتارة يتشبّث بذيل العلوم العربيّة و يعتقد انّها هي المطالب العليّة، فينكب طوال الأيام والأوقات على حفظ متفرّقات اللّغات ويحسب فعله إيّاه، كاشفاً عن أعظم السّعادات وفي هذا المعنى قال القائل:

يا طالباً للغات العرب كاسبها إيّاك لاتصرف الأوقات باللهو

أو يستفرغ الجهد في تحقيق الصّيغ الصّرفيّة، و يتعظم على أولى الحقيقة بمعرفة الأوضاع الكليّة والجزئية، باحثاً عن جدب والقلب في الإدغام، ناظراً في صنوف الإبدال والإعلال في مفردات الكلام، متعمّداً في موارد إلتقاء السّاكنين؛ متأمّلاً في اقتران المتجانسين مسكتاً نفسه بأمثال هذه الأشياء، كأنّه نال الى ماهو الغاية من خلق الأرض والسماء:

اصرف عنانك عن صرف فانّ لنا ضرّاً اذا مامضى الأيّام في العشر

أو يشرع الى النّظر في القواعد النحويّة، محجوباً عن لطائف الأسرار المجربة، يرفع

صوته بذكر المبتدأ والخبر، معتقداً انّه قدوصل الى الخالق الأكبر، جازماً بأنّ معرفة المفعول والحال عين السّعادة والكمال أو مرقاة منصوبة الى جنّات ذي الجلال:

يا قارىء النّحو محواً إن أردت عُلىٰ ... انّ الوصول الى الأسرار في المحو
ما النّحو إلاّ اصطلاحات مكرّرة ... عليك ياعاقلاً بالسُّكر والصحو

أو يسعى في نيل ضوابط البديع و يصرف الهمّة الى هذا الصنيع،ينفخ فاه عند ذكر أقسام الاستعارات ويحرك الرّاس وقت سماع الحقيقة والمجاز في الكنايات يحسب نفسه بذلك منخرطاً في سلك العلماء، متفوّقاً على مهرة الأذكياء، ذاهلاً انّ صنعته صنعة الأدباء وحرفته حرفة القاصرين من الضعفاء، كأنّه لم يسمع ماقيل:

علم البيان لسرّ الحقّ مفتاح ... ومبكم منكر القرآن إذ صاحوا
لكنّه مفرداً من غير معرفة ... لصاحبيه كما قدلاح فضّاح

أو يبذل الجهد في تحقيق الضّروب والأوزان، متيقّناً انّ ذلك غاية قدم العقل في العرفان، مغروراً بمذاكرة السّبب الخفيف والثقيل مسروراً بالبحث عن الوتدين والبحر الطّويل فليستمع لماقيل:

الشّعر زين الفتى في النّاس إذ جمعوا ... فألقوا السّمع للأبيات واستمعوا
لكنّ أهل النُّهى ينفون مانفعت ... إذ سافروا عن جوار الحقّ وانقطعوا

أو يبعث الهمّة على كسب الأحكام الشرعيّة إذ هي نهاية المقامات العليّة وغاية الكمالات السّنيّة، بل بناء على ظاهر الآيات والأخبار غاية خلق الإنسان، هو العمل بالأحكام الشّرعيّة: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ»[1]. وإن فسّرت الى المعرفة فانّ لازم المعرفة أيضاً هو العبادة والعبادات لا تصحح إلاّ بالعمل طبق الأحكام الموظفة في الشّريعة، فترى بعضهم يصرف شطراً من العمر على درك المسائل الفرعيّة، ذاهلاً من أسرار القواعد الأصولية، يخبط في مواضع خبط عشواء، واضطرب اضطراب الرّاكب على متن العمياء، فتارة يفتي خلاف القوم والإجماع والمشهور، مخافة أن لايظنّه السّائل عالماً صغيراً لم يدرج مدارج الإجتهاد.

١. سورة الذّاريات/٥٦.

وأخرى إن سئل عن حجيّة مايستدل به على المقاصد، عجز عن تميّز الصّحيح عن الفاسد، فتراه كالغريق يتشبّث بكلّ حشيش، فيبدو على جبينه آثار الخجل، و يتظاهر عن بشرته امارات الوجل، تحرّزاً عن ظهور قصوره لدى ذوي العلم وعند أولي الألباب.

وربّما يتوجّه الى أصول الفقه يصرف كلّ الهمّة الى معرفة الظّنّ والظّاهر ولم يقدر على تميّزهما عن الآخر، ويحسب انّه يسمّى أصوليّاً ولم يدر انّه عند أهل الحقيقة يسمّى فضوليّاً.

وربّما يصعد الى ذروة المنطق فيتخيّل انّه لكلّ أهل العلم فائق، فيجرّ ذيل الكبر على الخلائق غروراً و يظهر بذلك في نفسه تبجّحاً وسروراً، فتارة تلفّظ في المجالس بحديث الحمليّة، يحمل على يمينه و يساره و بقضيّة الشّرطيّة يشرط قلوب السّامعين و بالمنفصلة ينفصل عنه ريح العجب، و بالمتّصلة بحبل الكبر، و بالعرفيّة العامّة والخاصّة، تنزجر عنه قلوب الخاص والعام، و بالمطلقة يطلق كبد النّاس، و بالآخرة ينتج كلماته المتصلة وأشكاله الأربعة، عكس مطلوبه.

فيعلم انّه أعرض عن مزاولة العلوم وأدبر على الفحص عن نتائج المفهوم، فكتب اسمه في جريدة الفلاسفة واستراح عن شدائد المجاهدة في معرفة الله ودينه وكسب الأعمال الصّالحة المنجية في آخرته.

وربّما نرى بعضهم يتحذّق في العلوم الرّياضيّة، فظنّ انّها هي العلوم اليقينيّة لايحرم حرمها شك ولاريب، فتارة يخوض في الهندسة، وأخرى يرجع منها الى الهيئة ومسائلها ومدّة يتأمّل في ضوابط الحسابات ومدّة يتفكّر في تحقيق أصول الأصوات والنّغمات، غافلاً عمّا أوجبه الله «تعالى» عليه من الواجبات ونهاه عن المحرّمات، فيكون غريقاً في بحر المهلكات وأسيراً في بئر التّعلّقات، مقيّداً بقيود المجازات محبوساً في مجلس الظّلمات، ظانّاً نفسه أعلم الكائنات وفائقاً على أهل الأرضين والسموات.

فياحسرة على العباد، بعد المفارقة عن الموات،تبقى نفوسهم خالية عن المعلومات، مكدّرة بكدورات التعلّقات، قداشتبه خطأ خواطرهم بصوابها، وذلك من أحد أربعة أمور: امّا ضعف اليقين أو قلّة العلم بصفات النّفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بحزم

قواعد التقوى أو محبّة الدّنيا وجاهها ومالها، فمن عصم من هذه الأربعة يفرق لمّة الملك ولمّة الشّيطان ومن ابتلى بها، فلاخير فيه أبداً، لأنَّ لمّة الشّيطان، هي عبارة عن ايعاده بالشرّ والتّكذيب بالحقّ: «الشّيطان يَعِدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»[1].

فنستعيذ بالله من لمّة الشّيطان وورد في الحديث النّبويّ المرويّ عن العامّة انّه «ص» قال: «لولا انَّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السّموات»[2].

والحاصل: انَّ الّذي ذكرنا كلّه، إنّما هو عادة بعض المحصّلين والمشتغلين في عصرنا هذا، عصمنا الله من الخطأ والخطل، الحاصل من المباحثة والجدل.

وحكي عن الشيخ الأجلّ، العالم العرّيف والفاضل الغطريف، علاّمة الزّمان، ركن الطّائفة، الشّيخ مرتضى الأنصاري «ره» رئيس المائة الثالث عشر وإن لم يقع في رأسها، بل مات في أثنائها تغمّده الله بغفرانه: انّه سأله رجل من الأعاجم عن مسألة، فأحاله على عالم من علماء بلاد العجم وكان هذا في نظر الشّيخ أعلم منه، فرجع السّائل الى ذلك البلد وقصّ على العالم ماأمره الشّيخ «قدّس سرّه»، فكتب اليه: انّك ياشيخ أعلم مني، لأنّي مااشتغلت بعدما رجعت من النّجف الأشرف ولكنّك مشغول وأنت أهل للإفتاء.

هذا كان دأب العلماء قديماً الى زمان الشّيخ الاستاذ، على ماسمعناه من علماء العامّة والخاصّة.

ومنها أن يكون مؤثراً للخلوة والانقطاع عن النّاس والجلوس مع الله في الخلوة، مع حضور القلب وصفاء الفكر، لأنَّ ذلك مفتاح الإلهام الرّباني والكشف الصّمداني.

قال: السيّد بن طاووس في بعض وصاياه لولده الرّشيد السّيد محمد: اعلم ياولدي انَّ مخالطة النّاس داء معضل وشاغل عن الله جلّ جلاله، مذهل وقدبلغ الأمر في مخالطتهم الى نحو ماجرى في الجاهليّة، من الاشتغال بالأصنام ومخالطتهم لك بغاية الإمكان، فقدجرّبته ورأيته يوجب مرضاً هائلاً في الأديان، فمن ذلك انّك تبتلى بالأمر

١. سورة البقرة/٢٦٨.

٢. سند احمدبن حنبل، ج٢/٣٦٣ المحجة البيضاء، ج٢/١٢٥احياء علوم الدين، ج١/٢٣٢.

بالمعروف والنّهي عن المنكر، فان قمت بذلك على الصّدق، صاروا أعداءك على اليقين، ثمّ عدّ جملة من مضارّ المخالطة.

أقول: من جملة مضرّاتها التّعطيل والإشتغال باللّغويات الى ان ضاق الوقت وفاتت الصّلوٰة ولم تتم الحكايات والمناظرات، فكم من متعلّم في زماننا هذا طال تعلّمه ولايقدر على مجاوزة مسموعاته بكلمة واحدة ولم يحصل له من الملكة، إلاّ حفظ المتون ودرس السّطوح والتّقليد على أساتيذه وليس له فهم من الواقع إلاّ الصّورة.

نعم هو أستاذ في علم المجادلة والغلبة على من يقابله، يحسبه الجاهلون عالماً متبحّراً كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماءً، و يظنّه العوام، الجاهل من كلّ جهة، غنياً عن التّعلّم. وكم من مقتصر على المهمّ في التّعلّم قربة الى الله ومراقب للعمل لله وحافظ نفسه عن محارم الله ومترصّد على أمر الله ومتخلّق في تحصيله بأخلاق الله، ومكمّل باطنه على مافي كتاب الله ومطهّر نفسه عمّا كره الله ومنزّه نفسه عمّا نهى الله ومشتغلٍ بمافرضه الله وقانع بما أعطاه الله ومؤمل لرحمة الله ومنقطع عن غير الله، الّذي لايفعل من المباحات إلاّ بقدر الضّرورة والحاجة، فتح الله عليه من لطائف الأوهام والمعارف، مايحار فيه العقول و يعجب عنه الفحول، وهذا معنى ماقاله الرّسول صلّى الله عليه وآله: «مَن عمل بمايعلم، ورثه الله علم مالم يعلم»[١].

وروي عن بعض الكتب: يابني اسرائيل لا تقولوا العلم في السّماء من ينزل به، ولافي تخوم الأرض من يصعدبه، ولامن وراء البحار من يعبر فيأتي به، العلم محصول في قلوبكم فتأدّبوا بين يديّ بأدب الرّوحانيّين وتخلّقوا بأخلاق الصّدّيقين، أظهروا العلم من قلوبكم حتّى نعطيكم.

والمراد من الأدب، حسن الأخلاق الّتي هي العلّة الواقعة في قول النّبيّ صلّى الله عليه وآله المخاطب بقوله «تعالى» شأنه: «إِنَّكَ لَعلىٰ خُلقٍ عَظيمٍ»[٢]، حيث قال «ص»: «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[٣]، وفي الحديث كان علي عليه السلام يؤدّب أصحابه

١. البحارج ٤٠ ص٢٨.
٢. سورة القلم/٤.
٣. كنز العمال/ خ٥٢١٧.

أي يعلّمهم العلم ومحاسن الأخلاق على ماقاله الطّريحي «ره».

والظّاهر انّ المراد بالرّوحانيين هم الملائكة لأنّهم أجسام لطيفة لايدركها البَصر، ومنه الحديث: «انّ الله خلق العقل وهو أوّل من خلق من الرّوحانيّين من يمين العرش»[1]؛ والألف والنّون من زيادات النّسب وإلاّ فالقاعدة في النّسبة الى الرّوح، روحاني، كما قيل في النسبة الى الرّب رَبّاني، وزيادة الألف والنّون للمبالغة.

والحاصل: انّ قوله «ص» «تأدّبوا بين يديّ بأدب الرّوحانيين»، أي بأدب الملائكة، فكما انّ الملائكة خالية عن الشّهوة وتبعيّة الهوى ولايفعلون إلاّ ماأمرهم الله، ولايعرفون شريكاً في عبادتهم لله، فأنتم ياأهل العلم كونوا أمثالهم في اشتغالكم للعلم واذا كنتم مثلهم أعطاكم العلم وأورثكم علم مالم تعلموا وحينئذ، يصدق عليكم العالم الرّباني وهو الّذي كان علمه موهبيّاً وأمر الله بالأخذ منه كما في الحديث، على مافي المجمع: «لاعلم إلاّ من عالم ربّاني». وقيل: الّذي يطلب بعلمه وجه الله وقيل: هو شديد التّمسّك بدين الله وطاعته. وقيل: هو الكامل في العلم والعمل، كما روي عن الكشّاف، وفي القاموس: الرّباني المتألّه، العارف بالله. وقيل غيرهما واطلاقه لكلّ واحد من تلك المعاني صحيح ومطلوب.

والمراد بالصِّدّيق على ماروي عن الشّيخ أبي‌علي، المداوم على التّصديق بما يوجب الحقّ، فالعالم المتخلّق بأخلاق الصّدّقين لايصدر منه من الأقوال والأفعال وجميع حركاته وسكناته، إلاّ مايوجب الحقّ، وهذا العالم أيضاً ربّاني وناج، لكون أفعاله مطابقاً لأقواله، كما في الكافي عن المفضّل بن عمر عن أبي‌عبدالله جعفر الصّادق عليه السلام قال: «قلت له بِمَ يعرف النّاجي قال «ع»: من كان فعله لقوله موافقاً إلى آخرالحديث».[2]

ومنها: أن لايتّبع السّلاطين في دنياهم، لأنّ هذا الإتباع إنّما هو لحُبّ المال والجاه والرّفعة والثّروة وهذا عين طلب الدّنيا اجمالاً، وسيجيء تفصيلاً وقدمرّ بيانه إجمالاً، ولأنّ السّلاطين والأمراء لابدّ لهم من استعمال الكفر في نظر أمور الدّولة ونظام الرّعيّة

١. الأصول من الكافي ج ١ ص ٢١.
٢. الوسائل ٤١٩/١١، البحارج ٦٩ ص ٢١٨.

وهم يسمّون أهل الدّنيا، بخلاف العلماء، فانَّ أفكارهم لابدَّ أن تستعمل في نظم الأمور الشّرعيّة، فانَّ الشّارع جعلهم أُمناء لشرعه واذا مال الى الدّنيا واتّبع أهله، لابدَّ من زوال أمانته، وانَّ الشّارع أمر النّاس بالحذر عنهم على دينهم، كما في الكافي عن أبي عبد الله عليه السّلام قال: «قال رسول الله «ص»: الفقهاء أمناء الرّسل، مالم يدخلوا في الدّنيا، قيل: يارسول الله ومادخولهم في الدّنيا قال «ص»: اتّباع السّلطان، فاذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[١].

وفي خبر آخر عنه «ص» أيضاً: «العلماء أُمناء الرّسل على عباد الله مالم يخالطوا السّلطان فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرّسول فاحذروهم»[٢]؛ وأيضاً عنه «ص»: «شرار العلماء الّذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الّذين يأتونَ العلماء»[٣]؛ وعنه «ص» أيضاً: «سيكون أُمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برء ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع، أبعده الله. فقيل: أفلا نقتلهم؟ فقال «ص»: لا، ماصَلّوا»[٤]؛ وقال حذيفة: «إيّاكم ومواقف الفتن، قيل: وماهي؟ قال: أبواب الأُمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدّقه بالكذب ويقول ماليس فيه»، وقال: بل في جهنّم وادٍ لايسكنه إلاّ قرّاء الزّور للمُلوك، وقال: بعض المتألّهين المدقّقين: «العلماء ثلاثة: امّا مُسعدٌ نفسه وغيره، وامّا مهلك نفسه وغيره، وامّا مهلك نفسه، ومسعد غيره:

أمّا الأول: فهم الدّاعون الى الله، المعرضون عن الدّنيا ظاهراً وباطناً.

وأمّا الثاني: فهم المصّرون لطلب الدّنيا والمقبلون عليها صريحاً وهم أتباع السّلاطين، لأنَّ الوصول الى الثّروة والمال والجاه والترفّع على الأمثال، لايحصل إلاّ باتّباعهم ومخالطتهم».

أقول: قد عدّ الشّارع عليه الصّلوٰة والسّلام: «أطوع النّاسِ للسّلطانِ، أنقص العقل من النّاس»؛ وقال «ص» على ماذكر في البحار: «أكمل النّاسِ عقلاً، أخوفهم لله وأطوعهم له، وأنقص النّاسِ عقلاً، أخوفهم للسّلطان وأطوعهم له»[٥]. انتهى. بل المجالسة والمخالطة مع

١. أصول الكافي ج١ ص٤٦، طبعة دار الكتب الاسلامية.
٢. كنز العمال، خ ٢٨٩٥٢ (مع اختلاف في اللفظ).
٣. مسند أحمد ابن حنبل ج٦ ص٢٩٥، المحجّة البيضاء: ج١ ص١٤٤، الجامع الصّغير: ج١ ص٣٢ باب السّين.
٤. المحجّة البيضاء: ج١ ص١٤٤. «في المصدر: ماضَلُّوا، وهو الصحيح».
٥. بحار الأنوار ج٧٧/١٥٤.

السّلاطين توجب الكبر، كما سيذكر في محلّه «ان شاء الله تعالى».

واما الثالث: فهو الّذي يدعو النّاس الى الآخرة ونصب نفسه في مقام الوعظ والتّذكير والأمامة، وقدرفض الدّنيا في الظّاهر وقصده في الباطن قبول الخلق واقامة الجاه، وربّما كمن في باطنه باعث الهوى فيما هو بصدده من دعوة الخلق وارشادهم وهو حيث لايدري ذلك، وزعم انّ باعثه الدّين وداعيه ثواب الآخرة في الإرشاد والتّعليم، ومثله سخره الشّيطان في تمام عمره وغاية أمره أن يحرق نفسه و يضيء غيره. انتهى.

أقول: ولـمّـا ورد انّ «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[1]، لأنّ الرّجل اذا كان له محبوب وهو قاصد وصاله وليس بميسّر له أو لايتمكّن من وصاله فهذا المحبّ لابدّ له من التمسّك بكلّ سبب احتمل وصوله به اليه، ولوبتحمّل المشاقّ أو ارتكاب القبائح أيضاً؛ لأنّ الحُبّ يعمي و يصمّ فطالب الدّنيا لابدّ له من ارتكاب الخطايا، حتّى يحصلها «فحينئذ»، يجب على النّاس اتّهامه في الدّين. وورد انه من قطّاع طريق عباد الله والمريدين، كما هو المرويّ في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام انّـه «ع» قال: «اذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم فان كلّ محبّ لشيء يحوط ماأحبّ»؛ وقال «ع»: «أوحى الله الى داود «ع» لاتجعل بيني و بينك عالماً مفتوناً بالدّنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فانّ أولئك قطّاع طر ق عبادي المريدين، انّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[2]. انتهى.

فالعالم المحبّ للدّنيا ليس بعالم في الحقيقة ولامتديّن، بل جاهل ضالّ ومضلّ ومكافاته في الدّنيا، نزع الله تبارك وتعالى عن قلبه حلاوة مناجاته ولذيذ مكالماته العقلية، التي هي عبارة عن الاعلامات العلميّة والإلهامات العمليّة التي كانت قابلة لها في أوائل فطرته وعبادي حاله قبل أن تفسد قريحته. وقدوردت في العلماء المذكورين تشديدات عظيمة وشكايات كثيرة، حتّى انّ عيسى بن مريم «ع»، تعجّب من كون مثل هذا العالم من أهل العلم، حيث روي انّـه «ع» قال: «كيف يكون من أهل العلم من مسيرته الى آخرته وهو مقبل على دنياه»[3]؛ وكيف يكون من أهل العلم، من يطلب

١. أصول الكافي: ج٢ ص١٣١، طبعة دار الكتب الاسلامية.
٢. أصول الكافي: ج١ ص٤٦.
٣. ميزان الحكمة، ج٦ ص٥١٩ عن البحار ج٢، ص٣٩.

الكلام ليخبر به لاليعمل[١] به ومن طريق العامّة عن أبي الدّرداء انّه «ص» قال: «أوحى الله الى بعض الأنبياء «ع» قال قل للّذين يتفقّهون لغير الدّين و يتعلّمون لغير العلم و يطلبون الدّنيا بعمل الآخرة و يلبسون للنّاس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذّئاب، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصّبر إيّاي يخادعون وبي يستهزؤون لأمتحن لهم فتنة تذر الحكيم حيراناً»[٢]؛ وروى الضّحّاك عن ابن عبّاس عن النّبيّ «ص» انّه قال: «علماء هذه الأمّة رجلان رجل آتاه الله علماً، فبذله للنّاس ولم يأخذ طمعاً ولم يشتر به ثمناً قليلاً وذلك يصلّي عليه طير السّماء وحيتان الماء ودوابّ الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله سيّداً شريفاً حتّى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله علماً في الدّنيا فضنّ به عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً، فذلك يأتي يوم القيمة ملجماً بلجام من نار وينادي مناد على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، آتاه الله علما في الدّنيا فضنّ به عن عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً، يعذّب حتّى يفرغ الله من حساب الخلائق»[٣]؛ قال صالح بن حيّان البصري: أدركت الشّيوخ وهم يتعوّذون بالله من الفاجر العالم بالسّنة[٤] وأشدّ من هذا ماروي انّ رجلاً كان يخدم موسى فجعل يقول: «حدّثني موسى «ع» حدّثني موسى نجي الله حدّثني موسى كليم الله»، حتّى أثرى وكثر ماله ففقده موسى «ع» فجعل يسأل عنه فلايحس له أثراً، حتّى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى «ع» أتعرف فلاناً؟ قال: نعم هو هذا الخنزير فقال موسى «ع»: «يا ربّ أسألك أن تردّه على حاله، حتّى أسأله فم أصاب هذا، فأوحى الله إليه، لودعوتني بالّذي دعاني به آدم ومن دونه، ماأجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت به هذا، لأنّه كان يطلب الدّنيا بالدّين»[٥].

أقول: لاأقول لا تطلبوا الدّنيا فانّ طلب الدّنيا بقدر المعيشة وسدّ باب الإحتياج الى النّاس واجب لأجل فراغ البال الى الإشتغال بالطّاعات حتّى ورد أنّ سلمان

١. نفس المصدر، عن البحار ج٧٣، ص١٦.
٢. بحار الأنوار ج١ ص٢٢٤.
٣. كنز العمّال ج١٠/٢٠٦ح ٢٩٠٩٠.
٤. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٥. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

الفارسي عليه الرّحمة، مع كونه في درجة من الإيمان، لايناله[١] أحد بعده، مالم يطمئنّ من قوة سنة، لم يفرغ باله الى الطّاعات.

فظهر ان تحصيل الدّنيا وطلبه على قدر الكفاية من غير تقتير ولا توسعة ينجرّ الى الإسراف لازم، بل لولم يتحصّل هذا المقدار، لايجمع البال الى إتيان الواجبات ولامحالة يوجب عدم الخشوع وفقد الخضوع فيها، اللّذان هما روح العبوديّة واقعاً، لامجرّد اتيانها بحيث يكون مسقطاً للقضاء فقط، بل أقول: انّ جعل الدّين عرضة للدّنيا وتحصيل العلم بتلك الزّحمات لطلب الدّنيا، بأن يكون غرضه الرئاسة والسيادة، أمر قبيح عند العقل ومذموم في الشرّع وندامة في الآخرة، لكونه سبباً لدخول النار، لأنّ العلماء أمناء الله، والأمين لابدّ أن لايخون في أمانته، والعلم أمانة في يده، فلابدّ من حفظه، وحفظه موقوف على اعماله فيما أمر الله به، وماأمر به مضاد لطلب الدّنيا، بل العلماء لوالتفتوا الى العمل بعلمهم يعلمون: انّ السيادة للنّاس والرّئاسة فيهم يحصل بنفسه ولايحتاج الى طلبه: أولاينظرون الى الماضين منهم كيف يبقى إسمهم في ديوان الرّؤساء، بل مواظبة التّقوى والورع والإجتناب عمّانهى الله عنه والله يؤثّر في قلوب النّاس تأثيراً عظيماً، بحيث لايجتريء أحد على هتك حرمته وهدم احترامه وهذا هو الرّئاسة الكبرى والسّيادة العظمى.

أيّها العلماء: انّ أخوف مايقصم الظهر، ماروي في شرح الكافي عن معاذبن جبل؛ انّ رسول الله «ص» قال: «من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ اليه من الاستماع»[٢].

وفي الكلام تنميق وزيادة ولايؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم، ومن العلماء من يخزن علمه فلايحبّ أن يوجد في غيره فذلك في الدرك الأسفل من النّار. ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة سلطان فان ردّ عليه شيء من علمه أو يهون بشيء من علمه، غضب؛ فذلك في الدرك الثّاني من النّار، ومن العلماء من يحصل علمه وغرائب حديثه لأهل الشّرف واليسار ولايرى أهل الحاجة أهلاً له، فذلك في

١. الظاهر: أن تكون العبارة، لاينالها.
٢. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

الدّرك الثالث من النّار. ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا و يفتي بالخطأ والله يبغض المتكلّفين، فذلك في الدّرك الرّابع من النّار. ومن العلماء من يتكلّم كلام اليهود والنّصارى ليعزز به علمه، فذلك في الدّرك الخامس من النّار. ومن العلماء من يتّخذ علمه ثروة ونيلاً وذكراً في النّاس، فذلك في الدرك السّادس من النار. ومن العلماء من يستفزّه الزّهو[1] والعجب، فان وعظ عنف وان وعظ أنف، فذلك في الدرك السّابع من النار.

وفي الخبر: «انّ العبد لينشر له من الثناء مابين المشرق والمغرب ومايزن عند الله جناح بعوضة»[2]؛ والحاصل: انّ الأخبار بتلك المضامين كادت تكون متواترة بل متواترة على ماصفّحناها، ومنها أن يكون أكثر بحثه في علم الاعمال أي التّفقّه في الدّين لأنّه موجب لاصلاح العباد وحفظهم عن الفساد؛ بل ورد عن الصّادق عليه السلام: «انّ الكمال كلّ الكمال التفقّه في الدّين»[3]، كما سيذكر ولأنّ الفقه هو الّذي اذا أراد الله بعبده خيراً يفقّهه في الدّين، كمافي الكافي[4]، لأنّه الّذي ينفع المرء في الآخرة، بعد استكمال العقائد الحقّة وهو الّذي يسمّى بالفروع العملية، المتعلّقة بالأفعال واعمال الجوارح، من الحرام والحلال والمندوب والمكروه والمباح، الّتي سميت بالأحكام الخمسة، المستفادة من الأدلّة المقرّرة.

وعبّر بعض المتألّهين عن علم الفقه عند تقسيمه العلوم، انّه جار مجرى اعداد الزّاد والرّاحلة في السّفر، حيث قال: واعلم انّ العلوم بالقياس الى سلوك الآخرة وطلب المقصد الأعلى والثمرة العظمى، على ثلاث درجات وأقسام: قسم يجري مجرى اعداد الزّاد والرّاحلة في السّفر وذلك كعلم الفقه وعلم الطبّ ومايتعلّق بمصالح البدن في الدّنيا، لأنّ البدن مركب النّفس في سفر الآخرة. وقسم يجري مجرى سالك البوادي وقاطع العقبات وهو علم تطهير الباطن عن كدورت الصّفات وخبائث الملكات وقطع

١. الزهو: الكبر والفخر ومنه حديث الشيعة: لولا أن يدخل النّاس زهواً، لسلمت عليكم الملائكة قبلاً، «مجمع البحرين».
٢. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٣. أصول الكافي ج ١ ص ٣٢.
٤. أصول الكافي ج ١ ص ٣٢.

العقبات الشّامخة، ودفع موذياتها عن القلب فهو سلوك طريق السّعادة ولابدَّ فيه من علم متكفّل لمعرفة جهات هذا الطريق ومنازله وهو علم تهذيب الأخلاق وعلم السّياسات والعلم بهذه الأمور، التي هي الأعمال القلبيّة، غير نفس العمل والمباشرة ولكن لايتم العمل بدون العلم.

والقسم الثالث: يجري مجرى حضور أركان المنزل وأعيان الموطن ومشاهدتها وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وأفعاله الأوّليّة، وهذا العلم يقال له علم المكاشفة؛ والقسمان الأوّلان يقال لهما علم المعاملة.

واعلم: انَّ النجاة غير الفوز بالسعادة، فالنجاة والسلامة حاصلة لكلّ سالك للطّريق بنيّة صادقة. وامّا الفوز بالسعادة فلايناله إلاّ العارفون، أولئك المقرّبون المنعّمون فلهم روح وريحان وجنّة نعيم.[1] وامّا السالكون النّاجون فهم أصحاب اليمين «فسلام لك من أصحاب اليمين»[2]؛ وامّا الواقفون على السُّلوك نحو المقصد، فهم أصحاب الشّمال «فنزل من حميم وتصلية جحيم» ؛ انتهى.

ايقاظ

وليعلم انَّ كون الرّجل فقيهاً، أمر مختف غامض، كما يستفاد من كلمات الفحول من أصحاب الردّ والقبول، من جهابذة رواة أخبار آل الرّسول، ولايمكن لأكثر النّاس الإطّلاع على تحقّقه بكنهه، لأنَّ المراد من الفقه ليس معرفة الفتاوى الغريبة في الأحكام الفرعيّة والوقوف على الأقوال المختلفة فيها وحفظ المقالات المتعلّقة بها، بل له علامات ولوازم يظهر من الأخبار الواردة عن أهل بيت الذّكر عليهم السّلام، حتّى انَّ الغزالي مع كونه من علماء العامّة قال في كتابه المسمّى باحياء العلوم: انّه سأل رجل

١. سورة الواقعة/٨٩.
٢. سورة الواقعة/٩١.

من الحسن البصري عن شيء: فأجابه، فقال: انَّ الفقهاء يخالفونك فقال الحسن: ثكلتك أُمّك وهل رأيت فقيهاً بعينك، إنَّما الفقيه الزّاهد في الدّنيا، الرّاغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربّه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم [١]؛ انتهى.

بل ربّما يشتبه الأمر على جاهل القلب الّذي هو مغرور ممكور مدع للعلم لأجل حفظه للأقوال وحمله للأسفار أو وقوعه في صحبة المشايخ والرّجال، والحال انَّه جاهل لاعلم له وقلبه أعمى لابصيرة له معجب بماعنده من ظواهر الأقوال وصور الأحاديث، والمجادلات الكلاميّة والمغالطات الفلسفيّة والخيالات والتمويهات التصوفيّة، والخطابات الشعريّة الّتي يجلب بها نفوس العوام والتعارفات الرّسميّة الّتي يجذب بها طبائع الأنام كالأنعام، وسائر ماغترّ به بعض علماء الدّنيا الرّاغبون في المال والجاه فهو: من الّذين غرّتهم الحيٰوة الدّنيا عن الآخرة، و«كالّذين نسُوا الله فأنساهم أنفسهم» [٢]؛ والذين «يخادعون الله والّذين آمنوا ومايخدعون إلاّ أنفسهم» [٣]، «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً». و«الّذين اتّخذوا دينهم هزواً ولعباً» و«الّذين ضلّ سعيهم في الحيٰوة الدّنيا وهم يحسبون انَّهم يحسنون صنعاً» [٤]، والّذين إذا «جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بماعندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤون» [٥]؛ كما قسّم علي أميرالمؤمنين عليه السلام: النّاس الى ثلاثة، كما في الكافي عن هشام بن سالم عن أبي حمزة عن أبي اسحق السبيعي عمّن يثق به قال: سمعت أميرالمؤمنين عليه السلام، يقول: «انَّ النّاس آلوا [٦] بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله: الى ثلاثة: آلوا الى عالم على هدىً من الله قدأغناه الله بماعلم عن علم غيره وجاهل مدّع للعلم لاعلم له، معجب بماعنده، وقدفتنته الدنيا وفتن غيره، ومتعلّم من عالم على سبيل هدى من الله ونجاة، ثم هلك من ادّعى

١. احياء علوم الدين، ج ١/٢٩.
٢. سورة الحشر/١٩.
٣. سورة البقرة/١٠.
٤. سورة الكهف/١٠٤.
٥. سورة غافر/٨٣.
٦. آلوا: أي رجعوا.

وخاب من افترىٰ»[١].

وربّما ترى بعض النّاس القانعين من دنياهم على اشباع البطن وطيب المعيشة اسمهم طالب العلم وفي الواقع أنقص من الجهّال، لأنَّ الجهل في الواقع جنّة الجاهل بخلاف العالم في الصّورة من لبس عمامة كفلك واسدال جزء منها تحت الحنك وفي منكبه فرو من فتك[٢]، وفي جبهته أثر من معك. فانَّ أكثر هذه الأشياء، أسباب تزوير وآلة عجب وغرور، وسورٌ باطنه الظّلمة وظاهره النّور ومالهم يوم البعث والنّشور إلاَّ الويل والثّبور، فانّهم اقتصروا على علم الفتاوى والأحكام وحفظ مسائل الحلال والحرام من الصّلوة والصّيام وضبطوا غرائب المجادلة والكلام، لأجل العزّة بين العوام كالهوام وقد جعل أمير المؤمنين عليه السّلام لهذا الجاهل المموّه بصورة العلم والمنافق المتكلّف بزيّ العلماء، علامات ثلاثة، لئلاَّ يشتبه العالم النّحرير والجاهل المتكلّف، المتكبّر، كما في الكافي عن أبي عبدالله «ع» قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ياطالب العلم: انَّ للعالم ثلاث علامات: العلم والحلم والصّمت وللمتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه بالمعصية، ويظلم من دونه بالغلبة ويظاهر الظّلمة». [٣] الحديث.

امّا نزاع من فوقه، لأنَّ غرضه الأصلي من المباحثة والمناظرة اظهار الفضيلة والعلم عند العوام والجهّال، فاذا ناظر من دونه لم يظهر له عندهم فضيلة واذا ناظر من فوقه فلايمكنه المعارضة معه بوجه الحقّ، فلابدَّ أن ينازعه بوجه العدو أو الموازعة أو الإفتراء ونحوها، ليدلّس على النّاس انَّه ألزم الفاضل الفلاني في البحث، فيحصل مطلوبه وهو الجاه والقبول عند الخلق وإن كان عاصياً مردوداً عند الله.

وامّا وجه إلزامه من دونه فهو أيضاً اظهار الفضل بسبب الغلبة بالمال والجاه، لابسبب قوة العلم والمراد بمن دونه هو دونه في القدر والاعتبار، لا العلم والفضيلة.

وامّا وجه المظاهرة للظّلمة فهو بالتّقرّب إليهم يصل الى أغراضه الدّنيويّة، من

١. أصول الكافي: ج١ ص٣٣، طبعة دار الكتب الاسلامية.

٢. فتك: دويبة برية غير مأكول اللحم يؤخذ منها الفرو، يقال: انَّ فروها أطيب من جميع أنواع الفراء «مجمع البحرين».

٣. أصول الكافي: ج١ ص٣٧.

الجاه والمال والشّهرة الّتي لأجلها اكتسب العلم، ومعلوم انَّ التّقرّب إليهم والمنزلة عندهم لايمكن إلاَّ بمظاهرتهم ومعاونتهم على ظلمهم وتصديقهم فيما يتكلّمون عن الحقّ والباطل واذا كانوا كذلك فلاتحسبنَّهم ايقاظاً، بل هم رقود؛ واذا ماتوا انتبهوا وزعموا انَّ هذا علم الدّين وشريعة خاتم النّبيّين وانَّه علم كتاب الله وأخبار سيّد المرسلين وأولاده المرضيّين وتركوا علم طريق الآخرة ومجاهدة النّفس وتهذيب الباطن عن ذمايم الأخلاق ونهي النّفس عن الهوى وتطهير القلب بالزّهد والتّقوى عن أرجاس الشهوات وأدناس الخطيئات، ورفضوا بالكلّيّة، طريق المعرفة والعفّة عن الله بادراك عظمته وجلاله وتوحيده وتقديسه وانَّ منه البدء والإنشاء وإليه العود والرّجعى، وهو العلم الّذي يورث الخوف والخشوع وبه يقع الإطّلاع على حقارة الدّنيا ودثورها وفنائها وعظمة الآخرة ودوامها وبقائها، وذلك من أغمض المعارف وأدقّ العلوم، وأكثرهم عنه غافلون، بل في زماننا هذا عنه معرضون.

فانَّ الّذي ذكرناه، نبأ عظيم وهم عنه معرضون فسيقولون هذا إفك قديم، فانَّ أكثرهم على طباع السّباع خُلقهم الإيذاء وطبيعتهم التّفاخر والإستعلاء على الأقران والتّطاول على النّاس ولايقصدون العلم إلاَّ لضرورة مايلزمهم من المباهات؛ فكلّ علم لايحصل به المباهات والتّظاهر والتّفاخر لاوقع له عندهم. ولاشك انَّ هؤلاء المغترّين بصورة العلم المشغوفين بماعندهم، من معرفة المجادلات الكلاميّة وتفاصيل العربدة والنّزاع بين أرباب المذاهب وأصحاب الدّعاوى والخصومات ومعرفة الفروع الخلافيّة والترجيحات في قوانين حفظ الأبدان والأنساب والأموال، فحفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأنساب بشروط المناكحات وحفظ الأبدان بدفع القتل والجراحات،همّتهم دنيويّة وطلبهم نفسانيّة، حتّى كأنَّهم لم يعرفوا الآخرة إلاَّ كالدّنيا ولم يطلب في الحقيقة إلاَّ مايكون فيها ولم يبتغوا لقاء الله والتّقرّب الى رضوانه، لعدم استيناسهم بالفيض العلويّ وعدم ارتباطهم بالرّوح الإلٰهيّ الّذي يزال به العمى عن القلب المغوي والصّمم عن السّمع العقلي، بسبب انحباسهم في المنزل الأدنى وانسداد باب المعرفة على سمعهم وقلبهم كالأصمّ والأعمى وانحصارهم في سجن الدّنيا وإخلادهم في العمارة السُّفلى والقرية الظّالم أهلها، دار الأموات ومنزل الدّواب

والحشرات ومعدن الشرور والظّلمات فاحتجبواعن ملاحظة الأبد ومعاينة جمال السّرمد، كأنّهم صمّ عن السّمع لمعزولون، و بكم فهم لاينطقون وعميٌ فهم لايبصرون، سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لايلتفتون بأنّ العلم المهمّ هو معرفة النّفس وحفظها عن المهلكات والنبو عمّا يوجب طيّ العقبات الّتي يمكثون فيها أحقاباً.

فلابدّ للعلماء أوّلاً: تنزيه النّفس عن رذائل الصّفات المذمومة الّتي هي الحجب بينه و بين الله ومن احتجب عن ربّه فهو في عذاب الجحيم: «وماأبرّىء نفسي انّ النفس لأمّارة بالسّوء»[1]؛ ولاينفعهم نصحي إن أردت أن أنصح لهم ولكنّي مذكّر، فذكّر إن نفعت الذّكرى، والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ايقاظ

وليعلم انّ المراد بالهدى المستعمل المذكور في الكتاب والسّنة، على ماذكره أهل التّحقيق، نور عقلي فائض من الله على قلب من استقام على سبيل المعرفة والطّاعة؛ وإنّما سمّي هدىً إذ بذلك النّور يرى الأشياء على ماهي عليه ويهتدي الى الحقّ و يسلك سبيل القرب من الله، كما انّ بالنّور الحسّي يرى المحسوسات ويهتدي الى المآرب الحسيّة كما في قوله «تعالى»: «وبالنّجم هم يهتدون»[2]؛ وذلك النّور سمّاه أهل الحكمة العتيقة عقلاً بالفعل وهو الإيمان الحقيقي قال الله «تعالى»: «انّ الهدى هدى الله»؛ وقال أولئك على هدى من ربّهم وإنّما سمّي القرآن هدى كما في قوله«تعالى»: «ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده»، وقوله: «هذا هدى»، لكونه وسيلة إليه تسمية للسّبب

١. سورة يوسف/٥٣.
٢. سورة النحل/١٦.

باسم المسبّب ولذلك الهدى أسباب متعدّدة وطرق كثيرة وهي بالحقيقة مسائل علميّة ومقاصد دينيّة، إذ كلّ قاعدة علميّة لها مدخل في تحصيل تلك الملكة النّورانيّة، المسمّاة بالهدى، لأنّها إن كانت نظريّة فلها تأثير بالذّات في تنو ير القلب وإن كانت عمليّة، فلها تأثير بواسطة العمل بها في صفاء الباطن وتهذيب الخاطر وطهارة النّفس.

وممّا ذكر ظهر معنى قول أبي جعفر عليه السلام كما في الكافي: «من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به»[١]، أي أجر كلّ من عمل به الى يوم القيامة، حيث انّ النّكرة المضافة تفيد العموم، ولما تعدّد العامل به فلكلٍ أجر فللمعلّم مثل أجرهم.

شعر:

وما الفخر إلاّ لأهل العلم انّهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

ومن المشهور: انّ الدّال على الخير كفاعله و يؤيّده بعده ولاينقص أولئك من أجورهم شيئاً. وبملاحظة ماذكر من معنى هدى، يظهر لك معنى الضّلال أيضاً. فالضّلال ظلمة باطنيّة متراكمة في النّفس لرسوخ الجهالات،والاعراض عن سماع الحقّ وقبول الصّدق وتلك الملكة النّفسانيّة أصل كلّ شرّ ومبنى كلّ فتنة وآفة في الدّين وانحراف عن سبيل المسلمين وتولٍّ عن الحقّ واليقين ولها شعب كثيرة وأبواب مختلفة، كلّها أبواب الجحيم ولكلّ باب جزء مقسوم كباب الشّهوة و باب الغضب و باب الحرص و باب الحسد و باب المكر والخديعة و باب الكبر والعجب و باب طول الأمل والإخلاد و باب حبّ الرئاسة وغير ذلك فانه قدظهر لك سر قوله «ع» في الحديث المذكور: «من علّم باب ضلال كان عليه مثل أوزار من عمل به، ولاينقص أولئك من أوزارهم شيئاً.[٢]

يعني انّ الرّئيس المضلّ اذا علّم باب ضلال أو وضع سيّئة، تكون فتنة للنّاس وضلالاً لهم، لم يصدر ذلك الاضلال أو تلك السّيّئة إلاّ عن نفس قداستولى عليها ظلمة الجهل المركّب، المضادّ لنور اليقين وصارت ملكة من ملكاتها فتسوّد وجهها عن قبول

١. أصول الكافي: ج١ ص٣٥.
٢. أصول الكافي: ج١ ص٣٥.

الأنوار الإلٰهيّة وصار ذلك حجاباً بينها و بين قبول الرّحمة، بحيث يكون ذلك في القوّة والشّدّة اضعاف حجب التّابعين له والمقتدين به، النّاشئة عن فتنه واضلاله، فانّ تلك الحجب الطّارئة على قلوب التّابعين، مستندة الى ذلك الحجب الحاصل في نفسه، فلاجرم يكون وزره وسيّئته في قوّة أوزار أتباعه وسيئاتهم، الّتي حصلت بسبب اضلاله لاكلّ سيّئاتهم من كلّ جهة ولذلك قال الله «تعالى»: «ومن أوزار الّذين يضلّونهم»[1]، أي بعض أوزارهم وهي الحاصلة بسبب المضلّين.

واذا عرف العالم أبواب الجحيم فعليه التحرّز عنها وتهذيب النّفس عن الشّهوة والغضب والحرص والحسد والمكر والخدعة والكبر والعجب وطول الأمل والخلود في الدّنيا وحبّ الرئاسة، فتلك الصّفات المذمومة لابدّ من اجتناب العالم الرّباني عنها، كلّها وعن لوازمها، فانّ لكلّ واحدة من هذه الصّفات لوازم وعد لها النّار مع الغضّ عن نفسها.

ايقاظ

ومن علامات العلماء الرّبّانيّين، أن يكون أكثر بحثه في علم الأعمال عمّا يفسدها أو يشوّش القلب ويهيّج الوسواس و يثير الشرّ، فان أصل الدّين التّوقّي من الشرّ ولذلك قيل عرفت الشرّ لاللشرّ لكن لتوقيه.

ومن جملة أسباب مايفسد الأعمال، المخاصمة في الدّين، كما هو عادة أكثر أصحاب المذاهب والآراء من غير بصيرة وأرباب الملل والأهواء من غير دراية، وربّما كان أصل المذهب حقّاً لكن المنتحل به كان قدأخذه من طريق الباطل كمجادلة أو تعصّب آباء أو تقليد استاذ ونحو ذلك، ممّاعليه الأكثرون، على ماوجدناه إلاّ نادراً، فانّهم قدتركوا وصيّة ربّهم ونصيحة نبيّهم وأئمّتهم عليهم السّلام من تزكية أنفسهم

١. سورة النحل/٢٥.

واصلاح ذات بينهم ومافيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم بما رسم لهم من العلوم والعبادات والخيرات والتعاون والنّجاة والتّعاضد والتّناصر والتودّد والألفة فيما بينهم. واشتغلوا بما قدنهوا عنه، من ذكر عيوب بعضهم بعضاً وشنعة بعضهم على بعض، فصاروا فرقاً وأحزاباً وقدتوقّدت بينهم نيران العداوة والبغضاء الى يوم القيٰمة؛ فتراهم يلعن بعضهم بعضاً و يكفّر بعضهم بعضاً لمرض كان في قلوبهم، فزادهم الله مرضاً وألماً وحرقة في نفوسهم وشعلة نار موقدة في أفئدتهم وهي، نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة وهم في العذاب مشتركون، أوّلهم مع آخرهم ولاحقهم مع سابقهم، كما قال اللّه «تعالى»: «كلما دخلت أمّةٌ لعنت أختها»؛[1] «قالوا ربّنا هؤلاء أضلونا»، الى آخر الآية.

ولهذا نهى عنه في الأخبار، كما في الكافي في خبر عن أبي عبدالله عليه السلام في أخبار باب الهداية: «ولاتخاصموا النّاس لدينكم فانّ المخاصمة ممرضة للقلب»؛ انّ الله تبارك وتعالى قال لنبيّه «ص»: «انّك لاتهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء»[2].

فظهر انّ المخاصمة في الدّين ممرضة للقلب مؤلمة للنّفس مثيرة لنيران العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيمة والظّاهر من لفظ النّاس، وإن كان ظاهراً في أهل الخلاف، إلاّ انّ العلة الّتي ذكرها الإمام عليه السلام، مشتركة بينهم و بين أهل مذهبنا.

روي عن كتاب اخوان الصفا محاوراتٌ جرت بين رجلين، أحدهما من أولياء الله تعالى وعباده الصالحين الذين نجّاهم الله من نار جهنم، وأعتقهم من أسرها، وأخْلص نفوسهم من عداوة أهلها، وأراح قلوبهم من ألم المعذّبين فيها. والآخرُ من الهالكين المعذّبين فيها بألوان العذاب، المُحرَقَة قلوبهم بحرارةِ عداوة أهلها، المتألّمة نفوسهم بعقوباتها. قال الناجي للهالك: كيف أصبحت يافلان؟

قال: أصبحت في نعمة من الله، طالباً للزيادة، راغباً فيها، حريصاً على جَمعها، ناصراً لدين الله، مُعادياً لأعداء الله، محارباً لهم.

١. سورة الأعراف/٣٨.
٢. سورة القصص/٥٦.

قال الناجي: ومن أعداء الله هؤلاء؟

قال: كلُّ من خالفني في مذهبي واعتقادي.

قال: وإن كان من أهل لاإله إلاَّ الله؟

قال: نعم.

قال: إن ظفرت بهم ماذا تفعل بهم؟

قال له: أدعوهم إلى مذهبي واعتقادي ورأيي.

قال: فإن لم يقبلوا منك؟

قال: أقاتلهم وأستحلّ دماءهم وأموالهم، وأسبي ذراريهم.

قال: فإن لم تَقدِر عليهم ماذا تفعل؟

قال: أدعو عليهم ليلاً ونهاراً، وألعنهم في الصلاة، كلُّ ذلك تَقرُّباً إلى الله تعالى.

قال: فهل تعلم أنك إذا دعوت عليهم ولعنتَهم يُصيبهم شيء؟

قال: لاأدري! ولكن إذا فعلتُ ماوصفتُ لك، وجدتُ لقلبي راحةً، ولنفسي لذّة، ولصدري شِفاء.

وقال له الناجي: أتدري لم ذلك؟

قال: لا، ولكن قل أنت.

قال: لأنَّك مريضُ النفس، مُعذَّب القلب، مُعاقَب الروح، لأنَّ اللذة إنَّما هي خروجٌ من الآلام. ثمَّ اعلم أنك محبوسٌ في طبقةٍ من طبقات جهنم، وهي الحُطَمة نارُ الله المُوقَدة التي تطَّلِع على الأفئِدة، إلى أن تخلُص منها وتنجو نفسُك من عذابها، إذا لقيتَ الله عزَّوجلَّ كما وعد بقوله: «ثمَّ ننجِّي الذين اتَّقَوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً»[١].

ثم قال الهالك للناجي: أخبرني أنت عن رأيك ومَذهبك وحال نفسك كيف هي؟

قال: نعم، أمَّا أنا فإنِّي أرىٰ أني قد أصبحتُ في نعمة من الله وإحسان لاأُحصي عَدَدَها، ولاأُؤدِّي شكرها، راضياً بما قسم الله لي وقدَّر، صابراً لأحكامه، لاأُريد لأحدٍ من الخلق سوءاً، ولاأُضمِر لهم دَغَلاً، ولاأنوي لهم شرّاً؛ نفسي في راحة، وقلبي في

١. سورة الزمر/٦١.

فُسحة، والخلق من جهتي في أمانٍ! أسلمتُ لربّي مذهَبي، وديني دينُ إبراهيم عليه السلام!

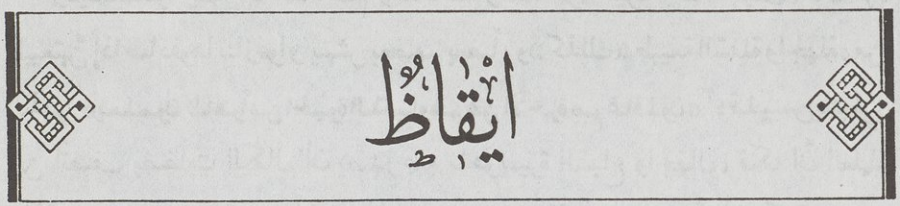

مربوط على سابقه، اعلم: انَّ علماء كلّ أمَّة، خلفاء نبيّهم في اظهار شريعته ونشر دعوته، فأولئك جند الله فهم الغالبون وحزب الله فهم المفلحون، ماداموا داعين الى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر كما هو دأب السَّابقين، الَّذين جاهدوا في الله وماوهنوا لما أصابهم في سبيل الله، أوذوافصبروا وتعاونوا وصابروا، فصاروا أئمّة يقتدى بهم المتّقون، ونجوا بهدايتهم، المهتدون، ولذا صاروا كأنبياء بني اسرائيل، ـطيَّب الله مراقدهمـ فلابدَّ لنا ولمن عاصرنا ولمن يأتي بعد زماننا هذا أن يمشوا على طريقتهم والعمل على وتيرتهم، لأنَّ علماء كلّ بلد قلاعه المنيعة وفقهاء كلّ عصر، بدورُه المنيرة ماتصادقوا وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى.

وامَّا اذا تخاصموا وتحاسدوا فينثلم بنيانهم و يتكدّر نورهم واذا تنازعوا في طلب الرئاسة، فيفشلوا فتذهب ريحهم ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً، لم‌ينخرم نظام الشّريعة ولم‌ينهدم قوام الطَّريقة، لأن العيدان المجتمعة، المتّصلة المشدودة، لايمكن كسرها ولوبقوّة الرّكبة واليدين، بخلاف ماذا كان كلّ واحد منفرداً غير متّصل بالآخر فالصَّبي أيضاً قادر على كسره، فكذلك العلماء والرّؤساء اذا اتّفقوا لا تغلبهم الظَّلمة ولايسبّهم السفلة ولايوهنهم الجهلة.

وامَّا اذا تخاصموا، تضيق صدورهم بالعداوة، فيخوضون في الغيبة فيتدابرون ولايتناصرون بل يتماكرون «فحينئذ»، يغلبهم الظَّلام و يتجرأ عليهم الجهَّال. وهذا خلل عظيم لنظام الشّريعة ومصالح الأمة، واذا سمعوا ممَّن عاصرهم من العلماء كلاماً من نمَّام، لايصغون إليه، لأنَّ النمَّام حين ابلاغه السّب أو الغيبة فاسق؛ «وإن

جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا»[١]؛ بل لهم أن يلعنوا من يمشي للنّميمة و يزرع بذر الفتنة، بل النمّام سابّ لك، لقوله «ع»: «سبّك من بلّغك»[٢].

وليعلموا أيضاً انّ التّخاصم والتّحاسد والتّماكر، سيرة آكلة الجيف، فان من طبيعتهنّ إذا صادفوها تنازعوا و ينهش بعضهم بعضاً، و«كذلك» طبيعة السّفلة والجهلة، من الّذين «يعلمون ظاهراً من الحيٰوة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»[٣]؛ فليس ينبغي لمن اتّصف بصفات الكمال أن يصدر عنه ماهو سيرة السّباع والجهّال، فكما انّ العلماء باينوهم بصورهم، يجب أن يباينوهم بسيرهم وطبائعهم، و ينبغي أن تكون هممهم مصروفة الى أمرين: أحدهما تهذيب النّفس. وثانيهما: تعدية المنفعة الى غيرهم وهو على قسمين:

أحدهما افادة الطّلبة والتّدريس وتفقّد أحوال التّلامذة ،بأمرهم بالتّخلّق بالأخلاق الحسنة، وحفظ علم الحال وتهذيب المقال والتّجنّب عن المراء والجدال والتّحبّب الى مايحبّه العزيز المتعال، وتنبيههم على عظمة العلوم الشّرعيّة والإهتمام بمواظبة الوظائف المرعيّة، من الفرائض والنّوافل اليوميّة واللّيليّة، من قراءة القرآن والأدعية المأثورة، سيّما الصّحيفة السّجاديّة، خصوصاً دعاء مكارم الأخلاق منها. وتصحيح العمل وتقصير الأماني والأمل وغير ذلك من الشّروط الآتية في محلّه «ان شاء الله».

وثانيهما: النّظر في أمور الرّعيّة، من أمر الدّين المبين لأنّ العوام كالأنعام، لابدّ لهم من راع يدلّهم و يسوقهم الى مرتع ينفعهم في الدّنيا والآخرة وهذا هو الغاية من العلم، كماهو صريح قوله «تعالى»: «فلولانفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم»[٤].

فلابدّ من دعوة الجهّال الى سبيل الحقّ، تارة بالبشارة والوعد الى رحمة الله،وأخرى

١. سورة الحجرات/٦.
٢. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٣. سورة الروم/٧.
٤. سورة التوبة/١٢٢.

بالإنذار من غضب الله ونار جهنّم، لانّه يكون واحداً منهم في حُبّ المال والجاه والرّئاسة ونسيان الآخرة والإعراض عن طريق الحقّ والإكتفاء بمجرّد اللّسان، لاالعمل بالأركان، فانّي أقول الحقّ وإن كان ماكان ولاأستحي من الحقّ؛ لأنّ الله لايستحي من الحقّ وكذا عباده، فان أعظم الآفات، الموجبة لإعراض الخلق عن طريق الحقّ وسبيل الآخرة في هذا الزّمان، هوحسبانهم أهل الظّاهر من علماء الدّنيا، الرّاغبين في المناصب، غير المناسبة لشأنهم والظّالمين للذّات والإخلاد في النّعمة والمشتاقين الى اتّباع الشّهوات من توسيع الدولة وتملّك القرى، وغير القانعين على ماآتيٰهم الله من الحلال، هداة الخلق ورؤساء الدّين وعلماء المذهب وأهل الإجتهاد، ومع ذلك كلّه معانقين للدّنيا، بحيث انّهم اذا سمعوا، انّ أحداً مات وترك مالاً وزوجة و بنات، فينسون الأخبار والآيات، بالتّصدّي الى تزو يج زوجته لنفسه و بناته لولده والثّلث لمردّته أو تركته.

فالعوام كالأنعام، يتخيّل فعله حجّة، بل لونهاه ناهٍ يقول في جوابه: العالم الفلاني أين يذهب، فأنا تابعه. فهذا أعظم فتنة في الدّين والدّنيا؛ وقانا الله شرّهم وضرّهم، بل نقول لهم: أيّها العوام انّكم ظننتم السّارق القاطع للطّريق، أميناً عادلاً، والجاهل المريض، طبيباً حاذقاً، **«وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله»**[1]، فانّ متابعتهم والإقتداء بسيرتهم، لم يزدكم إلاّ ضلالاً وجهلاً ووزراً ووبالاً؛ لأنّهم يعلمون ظاهراً من الحيٰوة الدّنيا وهم عن الآخرة غافلون، فعليكم أن تعتصموا في سبيل الطّلب بذيل علماء الآخرة، لأنّهم حبل الله المتين واتّباعهم ينجي من الهلكات، لأنّهم الّذين قال الله في حقّهم: **«يرفع الله الذين آمنوا منكم والّذين أوتوا العلم درجات»**[2].

١. سورة الأنعام/١١٦.
٢. سورة المجادلة/١١.

ايقاظ

ولابدَّ للعالم أن يكون أكثر بحثه في العلوم النَّظرية عمَّا يغيب عن المحسوسات والجسمانيّات، ولمَّا كان بعض العلوم أشرف من بعض من حيث الغاية والثَّمرة والموضوع، فلابدَّ من الاشارة الى بعضها.

واعلم انَّه يستفاد من كلمات العلماء انَّ ذلك يراد به أمور ثلاثة الأوَّل: شرف الثَّمرة. والثاني: وثاقة الدليل. والثالث: نباهة الموضوع، فاذا قيس بين علم وعلم، فانَّما يحكم بشرف أحدهما على الآخر بواحد من الأمور الثَّلاثة أو بأكثر، وربَّما كان أحدهما أشرف من الآخر بوجه والآخر أشرف منه بوجه آخر وذلك كعلمي الشَّريعة والطبّ؛ فانَّ ثمرة أحدهما سلامة العاقبة وسلامة الآخر سلامة الدّنيا فيكون علم الشّريعة أشرف، اذ لا تفاضل بينهما في وثاقة الدّليل من حيث انَّه دليل، وإن كان دليل أحدهما الآيات والأخبار؛ لكون الدّليل في كلّ منهما ظنيّاً ولافضيلة في الموضوع لكون الموضوعين متقاربين؛ لأنَّ موضوع علم الطّبّ أبدان المكلَّفين وموضوع علم الشّرع أفعالهم. هكذا قيل.

ولكنَّ الحقّ والإنصاف كما هو مطبوع طباع أغلب العقلاء: انَّ علم الفقه أشرف من علم الطّب بوجوه: أحدها انَّه مستفاد من النّبوّة بخلاف الطّبّ. وثانيها: انَّه لايستغنى عنه أحد من سالكي طريق الآخرة البتّة، لاالصَّحيح ولاالمريض. وامَّا الطّب فلايحتاج اليه إلاَّ المرضى. وثالثها: انَّ علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة، لأنَّه نظر في اعمال الجوارح ومصدر الأعمال، ومنشأها صفات القلوب، فالمحمود من الأفعال يصدر من الأخلاق المحمودة، المنجية في الآخرة والمذموم من المذمومة؛ ولايخفى اتّصال الجوارح بالقلب. وامَّا الصّحة والمرض فمنشأهما صفات في المزاج والأخلاط،

وذلك من أوصاف البدن لامن أوصاف القلب، فهما أضيف علم الفقه الى الطّب، ظهر شرفه، إذ به تحصل السّعادة في الدّنيا والدّين وهو ميراث النّبيّين وجبلّة الأولياء والمقرّبين.

فموضوعه الأفعال ومسائله الأحكام وغايته حفظ الشّريعة وتصحيح الأعمال واقامة الوظائف الشّرعيّة والإرشاد الى المصالح الدّينيّة والدّنيويّة والإرتقاء عن حضيض الجهل وربقة التّقليد، ومرجعها الى تكميل القوى النّفسانية واستجلاب المراحم الرّبانيّة، وحقّه اخلاص العمل وازاحة العلل واصلاح النّية وتصفية الطويّة ومعرفة أحوال القلب والاطّلاع على صفات النّفس، مهلكها ومنجيها، ومايؤدّي الى ذلك من محاسن الأعمال ومساوئها ورذائل الخصال ومعاليها، اذ العلم مقرون بالعمل ولاعمل إلاّ بالنّيّة ولانيّة إلاّ بالإخلاص ولاإخلاص إلاّ بالخلاص عن شوائب العجب والرّياء و بالخلوص عن حبّ المدح والثّناء؛ ولايتأتّى ذلك إلاّ بكسر حظوظ النّفس واخراج حبّ الدّنيا من القلب، ليغلب عليه حبّ الله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته في العلم والعمل، واذا وفّق أحد لذلك، حصل له تمام الأمر وملاك الفضل. ودليل ذلك هو العقل الّذي هو برهان قاطع، والنّقل الّذي هو نور ساطع وليس علم الطّب كذلك، بل انّه ليس إلاّ أمراً من أمور الدّنيا من حيث الموضوع والغاية وصنعة من صنائع أهل الدّنيا، غاية مافي الباب له كمال فوق كمال أصناف العالم، وحامله عزيز في الدّنيا.

نعم لواستعمل الطّبيب علمه قربة الى الله وطلباً لمرضات الله، له أجرٌ في الآخرة. وهذا أيضاً ليس من مختصّاته، بل جميع صنائع العالم لواستعملت في مرضات الله فعاملها مأجور عند الله، وإن كان العلم أيضاً كذلك إلاّ انّه لابدّ لطالبه من القربة، حتّى يترتّب عليه الأثر يوم القيامة، كما ذكرنا مراراً، و بالطريقة التي ذكرناها تحصل القوّة القدسيّة، الّتي هي الطّبيعة الوقّادة والقريحة النّقّادة الّتي يتمكّن بها من ردّ الجزئيّات، الى قواعدها الكليّة و يقدر بها على اقتناص الفروع من ضوابطها الأصليّة، ولمّا كان قصد القربة في التّحصيل من مشاكل القصود ولذا لم يحصل لكلّ طالب درجة الإجتهاد الواقعي، و بعد الحصول لمّا كان الفقه عظيم الخطر والمساهلة فيه شديدة

الضَّرر، والفقيه لايأمن في حالتي نطقه وصمته من الإثم والوزر، قلنا مراعاة الإحتياط من أحسن الطَّاعات عملاً، كما ذكرنا سابقاً، انَّه ينبغي له أن لايسرع الى الإفتاء والحكم بقدر الإمكان، بل يحوّل الى من هو أعلم منه، كما هو دأبُ الماضين.

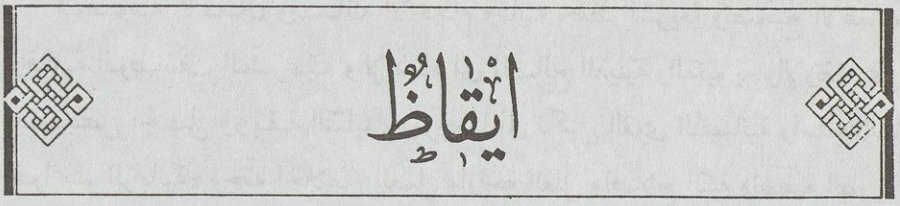

إذا عرفت شرف علم الفقه، على سائر العلوم بعد علم الكلام، فأضفه الى علم طريق الآخرة وإن كان يحصل ذلك من الفقه أيضاً، فانَّك تجد علم الآخرة أشرف منه وهو على ماذكره بعض المتألّهين قسمان: علم مكاشفة؛ وعلم معاملة.

والأوَّل: هو علم الباطن، وذلك غاية العلوم وهو علم الصِّدّقين والمقَّربين، الّذي هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، و ينكشف في ذلك النّور أمور، كأن يسمع من قبل اسمائها، و يتوهّم لها معان مجملة، غير متّضحة، فيتّضح له ذلك حتّى يحصل له المعرفة الحقيقيّة بالله «تعالى»، و بصفاته التّامّة و بأفعاله وبحكمته في خلق الدّنيا والآخرة، ووجه ترتيب الآخرة على الدّنيا والمعرفة بحقيقة معنى النّبوّة والنّبيّ ومعنى الوحي ومعنى الملائكة والشّياطين وكيفيّة معادات الشّيطان وكيفيّة ظهور الملك للأنبياء عليهم السّلام، وكيفيّة وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السّموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفيّة تصادم جنود الملائكة والشّياطين فيه ولمّة الشّيطان، ومعرفة الآخرة والجنّة والنّار وعذاب القبر والصّراط والميزان والحساب. ومعنى قوله «تعالى»: و«كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»[1]، ومعنى قوله «تعالى»: «وإنَّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون»[2]؛ ومعنى لقاء الله تعالى والنّظر الى وجهه الكريم ومعنى القُرب منه والنّزول في جواره ومعنى السّعادة والشّقاوة

١. سورة الاسراء/١٤.
٢. سورة العنكبوت/٦٤.

وتفاوت درجات أهل الجنان ودركات أهل النّيران وغير ذلك.

وامّا القسم الثّاني وهو علم المعاملة فهو العلم بأحوال القلب امّا مايحمد منها فكالصّبر والشّكر والخوف والرّجاء والزهد والتّقوى والقناعة والسّخاوة، ومعرفة المنّة لله «تعالى» في جميع الأحوال، ومعرفة الإحسان وحسن الظّن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصّدق والإخلاص، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها، الّتي بها تكتسب وثمراتها وعلاماتها ومعالجة ماضعف منها حتى يقوى ومازال حتّى يعود؛ وامّا مايذمّ فخوف الفقر والغلّ والحسد والحقد والغشّ وطلب العلوّ وحبّ النساء وحبّ طول البقاء في الدنيا للتمتّع والكبر والرّياء والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والأشر والبطر والخيلاء والفخر والمباهاة والاستكبار عن الحقّ والعُجب والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة، الى غير ذلك من رذائل الأخلاق وأمثالها، هي مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة وأضدادها هي الأخلاق المحمودة الّتي هي منبع الطّاعات والقربات، فالعلم بتلك الحدود، هو علم الآخرة فالمتّصف بها هو النّاجي، والمعرض عنها هو الهالك. فانّي أرى بعض المحصّلين في زماننا هذا، لوسألتهم عن دقائق مسألة السبق والرّماية والظّهار واللّعان، الّتي تنقضي الدّهور ولايحتاج الى شيء منها.

وهكذا لوسألتهم عن الأصول اللّفظية، مثلاً عن مسألة اجتماع الأمر والنّهي وموارد العميق من الإستصحاب والبراءة من الأصول العمليّة، الّتي هي متداولة بينهم، يتكلّمون كأنّهم العندليب في غصون الأشجار فلايزالون يتعبون أنفسهم ليلاً ونهاراً في حفظها ودرسها، وهم غافلون عمّا هو مهمّ في نفسه في الدّين، و يزعم انّه مشتغل بعلم الدّين و يلبس على نفسه وعلى غيره. والفطن يعلم انّه لوكان غرضهم من التحصيل هو العمل قربة الى الله، وطلباً لمرضات الله وامتثالاً لأوامر الله، فلابدّ أوّلاً من تهذيب النّفس عن رذائل الصفات، ثمّ التوجّه الى أمر الرّعية، لأنّ الوعظ من المتّعظ بنفسه أوّلاً، يؤثر في غيره ثانياً؛ فانّ السّراج اذا لم يستضاء بنفسه، كيف يستضيء به الناس.

و يكشف عن صدق ماذكرناه من كون المقصود هو الدّنيا انّ المحصّل المدّعى

للإجتهاد بعد قضاء وطره، اذا أراد الرّجوع الى بلده، يستجيز من أساتيذه فان أجازوه على وفق مقصوده وكتبوا انّه مجتهد فيها، وإلاّ فينزجر عنهم بحيث يكونون فسقة عنده، بناء على اعتقاده الثّانوي وامّا غير مدّعي الإجتهاد اذا استأذن من واحد من العلماء في الأمور الحسبيّة الشّرعيّة، فان أذن له في التّصرّف في مال الغيّاب والأيتام وأخذ سهم الإمام، فلامثيل له وانّه أعلم العلماء وإلاّ فيقول: فلان ليس بمجتهد أصلاً ولواكتفى بذلك تنعم الرّجل، بل يفسّقه و يكفّره.

فبالله عليكم أيّها المنصفون، هذا هوغاية التّحمّل للزّحمات الكثيرة في تحصيل العلم؛ -أستجير بالله من سوء العاقبة- فعليهم أن يتفكّروا في عاقبة أمورهم، فانّ الدّنيا تنقضي وإنّ شرف الآخرة خير من شرف الدّنيا، بل انّ الطالب اذا طلب الآخرة واختارها على الدّنيا، أعطاه الله الحكمة و يكون ممدوحاً عند الله وممدوحاً عند النّاس ويحبّه الله ويحبّه النّاس، كما كان في حقّ لقمان، وهوعبد أسود كلّف النّبوّة ولم يقبل، كما في المجمع عن النّبيّ صلى الله عليه وآله انّه قال: «حقّاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبداً كثير التّفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة كان نائماً منتصف النّهار اذ جاء صوت يالقمان: هل لك أن نجعلك خليفة في الأرض تحكم بين النّاس بالحقّ؟ فأجاب الصّوت: إن خيّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن هوعزم عليّ، فسمعاً وطاعة فانّي أعلم انّه إن فعل بي ذلك فأعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لايراهم: لمَ يالقمان؟ قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها، يغشاه الظّلم من كلّ مكان، إن وفى فبالحريّ أن ينجو وإن أخطأ، أخطأ طريق الجنّة ومن يكن في الدّنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً، خير من أن يكون في الدّنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً ومن يختر الدّنيا على الآخرة هانت الدّنيا ولايصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة، فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلّم بها»، ثم كان يؤازر داود «ع» بحكمته فقال له داود: طوبى لك يالقمان، أعطيت الحكمة وصرفت عن البلوى[1].

وعن القمّي عن الصّادق عليه السلام: انّه سئل عن لقمان وحكمته الّتي ذكرها الله «تعالى» فقال: «أمّا والله ماأوتي لقمان الحكمة بحسب ولامال ولاأهل ولابسط في جسم

١. كنز العمال: ج١٤ ص٣٤ خ٣٧٨٦٥.

ولاجمال ولكنَّه كان رجلاً قويّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكناً مسكيناً عميق النَّظر، طويل الفكر، حديد النَّظر مستغن عن الغير، لم ينم نهاراً قطّ ولم يره أحد من النَّاس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدّة تستّره وعمق نظره وتحفّظه في أمره ولم يضحك من شيء قطّ مخافة الإثم ولم يغضب قطّ ولم يمازح انساناً قطّ ولم يفرح بشيء إن أتاه من أمر الدّنيا ولا حزن منها في شيء قطّ وقد نكح من النساء وولد له أولاد كثير وقدمات أكثرهم افراطاً، فما بكى على موت أحد منهم ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلاّ أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتّى يتحابّا ولم يسمع قولاً قطّ من أحد استحسنه إلاّ سأل عن تفسيره وعمَّن أخذه وكان يكثر بماله الفقهاء والحكماء وكان يغشى القضاة والملوك والسّلاطين فيرثي للقضاة بما ابتلوا به و يرحم الملوك والسّلاطين لمعرفتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك و يعتبر و يعلم مايقلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشّيطان وكان يداوي به قلبه بالتّفكر و يداوي نفسه بالعبر وكان لايظعن إلاّ فيما يعنيه بذلك، لو أتى الحكمة ومنح العصمة ، وأمر الله تبارك وتعالى طوائف من الملائكة حين انتصف النّهار وهدأت العيون بالقائلة فقالوا: يالقمان حيث يسمع ولا يراهم هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين النَّاس.

فقال لقمان: ان أمرني ربّي بذلك، فالسّمع والطّاعة، لأنّه ان فعل بي ذلك، أعانني عليه وعلّمني وعصمني وإن هو خيّرني قبلت العافية، فقالت الملائكة يالقمان لم قلت ذلك؟ قال: لأنّ الحكم بين النَّاس أشدّ المنازل من الدّين وأكثر فتناً وبلاء، مايخذل ولا يعان و يغشاه الظلم من كلّ مكان وصاحبه منه بين أمرين، ان أصاب فيه الحقّ فبالحريّ أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة ومن يكن في الدّنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سريّاً شريفاً ومن اختار الدّنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما، فتزول هذه ولا يدرك تلك، قال: فتعجّبت الملائكة من حكمته واستحسن الرَّحمٰان منطقه، فلمّا أمسى وأخذه نحواً من اللّيل أنزل عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه الى قدمه وهو نائم وأعطاه بالحكمة نمطاً فاستيقظ وهو أحكم النَّاس في زمانه وخرج على النَّاس ينطق بالحكمة. قال: فلمّا أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عزّوجلّ الملائكة فنادت داود«ع» بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان، فأعطاه الله عزّوجلّ الخلافة في الأرض وابتلى فيها غير مرّة وكلّما يهوى في الخطأ يقبله الله «تعالى» و يغفر له وكان لقمان يكثر زيارة داود«ع» و يعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه وكان داود«ع» يقول له: طوبى لك يالقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأعطي داود الخلافة وابتلي

بالحكم والفتنة[١].

فظهر من جميع ماذكرناه: انَّ العاقل بقدر الإمكان لايختار الدّنيا على الآخرة ولوكان الإجتهاد والإفتاء من أمور الآخرة إلاَّ انّه مشوب بالرئاسة الدّنيويّة في هذا العصر والزَّمان؛ بل في بعض الموادعين الدّنيا ولامحالة توأمان إن لم نقل انّهما نقيضان لايجتمعان في الآخرة، فلابدّ من أحدهما وسئل بعض الحكماء ماذا تعلّمت من الفقه؟ قال: ثلاث مسائل، امّا من كتاب النّكاح انَّ الجمع بين الأختين حرام، فقلت الدّنيا أخت الآخرة فالجمع بينهما حرام.

ايقاظ

كلّ ماذكرناه من صفات علماء الآخرة، لايصل اليها كلّ أحد من المجاهدين وإن كان معدوداً من أهل الذّكاء والفطنة، اذ العلم بها كالعلم بكيفيّة حلاوة السّكر، لايعلمها من لم يذقه. والّذي ذكرناه من عدم اجتماع الرّئاسة الدّنيويّة معه، إنّما هو علم الآخرة، لأنّه لاينكشف إلاّ بمجانبة الهوى والتّوحّش عن صحبة أبناء الدّنيا وترك عاداتهم الرّديّة وأخلاقهم السيّئة. وامّا غيره من العلوم كلّها فلايتعذّر تحصيلها مع محبّة الدّنيا والإخلال بحقائق الإخلاص والتّقوى، بل ربّما كان محبّة الدّنيا معينة على تحصيلها واكتسابها مثل: علم النجوم والطّبّ والهندسة وغيرها، لإطّلاع الجمهور على ثمراتها ونتائجها، الّتي بها يدور مدار العيش، كما في الطّب و ببعضها يحصل مصالح الخلق ونظام العالم، ولذا تراهم يتحمّلون المشاقّ من الجوانح وسهر اللّيالي والصّبر على الغربة والاسفار البعيدة والفراق عن الوطن والأهل والأقرباء لطلب العلوم، لاستشعارهم حصول الجاه والمال، والرّفعة بحصول العلم بما ذكر؛ ومن هذا القبيل علم الدّين أيضاً، بالنّسبة الى بعض علماء زماننا هذا؛ فانّه صارعين تحصيل الرئاسة

١. تفسيرالقمی،ج٢/١٦٢.

والرّفعة والشّرف. وتختلف كيفية ذلك باختلاف الأشخاص من حيث المراتب والمواطن، فربّما يحصل لأهل القرى مالايحصل لأهل البلدان فيكون الرّستاقي رئيساً على البلدي وقديكون بالعكس. وهكذا ولاملازمة بين هذا العلم و بين التّقوى والخوف والخشية من الله تبارك وتعالى، وليس العالم المذكور هو الموصوف في قوله «تعالى»: «إنّما يخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ»[١]؛ بل المراد من العلم الموجب لخشية الله، هو العلم الحاصل من ملازمة التّقوى والورع والزُّهدوهذاالعلم هوالّذي معلّمه هوالله «تعالى»، كما قال عزّوجلّ: «واتّقوا الله و يعلّمكم الله»[٢]؛ حيث جعل العلم ميراث التّقوى. وهذا العلم هو العلم الّذي يتقبّله الله كما قال سبحانه: «إنّما يتقبّل اللهُ من المتّقين»[٣]؛ حيث حصر قبول جميع الأعمال على التّقوى وإن كان الشّيخ الأستاذ[٤] طاب ثراه، ضيّق دائرته في رسالته: بأنّ تقوى كلّ عمل بالنسبة الى نفس ذلك العمل، لاعلى غيره، فتأمّل.

فظهر انّ العلوم الأخرى متيسّرة من غير ذلك الطّريق بلاشك، وهذا أيضاً من تعليم الرّب تعالى، من ايجاد أسبابها في النّفوس الفطنة، حيث قال: «وعلّم الإنسان مالم يعلم» ؛ بناء على اطلاقه وتعميمه، فاذا كان غاية تحصيل علم الدّين وثمرته، هي الدّنيا فلايترتّب عليه أثر في الآخرة فيكون العلم المذكور كصنعة من صنائع الدّنيا، ومع ذلك يحاسب عن اكتسابه يوم القيٰمة حساباً شديداً و يسأل الله عنه سؤالاً حثيثاً، ولذلك قلنا سابقاً كما ورد في الأخبار أيضاً: انّ أسوء النّاس حالاً يوم القيٰمة وأردأهم عملاً وأشدّهم سؤالاً من يجعل علمه ودينه وسيلة لدنياه الّتي هي دار أعداء الله لادار أوليائه.

نعم هي مزرعة الآخرة والكلام في زراعتها وزرعها وزارعها فالعالم الّذي وصفه الله «تعالى» في كتابه بكونه صاحب الدّرجات هو الّذي يطأ الدّنيا ومافيها برجليه و ينظر

١. سورة فاطر/٢٨.
٢. سورة البقرة/٢٨٢.
٣. سورة المائدة/٢٧.
٤. لعل المراد من الشيخ الأستاذ، هو الشيخ الأعظم الأنصاري.

الى الباقيات الصّالحات، بل يمكن أن يدّعى انّ العالم الطّالب للدّنيا لم يعرف بعد فضل معرفة الله وإلاّ ليغضّ عينيه عمّا هو متاع اعداء الله، كما في الكافي، عن أبي عبدالله جعفر الصّادق عليه السلام: «لو يعلم النّاس ما في فضل معرفة الله مامدّوا أعينهم الى ما متّع به الأعداء، من زهرة الحيوٰة الدّنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقلّ عندهم ممّا يطؤونه بأرجلهم وتنعّموا بمعرفة الله تعالى وتلذّذوا بها تلذّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله»[1].

لاأقول انّه يجب على العلماء ترك الدّنيا من جميع الجهات ولكن أقول: يجب عليهم ترك الحرص وطلب الزّيادة عمّا يكفيهم من أقلّ مراتب المعيشة وأن لايحرصوا لشرب رئاسة الدّنيا، شرب الهيم بحيث يتفكّرون في اللّيالي من تمهيد المقدّمات وتسبيب الأسباب و تصديع الزّحمات لنتيجة إيّام معدودات وليس بمعلوم وصوله إليها، إلاّ بعد سقوط الأسنان وعيّ الجارحات وزمان يستوي فيه الحياة والممات، اليوم يأتيه أم بعد يوم آتٍ وهل توصله الى الدّرجات أم الى الدّركات، ففي الرئاسة لامحالة احتمال الشّقاوة والسّعادات، فدفع الضّرر المحتمل المهلك واجب: ولا تلقوا بأيديكم الى المهلكات، ولعمري انّهم همّوا بما لم ينالوا غالباً.

ايقاظ

وليعلم أيضاً انّه ينبغي للعالم أوّلاً، يعني قبل شروعه للعلم تصوّر السّعادة والشّقاوة دنيويّتهما وأُخرويّتهما. امّا الدّنيويّة منهما فلانحتاج الى التّعرض لها. وامّا السّعادة والشّقاوة الأُخرويّتان أمران يحتاج الى بيانهما وأسباب تحصيلهما.

فنقول: الّذي يستفاد من كلمات المتألهين: انّ الأفعال والأعمال البدنيّة والأقوال اللّسانيّة مادام وجودها في أكوان الحركات والأصوات الدّنويّة، فيلاحظ لها من البقاء والشك لأنّ الدّنيا دار التّجدد والزّوال وكلّ مافيها في معرض التغير

١. فروع الكافي: ج٨ ص٢٤٨.

والإنتقال ولكن من فعل فعلاً أو نطق بقول يحصل منه أثر في نفسه ولكنه في قلبه المعنوي الّذي هو بعينه جوهر نفسه، لاقلبه اللّحمي الصّنوبريّ الّذي لاشعور له بشيء ولايتصوّر بقاءه، لأنّه أيضاً من الدّنيا.

وامّا اللّطيفة المعنويّة، فهي من الأمور الأُخرويّة القابلة للبقاء الأخروي، فاذا تكرّرت الأفاعيل والأقاويل، استحكمت الآثار في النّفس فصارت الأحوال ملكات، اذ الفرق بين الحال والملكة بالقوّة والضّعف والاشتداد في الكيفيّة يؤدّي الى حصول صورة هي مبدء الجوهري لمثل الأمر الّذي كان أوّلاً حالاً: كالحرارة الضعيفة في الفحم، اذا اشتدّت تحمّرت، ثمّ تنوّرت واستضاءت، ثمّ صارت صورة ناريّة محرقة، لماقارنها، مضيئة لماقابلها، كذلك الأحوال النّفسانيّة اذا تضاعفت قوّتها، صارت ملكة راسخة وصورة باطنيّة وهي مبدء الآثار المختصّة بها. ومن هذا الوجه يحصل ملكة الصّناعات والمكاسب العلميّة والعمليّة في الدّنيا و ينبعث في الآخرة على هيئة وشكل يناسبها ولولم يكن للنّفوس الانسانيّة هذا التّأثير أوّلاً، ثمّ الإشتداديوماً فيوماً لم يكن لأحد، اكتساب شيء من الصّناعات والحرف ولم ينجع التّأديب والتّعليم لأحد ولم يكن في تعليم الأطفال وتمرينهم على الأعمال فائدة وذلك قبل رسوخ أخلاق مضادّة لماهو المطلوب من التأديب في نفوسهم ولأجل ذلك يتعسّر بل يتعذّر تعليم الرّجال البالغين وتأديبهم لاستحكام هيئات وملكات حيوانيّة في نفوسهم بعدما كانت ساذجة بالقوّة، قابلة لكلّ علم وصنعة تناسب مرتبتها كصحائف وألواح خالية من النّقوش والصّور الكتابيّة.

فاذن قلوب بني آدم في أوائل الفطرة كصحائف خالية عن النّقوش والصّور يعني الملكات الفاضلة العلميّة والعمليّة وأضدادها من رذائل الجاهلية والأخلاق الرّديّة العلمانيّة، وتلك الصّحائف هي صحائف الأعمال وتلك النقوش والصّور الكتابيّة كما تحتاج الى قابل يقبلها، «كذلك» تحتاج الى فاعل أي مصوّر وكاتب، والمصورون والكتّاب في هذه الكتابة المستورة عن الحواسّ، هم الكرام الكاتبون، لكرامة ذاتهم وفعلهم عن المواد الجسمانيّة، الموكّلين بكتابة أعمال العباد وأقوالهم، و«مايلفظ من قول

إلاّ لديه رقيب»[١]؛ واحد منهما يكتب الخيرات والحسنات والسّعادة، والآخر[يكتب] أعمال الشرّ والسّيئات والشقاوة.

وعلى ماذكرنا ورد عن أبي عبدالله جعفر الصّادق عليه السلام، كما في الكافي انّه قال: «انّ الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور وفتح مسامع قلبه ووكّل به ملكاً يسدّده وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء وسدّ مسامع قلبه ووكّل به شيطاناً يضلّه، ثمّ تلى «ع» هذه الآية: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء»[٢]؛ فاذا كانت تلك الصّحيفة قابلة لأن ينقش فيه السّعادة الأبدية قبل أن تتوسّخ بأوساخ السّيئات والشّقاوة فألف حيف للعالم أن ينزله عن القابليّة و يوسّخه بأوساخ الشّقاوة.

فظهر انّ لهذه الهيئة الرّاسخة والحالة الباطنة، اذا اشتدّت وتجوهرت وتمثّلت وتصوّرت في عالم الباطن والملكوت بصورة تناسبها وهي المسمّاة في عرف الحكمة، بالحكمة «فحينئذ» أراد الله له خيراً أي قدّره في عالم التّقدير من أهل السّعادة الأخرويّة.

وقوله نكت في قلبه نكتة من نور اشارة الى نيّة صالحة. وفتح مسامع قلبه، اشارة الى تكرّر الادراكات بتكرّر الأعمال والأقوال، الّتي من جنس مايتأثّر منه قلبه أوّلاً فيتقوّى بها استعداده و يتأكّد بها حاله، لأن يصير بها ملكة نفسانيّة ويخرج بها نور قلبه من الضّعف الى الكمال ومن القوّة الى الفعل، فيستعدّ أن يصير ذاتاً جوهريّة نورانيّة، قائمة بذاتها، فاعلة للخير والهداية و«حينئذ» وكلّ الله عليه ملكاً يسدّده، بل يمكن أن يقال: انّ هذا الملك خلقه الله من مادّة تلك النّيّة، الصّالحة والحالة النّفسانيّة؛ وهكذا طرف العكس أي قوله: اذا أراد الله بعبد سوء الى آخره، طابق النّعل بالنّعل.

فاذا اشتدّت حالته بأنواع الحيل والمراوغات والمكر والخدائع، يتجوهر ذاتاً نفسانيّة ظلمانيّة، فاعلة للشرّ والضّلالة والشّقاوة والغواية وتكوّن منها شيطاناً يضلّه. والى هاتين الحالتين أشار عليه السلام بقوله تعالى: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره

١. سورة ق/١٨.
٢. أصول الكافي: ج١ ص١٦٩.

للاسلام الى آخر الآية، حتّى تعلم بذلك كيفيّة نشوء الآخرة من الدّنيا. والى هذا أشار فيثاغورس الحكيم، الّذي هو من أعاظم الحكماء السّابقين الأوّلين، حيث قال: «ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك، وسيظهر لك من كلّ حركة فكريّة أو قوليّة أو عمليّة صورة روحانيّة، فان كانت الحركة غضبيّة أو شهويّة، صارت مادّة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النّور بعد وفاتك. وإن كانت الحركة عقليّة صارت ملكاً تلتذّ بمنادمته في دنياك وتهتدي به في أُخراك الى جوار الله وكرامته»[١]؛ انتهى.

وكان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أشار الى ذلك فيما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم حيث انّه «ص» قال: «ياقيس انّ مع العزّ ذلاً ومع الحيوة موتاً وانّ مع الدّنيا آخرة، وإنّ لكلّ شيء رقيباً وعلى كلّ شيء حسيباً وإنّ لكلّ أجل كتاباً وانّه لابدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فان كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أساءك ثمّ لايحشر إلاّ معك ولاتحشر إلاّ معه ولا تُسأل إلاّ عنه فلاتجعله إلاّ صالحاً فانّه إن صلح انست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك»[٢]؛ وأيضاً عنه «ص» قال: «المرء مرهون بعمله»[٣]؛ وأيضاً «انّ الجنّة قيعان وانّ غارسها سبحان الله»[٤]؛ وأيضاً ورد «انّه «تعالى» خلق الكافر من ذنب المؤمن»[٥]؛ وأمثال هذه الرّوايات؛ ومن الآيات قوله تعالى: «ولاتجزون إلاّ ما كنتم تعملون»[٦]؛ وقوله: «إنّما تجزون ما كنتم تعملون»[٧].

فظهر انّ نفس العمل يصير نفس الجزاء ولذا لم يقل إنّما تجزون بما كنتم تعملون، تنبيهاً على ماذكرنا. ومن هنا يمكن أن يقال بتجسّم الأعمال يوم القيٰمة: فظهر انّه لولم يكن لتلك الملكات والنيّات من الثّبات والتجوهر، مايبقى أبد الآباد، ولم يكن

١. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٢. الأربعين للشيخ البهائي ص٢٦٣؛ أمالي الشيخ الصدوق، المجلس الأول/٣.
٣. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٤. الأربعين للشيخ البهائي ص٢٦٥؛ الترمذي، كتاب الدعوات، الباب ٥٩: ٥/٥١.
٥. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٦. سورة يس/٥٤.
٧. سورة التحريم/٧.

لخلود أهل الجنّة في الثّواب أبداً ولخلود أهل النّار في العقاب مؤبّداً، وجه صحيح. فانّ منشأ الثّواب والعقاب ومقتضاهما لوكان نفس العمل أو القول وهما أمران زائلان، يلزم بقاء المسبّب مع زوال السّبب المقتضي، وذلك غير صحيح، فالخلود في الجنّة والنّار بالثّبات في النّيّات والرّسوخ في الملكات، وقوله تعالى: «يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم»[١]؛ اشارة الى هذا ومع ذلك فان من فعل «مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره»[٢]، أي يرى أثره مكتوباً في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة، كرام بررة، حين يقع بصره على وجه ذاته عند فراغه عن غشاوة الطّبيعة وشواغل هذه الحياة الدّنيا ومايورده الحواسّ و يلتفت الى صحيفة باطنه ولوح قلبه، واذا الصّحف نشرت فيقول الله تبارك وتعالى: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»[٣].

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه وحساب حسناته وسيّئاته، يقول: «مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلاّ أحصاها؛ ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربّك أحداً»[٤]؛ «يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خير محضراً وماعملت من سوء تودّ لوانّ بينها وبينه أمداً بعيداً»[٥]؛ فألف حيف للعالم أن يكون محبّاً للدّنيا، بعد أن رأى صحيفته أمداً بعيداً و يكون حاله أسوء من حال من سمع عنه وعمل به.

فنتيجة ماذكرنا في هذا الإيقاظ: انّ للعلماء أن لايغتروا بالرّئاسة الدّنيويّة، لأنّه لاملازمة بين السّعادة الدّنيويّة والأُخرويّة، كما لاملازمة بين شقاوة الدّنيا وشقاوة الآخرة؛ فربّ سعيد في الدّنيا من جميع الجهات يكون عمله يوم القيمة هباءً منثوراً وربّ شقيّ في الدّنيا يكون سعيداً في الآخرة، بسبب الأعمال الصّادرة في أيّام الرّئاسة وتمهيد مقدّماتها، الّتي كلّها قبيحة في أنظار النّاظرين وهوعمى عنها، لحبّه لها، لأن حبّ الشّيء يعمي و يصمّ، فأيّ لذة فيها، مع انّ رئاسة الدّنيا العلمية،

١. سورة البقرة/٢٢٥.
٢. سورة الزلزال/٨.
٣. سورة ق/٢٢.
٤. سورة الكهف/٤٩
٥. سورة آل عمران/٣٠.

مشقّة عظيمة سيّما اذا تقارن زمان الشّيخوخة، فانّ لذّة كلّ شيء من المآكل والمشارب والمناكح والملابس وغير ذلك، إنّما تكون هنيئاً في أيّام الشّباب وإن كان المشهور بينهم، انّ لذّة الرّئاسة أمر قلبيّ لايعرفه من لم يذقه فغلّب الله ذلك القلب الى النّار و بئس القرار، لأنّ المقدّمات الّتي نتيجتها عتاب الله، بل عقاب الله تعالى، كيف يحسبها العاقل لذّة، فهل تساوي هذه اللّذة سماع الكلمات المنكرة من الجهّال والمعاصرين وأهل الطّمع وملاحظة المكاتبات المشتملة على الشّتم والسّب من أدنى التّلامذة الأشرار الطّمّاع، الّذين لم يحتفّوا حوله إلاّ لأجل المعيشة، ولايسمّيه أحد منهم مولى إلاّ أن يسمع عنه قولاً يلاطفه و يلاحظه و يعرّفه عند العوام و بالعكس، لأنّ الرّئيس في أوّل الأمر يحتاج الى ترو يج المرؤوسين إيّاه، فاذا استقرّ أمر الرّئيس يكون التلميذ محتاجاً الى ترو يج الرئيس إيّاه.

و يؤيّد ماذكرناه من كون المقصود هو الدّنيا: انّا نشاهد بالعيان، انّ بعض الرؤساء لايسألون عن أحوال تلميذهم من الرّعيّة اذا غاب عنه ورجع الى بلده إلاّ عن أمر رئاسته ودنياه واقبال النّاس وتوجّه الوجوه اليه، وليس ببالي أن أرى أحداًمنهم يسأل عن كونه آمراً وناهياً وكون قوله مؤثّراً في قلوب النّاس. و يسأل عن العوام هل صاروا متّعظين بمواعظه أو عاملين بمايحدّثهم وآخذين مسائلهم عنه، وكل هذا كاشف عن كون مقصودهم هو الدّنيا فقط.

ايقاظ

قد ذكرنا مراراً: انّ اللاّزم للعلماء أوّلاً تقديم طهارة النّفس عن رذائل الأخلاق وذمائم الصّفات، اذ النّفس القابلة لتجلّي الصّور العلميّة بمنزلة المرآة القابلة لتجلّي الصّور الحسيّة والمرآة اذا تكدّرت بالرّين والغشاوة والرّيم، لم تقبل شيئاً ولايتصوّر فيها صورة أصلاً. وكذا النّفس اذا تلطّخت بأدناس الأخلاق الذّميمة وأرجاس الصّفات البهيميّة والسّبعيّة والشّيطنة، لم تقبل شيئاً من العلوم الحقّة، فلابدّ من تهذيبها وتطهيرها

أوّلاً ثمّ التعليم والتعلّم كما قال الله تبارك وتعالى: «ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب»[١] «الى آخره»؛ وتقول أيضاً: انّ العلم عبادة القلب وصلاة السرّ وقربة الباطن الى الله، فكما لا تصحّ الصّلاة الّتي هي وظيفة المكلّف وأسباب اقامتها الجوارح الظّاهريّة، إلاّ بتطهير ظاهرها عن الاحداث والأخباث، «فكذلك» لا تصحّ عبادة القلب وعمارة الباطن بالعلم إلاّ بعد طهارتهما عن خبائث الأخلاق وأنجاس الصّفات. وقوله «تعالى»: «إنّما المشركون نجس»[٢]، تنبيه للعقول، على انّ الطّهارة والنّجاسة غير مقصورة على الظّواهر، المدركة بالحسّ، بل هما أمران باطنيّان جوهريّان. وألا ترى بالعيان انّ المشرك قديكون نظيف الثّوب لطيف البدن حسن الصّورة ومقبول الظّاهر ولكنّه ملطّخ بالخباثة والنّجاسة عبارة عمّا يجتنب عنه و يتنفّر منه، ومطهّره كلمتا الشهادة.

اذا عرفت هذا فاعلم انّ خبائث الباطن اهمّ بالاجتناب، لأنّها مع خبثها في الحال مهلكات في المال ولذلك ترى في الأخبار انّه«ص» قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»[٣]؛ ولمّا كان قلب المؤمن هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم والصّفات الرّديّة من الغضب والشّهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرّياء وأمثالها كلاب نابحة وسباع ضارية، فان أدخل واستقرّ هذا الكلب في القلب، فانّى تدخله الملائكة، والعلم لايقذفه الله بالقلب إلاّ بواسطة الملائكة، كما قال الله تبارك وتعالى: «وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أويرسل رسولاً»[٤]؛ فمايرسل من رحمة العلوم الى القلوب إنّما يتولاّها الملائكة، الموكّلون بالعلوم وهم أجلّ قدراً وأصفى جوهراً من الملائكة الموكّلين بالأعمال.

فان قلت: إنّا نرى بعض العلماء ردي الأخلاق، متّصفاً برذائل الأوصاف، ومع ذلك مشحون بالعلم ومملوء من الفهم.

قلت: الى الآن كلامنا في العلم الحقيقي الرّبّاني النّافع في الآخرة، لا العلم

١. سورة آل عمران/١٦٤.
٢. سورة التوبة/٢٨.
٣. الجامع الصّغير: ج ٢ ص ٢٠٠.
٤. سورة الشورى/٥١.

الصّوري الّذي قدذكرناه، انّه صنعة من الصّنائع، فالّذي تظنّه علماً ليس بعلم، بل هو وبال في الآخرة، وليس كلامنا في العلم الّذي يحصل بقوّة المباحثة وكثرة المدارسة وحسن الجدال فافهم إن كنت من أهل الحال، ليس هذا إلاّ القيل والقِال، وانّ لهذه العلوم المشهورة، المتداولة عند الجمهور من باب الاعمال، لأنّها متعلّقة بها وثوابها ثواب الأعمال وأجرهم لايزيد على أجر الأعمال وليس عالمها صاحب الدّرجات عند ربّهم، بل العلم المحض المطلق، الّذي يترتّب عليه نيل رتبة العلماء من حيث كونهم علماء، هو علم الآخرة الّذي نحن بصدد ذكره وتوصيته، نعم يصدق عليه اسم الفقيه صاحب الولاية والسّياسات والقضاوة بين النّاس وهو اسم محمود في الشّرع، وعند النّاس ويجب عليهم حفظ غيبته وتوقيره وتبجيله حفظاً للنّوع وحماية للحمى لأنّه بأيّ نحو كان منسوباً الى الشّرع ومن خدّامه على الظّاهر واحترام الخادم احترام مخدومه.

ايقاظ

ومن أعاجيب زماننا هذا، انّ كبر العلم غلب على بعضهم بحيث انّ كلاً منهم يدّعى الأعلميّة من غيره، مع عدم اطّلاعه على حال غيره وعدم حضوره مجلس درسه، فكان كلّ واحد منهم يفرض غيره نائماً ونفسه ساعياً و يظنّ انّ الفضل كلّه له لا لغيره ولا عليه.

روى المجلسي عليه الرّحمة، عن اختصاص الصّدوق عن ابن المتوكّل عن عليّ عن أبيه عن البزنطي عن عبدالكريم بن عمرو عن أبي الرّبيع الشّامي عن أبي عبدالله عليه السّلام، قال: انّ عيسى بن مريم عليهما السلام قال: «داويت المرضى فشفيتهم بإذن الله وأبرأت الأكمه والأبرص بإذن الله وعالجت الموتى، فأحييتهم بإذن الله وعالجت الأحمق، فلم أقدر على اصلاحه، فقيل: ياروح الله وماالأحمق؟ قال: المعجب برأيه ونفسه الّذي يرى الفضل كلّه له، لاعليه و يوجب الحقّ كلّه لنفسه ولايوجب عليه حقّاً فذلك الأحمق لاحيلة في مداواته»[1].

١. الاختصاص - بتصحيح غفّاري -/٢٢١.

فظهر انَّ دعوى الفضل كلّه له لاعليه ولغيره حماقة لايداوى عليه ولوكان الطّبيب مثل روح الله «ع»، فلا تزكّوا أنفسكم انَّ الله يزكّي من يشاء.

أقول: يعني محال أن يكونوا علماء متعدّدين في عصر واحد كلّهم فضلاء، متساوين في العلم والزّهد والورع وجميع شرائط الإجتهاد، لاوالله، ليس بمحال فلوادّعى أحد محاليّته فقداعتسف وليس له انصاف، بل انَّه ليس هذا من التّدين بشيء بل عليهم الأختبار أوّلاً والإختيار ثانياً؛ بل نراهم انَّهم اذا اجتمعوا في مجلس لايتكلّمون إلاَّ بقصد الغلبة لحرصهم على اظهار الفضل، لاالإفادة والاستفادة ولاالاختبار حتى يظهر: هل هو مجتهد قابل للفتوى أم لا واذا سُئلوا عن شيء يتبخترون في الخطاب واذا أوردوا يعاتبون في الجواب. وليس من شيمة أولي الألباب، بل هو من تعاطي أفعال السُّفهاء والمغترّين، من التفوّق على الأقران والأمثال واظهار العداوة لمن لم يصدقهم أو يردّ عليهم أو يناظرهم ولوفي مسألة واحدة وربَّما تراهم يتهجّمون على من ينكرهم بالضَّرب، والشَّتم والإيذاء، إن كانت لهم قدرة أو بالتّفسيق والطّعن والإفتراء، إن لم تكن لهم قوة، وسائر مايصدر عنهم ممَّا يجري مجرى هٰذه الأمور وليس هذا كلّه إلاَّ السَّفاهة والغرور وهما من صفات أهل الجهل والشرور، كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام على مارواه في الكافي: «لايكون السَّفه والعزَّة في قلب العالِم»[1].

وفسّر السَّفه بالجهل في قوله إنَّما البغي من سفه الحقّ، أي من جهله، بل أقول: انَّ الجهل ليس معنى حقيقيّاً له بل هو لازمه والعزّة هي الغفلة عن لوازم الشَّيء وقلّة الشرّ الّذي تحته.

والحاصل انَّ الكبر من العالم أقبح من غيره، بل لابدَّ لهم من التّواضع والخضوع ولين الجانب وخفض الحال ورقّة القلب وسائر ماهو من هذا القبيل ممَّا له مدخليّة في الرّفق ولطافة النَّفس وصفائها مع عباد الله والسَّائلين عن الاشكالات الواقعة في أذهان من لايقدر الخروج عن عهدتها، فانَّ العلم الحقيقي كمال عقلي لايحصل للإنسان إلاَّ بحدث وفطرة ثانية ونشأة أخرى له غير الفطرة الأولى، المشتركة بين

١. أصول الكافي: ج١ ص٣٦.

النّاس كلّهم ولايمكن الترقّي من نشأة الى نشأة أخرى إلاّ باستحالات وتبدّلات من شأن الى شأن، موجبة لهدم الأولى وزوالها واحكام الثّانية و بقائها، فالتّفاخر بالعلم اعظم الآفات وأشدّ الوجعات، لأنّ قدر العلم عظيم عند الله وعند الخلائق وهو مع ذلك مشتبه به الجهل، ولذا قيل: «إذا زلّ العالِم زلّ بزلّته العالَم»[1]، فينبغي للعالم أن لايستعظم نفسه بالنسبة الى غيره، فان خطر العلم أكثر من خطر الجهل وحجّة الله على أهل العلم أوكد وانّه «تعالى»، يتحمّل من الجاهل مالايتحمّل عُشره من العالم، وانّه من عصى الله عن معرفة وعلم، فجنايته أفحش، ألا ترى انّه إن صدر عن عسكر سوء أدب بالنّسبة الى السّلطان لايؤاخذه مؤاخذة مايصدر عن الوزير وهذا هو معنى: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، فظهر انّ حقّ العالم أن لايتكبّر على أحد، بل ان نظر الى جاهل قال: انّه عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم ومعرفة فهو أقرب منّي الى العذر عند الله، فان نظر الى عالم هو أعلم منه فيقول: انّه يعلم مالاأعلم فكيف أكون مثله واذا نظر الى كبير أكبر منه يقول: انّه أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله واذا نظر الى صغير يقول: انّي عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وإن نظر الى مثله في العلم والمرتبة يقول: انّي عالم بحالي علماً قطعيّاً، لأنّ الإنسان على نفسه لبصير وليس لي علم بأحواله لعلّه أفضل عند الله منّي، واذا نظر الى مبتدع أو فاسق أو كافر قال: ماأدري لعلّه يختم له بالخير والاسلام وحسن العاقبة ويختم لي بماهو عليه.

فبتلك الملاحظات يقدر على دفع الكبر عن نفسه و يتصوّر انّ الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لافيما يظهر في الدّنيا ممّا لابقاء له من ازدحام النّاس عليه وتقبيل يديه وجبهته وتعظيمه والقيام في مجلسه والعقود باذنه ورتق الأمور المهمّة وفتقها بيده وتواضعهم له، بل التّواضع لابدّ أن يكون منه الى النّاس كما فعله عيسى بن مريم «ع» للحواريّين، كما في الكافي انّه قال عيسى بن مريم: «يامعشر الحواريّين لي إليكم حاجة أقضوها لي قالوا: قضيت حاجتك ياروح الله، فقام وغسل أقدامهم فقالوا: كنّا نحن أحقّ بهذا ياروح الله فقال: انّ أحقّ النّاس بالخدمة العالم إنّما تواضعت هكذا ليكما تتواضعوا بعدي في النّاس

١. وفي هذا المعنى: زلة العالم تفسد عوالم: غرر الحكم الحديث «٥٤٧٢» المجلّد الرّابع/١٠٤ طبعة الجامعة طهران.

كتواضعي لكم ثمّ قال عيسى «ع»: بالتّواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر، وكذلك في السّهل ينبت الزّرع لا في الجبل»[١] فإنّ عيسى «ع» مع انّه من الأنبياء والمرسلين وروح الله في الخلق أجمعين، صنع ما صنع لمن دونه وهم تابعوه، المقتبسون عن مشكاة نوره وهذا غاية التّذلل والتّواضع منه مع علمه ورفعته وجلالة شأنه وشرافة مرتبته وقال في جوابهم: انّ أحقّ النّاس بالخدمة هو العالم، وهذا ارشاد منه «ع» بعده حيث قال: «إنّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في النّاس كتواضعي لكم»، بخلاف بعض علماء زماننا فانّهم بمجرّد مشاهدة المريد يشمّر ساعده و يعدّ نفسه الى رفع يده المباركة الى شفتي المريد العوام كالأنعام و يتفاخر بذلك على من لديه من الجماعة سيّما اذا كان من معاصريه خصوصاً إذا كان من أهل الثّروة والجاه ـ نعوذ بالله ـ مع انّه لم نجد دليلاً على استحباب تقبيل اليد.

نعم تقبيل النّاصية كان متعارفاً في زمانهم عليهم السلام اللهم إلاّ أن يكون داخلاً في عمومات تعظيم شعائر الله وهو أوّل الكلام، فكما انّ بالتّواضع تعمّر الحكمة، فبالكبر تخرب الحكمة.

فظهر انّ التكبّر من العالِم، أقبح من غيره، بل عذابه أشدّ يوم القيمة من سائر النّاس كما في الأخبار الكثيرة المتواترة، حتى إنّ عيسى بن مريم «ع» قال: «يؤتى بالعالِم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتابه كما يدور الحمار بالرّحا فيطيف به أهل النّار فيقولون مالك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشرّ وآتيه»[٢]. وقد مثل الله «تعالى»، للعالم الّذي لا يعمل بعلمه ولا يطابق ظاهره باطنه ولسانه قلبه تارة بالحمار: «مثل الّذين حمّلوا التّوريٰة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[٣]؛ وإن كان هذا في حقّ علماء اليهود ولكنّه من باب المثال.

وتارة بالكلب: «واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان ـ الى قوله ـ

١. أصول الكافي: ج١ ص٣٧.
٢. الترغيب والترهيب ج١ ص١٢٤، كتاب العلم «مع اختلاف في اللّفظ»، منية المريد/٥٥.
٣. سورة الجمعة/٤.

فمثله كمثل الكلب»[١]؛ وإن أراد به بلعم بن باعورا، ولكن لايتفاوت بعد وجود العلّة في غيره أيضاً. بل الآية بعمومها تشمل كلّ من أوتي الآيات فانسلخ منها، فالمورد لايكون مخصّصاً وقدذكرنا مراراً: انَّ العالم وإن كان قدره أعظم وأرفع من قدر الجاهل، لكن خطره أعظم من خطره وانَّ الجاهل أقرب الى السَّلامة من العالم، لكثرة آفاته وعظم أخطاره، كما انَّه لونجا يوم القيمة وخلص عن الآفات، كان بعلمه أعظم من تعليم الجاهل ودرجاته أرفع بمراتب من درجة الجاهل، لكنَّه غير معلوم في حقّ بعض علماء زماننا هذا، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجاهل و يغبط حاله و يودانَّه لم يكن عالماً في الدّنيا.

فالعالم لوكان حقيقيّاً ربّانيّاً فهو مستغرق في شهود الحقّ غافل عن نفسه وعن علمه وعن عرفانه، والتكبّر على الغير فرع على الإلتفات بالنَّفس وكمالها والعارف بالحقّ، المحبّ له لايعرف ولايحبّ غيره وإن كان ذلك الغير نفسه أوعرفانه، وإن لم يكن عالماً حقيقيّاً فليتفكّر في خطر العاقبة، بل لونظر الى الكافر لم يمكنه أن يتكبّر عليه، اذ يمكن أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان وحسن العاقبة و يضلّ هذا العالم ويختم له بالكفر وسوء العاقبة؛ بل لعلّه ممقوت عند الله، معذَّب في الآخرة، «أليس في جهنَّم مثوىً للمتكبّرين»[٢]؛ بل الكلب والخنزير من جهة عدم دخولهما النَّار، أحسن يوم القيمة ممَّن يدخل النَّار، الّتي تطّلع على الأفئدة سيَّما ممَّن يكون عذابه مضاعفاً عن سائر النَّاس، نعوذ بالله.

ربّ عار على من يدخل النَّاس بهدايته في الجنَّة وهو بنفسه يدخل النَّار لكبره، كالشَّمع الّذي يحترق بنفسه و يستضيء الغير بنوره. رب شناعة ان يكون الجاهل يوم القيمة ناجياً والعالم فاسقاً فاجراً معذّباً. وربّ فضاحة أن يكون العالم ممقوتاً من الله ومطروداً عن رحمة الله والجاهل مرحوماً ومحبوباً.

وليعلم انَّ الكبرياء والعظمة مختصّتان بذاته تبارك وتعالى، لأنَّه الوجود الّذي

١. سورة الأعراف/١٧٥.
٢. سورة الزمر/٦٠.

يصدر عنه كلّ موجود وجميع الموجودات غيره ناقصة بعضها من جهات و بعضها من جهة، فكلّ من يفرض له جهة كمال يوجد فيه ألف جهة نقصان فبمجرّد العلم، الغير المحيط لجميع الأشياء، بل بجميع العلوم المتداولة في الزّمان، مع انّ استاذ الكلّ في الكلّ كون غير نبيّنا وأئمتنا صلوات الله عليهم أجمعين متعذر، بل قريب من المحال، بل فوق كل ذي علم عليم.

فلاينبغي التبختر والتّكبّر لغيره تعالى. والمستحق للكبرياء والعظمة ليس إلاّ هو كما دلّ عليه المنقول والمعقول: وامّا المنقول، فقوله تعالى: «الكبير المتعال»[1]؛ والألف واللاّم هاهنا تفيد حصر الكبرياء والعلوّ فيه؛ وامّا المعقول فلأنّه تعالى لمّا استحقّ بهذا الإعتبار لذاته لابأمر خارج بخلاف جميع ماسواه، فعلمنا انّه قداختار الاختصاص بهما لنفسه دون خلقه ولهذا ذمّ المتكبّرين ووعدهم في كتابه العزيز بالنّار، فانّها مثوى المتكبرين و بئس القرار، حيث أخبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله، حكاية عنه «تعالى»: «الكبرياء ردائي والعظمة ازاري؛ وجعل اللّعنة على من نازعه فيهما»[2]، كما في الخبر المذكور: «فمن نازعني فيهما ألقيته في جهنّم»؛ وفي رواية قصمت ظهره.

ولاشك انّ الملقى في جهنّم أو المقصوم ظهره، مبعّد مطرود عن باب رحمته وكرمه، وفي استعارة لفظي اللّبس والرّداء، اشارة الى احاطة كماله وشمول شرفه لتمام جهات العظمة والكبرياء؛ لأنّ كلّ صفة من صفاته ثابتة له، من جميع جهاته وحيثيّاته أو اشارة الى اختصاصهما به دون من سواه، فانّ لباس كلّ أحد من الرّداء والإزار يكون مختصّاً به ولاشركة فيهما لغيره، بل أقول: انّ ارادة العلوّ في الأرض، أيضاً مانع عن دخول الجنّة، كما نصّ عليه القرآن حيث قال تعالى شأنه: «تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين»[3].

انّه تعالى لم يعلّق الوعد بترك العلوّ والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب إليهما. وروي عن عليّ عليه السلام، انّه قال: «انّ الرّجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من

١. سورة الرعد/٩.
٢. كنز العمّال: ج٣ ص٥٢٧ ومن طريق الخاصّة، أصول الكافي: ج٢ ص٣٠٩.
٣. سورة القصص/٨٣.

شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها».

قال: صاحب الكشّاف: ومن الطمّاع من يجعل العلوّ لفرعون لقوله: «إنّ فرعون علا في الأرض»[١]؛ والفساد لقارون لقوله: «ولا تبغ الفساد في الأرض»، و يقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدّار الآخرة[٢]؛ ولايتدبّر قوله: «والعاقبة للمتّقين»، كماتدبّره عليّ بن أبي طالب عليه السّلام.

ايقاظ

فلمّا انجرّ الكلام الى ذمّ الكبر، فلابأس أن نشير الى بعض أسبابه:

منها النّسب فمن تكبّر من جهته، فليعالج قلبه بأمرين:

أحدهما: انّ هذا جهل من حيث التعزّز بكمال غيره ولذا قيل:

«شعر»:

إن افتخرت بآباء ذوي شرف ... قلنا صدقت ولكن بئس ماولدوا

فالمتكبّر بالنّسب، إن كان خسيساً في صفات نفسه فمن أين يجبر خسّته بكمال غيره، بل الكمال والفضل لغيره فمثله كدودة حاصلة من التّفاح والسّفرجل، فأيّ حسن لها لحسن مخرجه.

وثانيهما تصوّر نسبه الحقيقي من أبيه وجدّه فأبواه القريب نطفة قذرة يتنفّر الطّبع من رؤيتها ورائحتها وجدّه البعيد طين مشترك فيه جميع النّاس كما قال تعالى: «وبدأ خلق الإنسان من طين * ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين»[٣].

فمن كان أصله هذا ومحلّ خروجه مجرى البول مرّتين ومقرّه الى مدّة في ظلمتين

١. سورة القصص/٤.
٢. الكشّاف ج٣/٤٣٥.
٣. سورة السّجدة/٨.

وحالاته معلومة وغذاؤه دم الحيض النَّجس المنتن ومدَّة تربيته متلطِّخاً بالقاذورات وتمام عمره حامل النَّجاسات، رأسه مقرّ الكسافات من الدّم والأخلاط وصدره محلّ بلغم ينفّر الطبع بعد خروجه، و يوذيه مالم يخرج، ويخجل من النَّاس عند السعال، وأُذنه مشحون بوسخ منفرٍ للطبع خبيث مرٍّ، إذا زاد أكلُه، خرج مافي بطنه قبل التَّحليل بالقيء يغمض هو بنفسه عينيه حتَّى لايراه، وتحت جلده مملوء بدم نجس واذا أدمل جسده، يطلع عنه ريم لا تميل النَّفس الى رؤيته واذا مات ينبعث من لحمه دود، نعوذ بالله من نتنه وصورته، فلم يبق فيه من هذه الجهة سبب للتكبّر والتبختر أصلاً، ومن تأمَّل هذا ينكس رأسه من خجله، مثله، كشخص مشهور ومعروف انَّه هاشمي النَّسب وهو مفتخر بذلك مدَّة، فمضى زمن أخبر المخبرون، العادلون، الصَّادقون بأنَّ هذا الرَّجل ابن هنديّ حجَّام، أوكنَّاس أو نحَّاس، بائع القاذورات أو بيطار الحيوانات؛ فترى بعد كشف وجه التّلبّس مايبقى من كبره وتبختره شيء، بل يصير عند نفسه أحقر النَّاس وأرذلهم، فضلاً عن الخلق وهكذا البصير اذا تفكَّر في أصله.

ومنها الجمال: فانَّ التَّكبّر به أوَّلاً: ملاحظة زواله بعد مدَّة قليلة قبل نبت الشَّعر في لحيته و بعده أيضاً، ملاحظة انَّه صفاء في ظاهر البدن وتناسب الأشكال بعضها مع بعض وهو أيضاً يزول عند الهرم.

وثانياً لونظر المتكبّر به الى باطنه بنظر العقل لاالبهائم، لرأى من الفضائح المذكورة آنفاً مايكدّر عليه تعزّزه بجماله من امتلاء جميع أعضائه من الأقذار المختلفة مثلاً الرّجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبصاق في فمه والوسخ في أذنيه والدّم في عروقه والصَّديد تحت بشرته والصَّنان تحت أبطيه، أفلايغسل كلّ يوم بيده الغائط مرَّتين و يتردّد الى الكنيف دفعتين ويخرج من بطنه مالو رآه استقذره، فضلاً عن أن يمسّه؛ مضافاً الى ماذكرناه من بداية خلقته ومايؤدّى إليه في نهاية أمره من الجيفة القبيحة ومن عرف نفسه، هكذا، هل يفتخر بجماله الّذي هو كخضراء الدّمن؟

ومنها: القوّة فانَّه لوتصوّر نفسه بماهو مسلّط عليه من العلل والأمراض، لمايبقى له سبب كبر من هذه الجهة أيضاً؛ فانَّه لووجع عرق من عروقه أو عصب من أعصابه،

لصار أعجز من كلّ عاجز وأذلّ من كلّ ذليل، فيحتاج في قيامه وقعوده الى شخص آخر أو يعود ضعيف الجثّة بقدر ابهامه حجماً ورجله طولاً، ولووجع بطنه وانسدّ مخرجه، لاحتاج الى محقنة يدخلها الغير في دبره وإن صارت القوّة «حينئذ»: «**وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطّالب والمطلوب**»[١]، و يعجز في اللّيالي من البرغوث الّذي لايكون مقدار ألف ألف جزء من جسده فلودخلت بعوضة في أنفه أو نملة في أذنه، لقتله فمن لايقدر أن يدفع عن نفسه شيئاً، ممّا ذكر فبأيّ فخر يفتخر مع انّ الفيل والجمل والفرس والحمار أقوى منه.

ومنها: الغنى وكثرة المال وليس هذا كلّه إلاّ في معرض الزّوال، فربّ شخص يمسي غنيّاً و يصبح فقيراً وربّ فقير يكون بعكسه، وهذا غنيّ عن البيان فلوكانت العزّة والتبختر بالثّروة، لماقال عليّ عليه السلام: «**إن دنياكم هذه أحقر عندي من عظم خنزير في يد مجذوم**»[٢].

وفي زماننا هذا بل في كلّ زمان هذا هو العمدة في أسباب الكبر والفخر؛ بل هذا هو سبب الطّغيان في العالم: «**إن الإنسان ليطغى أن رآه آستغنى**»[٣]؛ بل ربّما يدّعي الرّبوبيّة و يقول «**أنا ربّكم الأعلى**» فلانطيل الكلام فيه ولذمّ الدّنيا محلّ آخر.

ومنها: كثرة الأتباع والأنصار وولاية السّلاطين وقربهم والتّمكّن من جهتهم والتّكبر بهذين السّببين، أقبح أنواع التّكبّر وأردئها؛ لأنّهما خارجان عن ذات الإنسان وصفاته وليسا كالجمال والقوّة والعلم والعمل، فلوفرض زوالهم أو اعراضهم عنه، فأيّ شيء يبقى؟ مثلاً اذا كان أتباعه من جهة إمامته يصلّون خلفه، و يأتمّون به فبمجرّد احساس فسق منه يتفرّقون من حوله وإن كان واعظاً يجتمعون في مجلسه، لأجل أخذ المسائل الشّرعيّة أو المواعظ أو استماع القصص الغريبة والحكايات العجيبة، أو لأجل حلّ بعض المشكلات والمعضلات عن الأخبار والآيات أو لغرض آخر، كما هو دأب بعض الحاضرين في مجالس الوعظ في زماننا هذا، فاذا علموا انّه

١. سورة الحجّ/٧٣.
٢. بحار الأنوار: ج ٤٠ ص٣٣٧، نهج البلاغة، حكم: ٢٣٦.
٣. سورة العلق/٦،٧.

لايعمل بمايقول بنفسه، لم يحضروا عنده والمتكبّر بولاية السّلاطين وتمكينهم له وإخلاص أرباب المناصب والأعيان، له أيضاً، كما صار في زماننا هذا من أسباب التّحصيل تماماً أو بعضاً لحفظ قراه وأملاكه عن تعدّيات الغير، فتراه كلّ يوم مشغولاً برقم الذّريعة وكتب الرّقعة الى حضرات الملوك والأعيان، فان قضيت حاجته فبها وإلاّ فجناب الشّيخ لابدَّ من أخذ عصاً بيده واسدال الحنك على صدره والخدّام قدّامه والمردة عقبه، مع عرض اللحيّة يحضر مجلسهم و يقعد عندهم، فان توجّه الى الشّيخ سلّمه الله أوّلاً وأعرض عن غيره، فيتفاخر بأنَّ الوالي مخلص له وعبد له وإن كان مشغولاً بأمر الرّئاسة من الحكم وإجراء القواعد، فلابدَّ للشّيخ من تصديقه فيما يحكم و يأمر ولمّا كانت طبائعهم أميل الى الدّنيا فصدورهم وقلوبهم أشدّ غلياناً من القدر «فحينئذ» لوقبل كلام الشيخ يمنّه تمام المنّة، وإن لم يقبل بل تغيّر عليه، كان الشّيخ أذلّ الخلق عنده، فان احترمه وعظّمه في الظّاهر لخاطر العمامة والحنك ولكن يقلع بنيانه في الباطن.

فهذا كلّه عين الرّكون الى الظّلمة وهو منهيّ عنه بصريح القرآن ففي هذا النّوع من التّكبّر معاصي عديدة؛ التّكبّر وتصديق الكاذب والرّكون الى الظّالم والمشاركة معهم في الظّلم على الرّعيّة وغير ذلك فكلّ متكبّر بأمر خارج عن ذاته عين الجهالة، لأنَّ ماذكرنا كلّه ناشيء عن احتياجه الى ماذكر، فلولا الخلق والأتباع والسّلاطين فبأيّ شيء يتفاخر، ففي تكبّره هذا محتاج الى أسباب الكبر، والإحتياج أردء الصّفات فكيف التّكبّر بالغنا والثّروة مثلاً فانَّ هذا مشترك بينه و بين اليهود والنّصارى، بل هؤلاء أسبق وكيف يتفاخر الإنسان بمالٍ لويأخذه السّارق في اللّيل، يصبح فقيراً بلحظة واحدة و يكون ذليلاً عند النّاس، مفلساً في أمان الله ولوأخذه قطّاع الطّريق مثلاً في البادية حتّى اللّباس، فيكون محتاجاً لساتر يستر عورته، وهكذا، ولوفرض كون الثّروة من الحرام فنعوذ بالله منها، لأنّها عين وزر وو بال ومحض خيبةونكال،خسر الدّنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وهذا غاية الجهل وعدم الفهم.

ومنها: التّكبُّر بالورع والتّقوى والعبادة وهذا بعينه موبقة كبيرةوعذاب أليم وهو بمنزلة ماء يغسل العبادات عن صفحة الأعمال بالمرّة، فأيّ شيء يبقى بعد حتّى

شديد يمتنع علاجه، فيكون صاحبه من الهالكين. فهل يتصوّر أن يتبختر الهالك لدى النّاجي ممّا ورد في الآيات والأخبار من مدح العابد والزّاهد لايشمله، لأنَّ المتكبّر لايصدق عليه العابد لأنَّ عبادته ليست خالصة لوجه الله، بل للنّاس، فليس له أجر إلاّ على النّاس، لأنَّ أُجرة العمل لمن عملته له، فان كنت أجيراً لشخص فاجرتك عليه لاعلى غيره؛ فان كان كبره على الجهّال فهو أيضاً أحدهم وإن كان على العلماء فالعلماء مراتبهم ودرجاتهم أعلى منه بمراتب، فلازم التّكبّر على الورع، النّظر بعين الحقارة لعباد الله أو العلماء وذلك عين المعصية.

وكيف كان، لاينبغي للعابد التّكبّر على العالم، لأنَّ الآيات والأخبار تدلاّن على فضل العالم على العابد من جميع المراتب: فمن الآيات اجمالاً قوله «تعالى»: «هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون»[١].

ومن الأخبار قوله صلّى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»[٢].

فان قال العابد انَّ هذا العالِم فاجر مثلاً وأنا عابد عادل فنقول له: أما علمت: «إنَّ الحسنات يذهبن السّيّئات»[٣]، فكما انَّ العلم يمكن أن يكون حجّة على العالم يوم القيامة يمكن أن يكون وسيلة لنجاته وكفّارة لسيّئاته أيضاً.

و يشهد على ذلك الأخبار، فاذا كان هذا أمراً غائباً عنه، فلم يجز له أن ينظر بعين الاحتقار الى العالم، بل وجب عليه أن يخدمه و يتواضع له، لأنَّ عبادته هذا من بركات العلم والعالم حامله ولاينبغي أيضاً للعابد التّكبّر على غير العابد، لأنَّه يمكن أن يكون عمل واحد منه محبوباً عند الله وإن كانت له ذنوب كثيرة فيغفر له يوم القيامة كصفة سخاوة مثلاً في غيره والعابد بخيل، وأيضاً يحتمل أن تكون طاعات الغير مستورة عن الأنظار، وعمل العابد مكشوف عند النّاس ولاريب انَّ عبادة السر أفضل من العَلن، ولعلَّ طاعات غير العابد من طاعات القلب، من حبّ الله واخلاصه والخوف

١. سورة الزمر/٩.
٢. مجمع البيان، ج٩/٢٥٣.
٣. هود/١١٤.

يتفاخر به بعد ماعلم انَّه في الواقع ليس له عمل وهذا ناشيء من العجب وهو مرض سيّئاته الظَّاهرة واذا انكشف الغطاء يوم القيامة فيرى العابد نفسه فاسقاً والفاسق عابداً واذا تفكّر العابد العارف في هذا الخطر، يكون شاغلاً عنه عن التكبّر.

فبأمثال ماذكرناه يمكن علاج هذا المرض المهلك في الآخرة فلوافتخر العابد في جزئيّات أعماله مثلاً لكثرة صلواته، فانَّ المستأجرين في هذا الزَّمان يصلّون صلوٰة سنة عن الميّت أعلى مرتبتها ثلاثون قراناً [١] وأدناه خمسة عشر، فتكون قيمة الصلاة الخمس اليوميّة شاهياً أو شاهيين [٢]؛ بل أنقص منه بمراتب. وإن افتخر بصومه فالعجائز المؤمنات المخدرات، المستأجرات لصوم الميّت يصمن كلّ شهر بخمسة قرانات ، فتكون قيمة امساك يوم العابد في الدّنيا ثلاث شاهيات أو أزيد.

وامَّا التكبّر ببعض الأعمال، مثل الحجّ والزِّيارات فان نوّاب طريق الحجّ وأكاكيمه وكذا أباعير أهل الشَّام والجبل، يحضرون الحجّ عشرين مرَّة بل أزيد وهكذا سائر الدَّواب من الفرس والبغل والحمار.

ومنها الهيكل والشَّجاعة فالتَّفاخر به ناشيء عن عدم الفرق بينه و بين السّبع من الأسد والخرس [٣] والكلاب، والبعير والفيل أكبر منه طولاً وعرضاً، وهيكلاً.

ولوكان المراد من الشَّجاعة أمراً قلبيّاً يعمل به في الحروب والمعارك والجدال؛ فعليّ عليه السَّلام، كان أشجع عباد الله طرّاً فلم يتكبّر آناً مَّا لشجاعته. وغزواته مشهورة ومعروفة، ومع ذلك يمكن أن يكون مايتخيّله شجاعةً تهوّراً وهو من الشَّيطان.

وإن قلت: هو عدم الخوف والهراس [٤] عن الخصم.

قلت: المجنون لايخاف من أحد أصلاً والصَّبيّ لايبالي من شيء أبداً مع انَّه من قساوة القلب وعدم الخوف من الموت والقتل وعدم الخشية من الله تبارك و«تعالىٰ».

وقال بعض أولي الألباب: «خف أنت ممَّن لايخاف الله».

١و٢. هذه القيمه في زمان المؤلف، فهي بعنوان المثال (الشاهي والقِران: العملة المتداولة آنذاك).

٣. الخِرس: كلمة فارسية بمعنى: الدُبّ.

٤. الهراس: كلمة فارسية بمعنى: الخوف.

منه والتّعظيم له وأنبيائه ورسله وأوليائه والملائكة، والعابد خال عنه وقد كفّر ذلك والخشية صفة يمدح الله العلماء بها، حيث قال: «إنّما يخشى اللة من عباده العلماءُ»[١]؛ ومع ذلك كلّه فأيّ منفعة في الشّجاعة في زماننا هذا قبال الأدوات النّاريّة الموجودة، فان صبيّاً يقتل بلحظة واحدة أيّ شجاع يتصوّر فلايبقى وجه للتكبّر بتلك الصّفة أيضاً؛ فان تكبّر في شجاعته في الأكل فان الثّور أكثر أكلاً منه وفي الشّرب فالبعير أكثر شرباً.

وإن كانت شجاعته في المصارعة فالدّيك أحلى منه والهرّين والكلبين أشدّ منه. وإن كانت شجاعته في الوقاع فليس وقاع أحلى من الحمام نوعاً وأكثر من العُصفور عدداً ومن البعير زحمة ومن الكلاب طولاً ومن الحمار صولة ومن الغراب خفية ومن اللّقلق حركة ومن الإنسان قبحاً، بعد التصوّر الكامل؛ وهذه الصّفات كلّها ناشئة عن قوّة الشّهوة وهي في الحيوانات أقوى وأشدّ. وإن كان هذا الشّجاع من سلسلة العلماء وتكبّر في شجاعته عند المباحثة والجدال ووقت الصّحبة العلميّة مع القيل والقال، فليعلم أوّلاً: انّه منهيّ عنه بصريح الأخبار كما سيذكر. وثانياً: انّ آفات المناظرة ومايتولّد منها من مهلكات الأخلاق ومرديات الذّنوب والسّيّئات كثيرة، على مايستفاد من الآيات والأخبار وكلمات الأصحاب؛ فانّ المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة واظهار الفضل وقصد المباهات، منبت النّفاق ومنبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله.

قال بعض المحقّقين: انّ نسبتها الى الفواحش الباطنة من الكبر والحسد والعجب والإفتخار وتزكية النّفس وحبّ الجاه وغيرها، نسبة الخمر الى الفواحش الظّاهرة، من الزّنا والقتل والسّرقة وغيرها؛ وكما انّ الّذي خيّر بين شرب الخمر وسائر الفواحش، استصغر الشّرب فاقدم عليه فدعاه ذلك الى ارتكاب بقيّة الفواحش في عالم سكره، كما روي في بعض الكتب الفارسيّة من قضيّة العابد المعروف برصيصا ظاهراً؛ «فكذلك» من غلب عليه حبّ الاقحام والغلبة في المناظرة وطلب العلوّ والجاه، دعاه ذلك الى اضمار الخبائث كلّها في النّفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة، كما هو

١. سورة فاطر/٢٨.

المحسوس عن بعض العلماء في زماننا، بخلاف دأب الصّالحين الماضين من العلماء الرّاشدين، فانّي قدحكيت: انّ البهائي عليه الرّحمة حضر في ايّام سياحته مجلس درس المقدّس الأردبيلي «ره»، وأورد عليه إيرادات متعددة، فلم يجبه الأردبيلي «ره» في المجلس، فلمّا فرغ من التّدريس أخذ بيد البهائي «ره» وأخرجه الى الوادي فقعدا في مكان خال من الجماعة، فسأله عن ايراداته واحداً بعد واحد وأجابها وردّها فقال البهائي: ياشيخ لِمَ لم تجبني في مجلس البحث؟ فقال: مخافة وقوع الكبر في نفسي عند التّلامذة.

فليأخذ علماؤنا من هذه الوتيرة رائحة لامحالة، فترى تمام أهل المجلس يشدّون الرّحال على المورد الفقير وهو متحيّر كأستاذهم في جوابهم، خصوصاً اذا كانوا من أهل بلد واحد فنعوذ بالله، سيّما اذا كان في المجلس، أحد من أهل الثّروة والأكابر.

والحاصل: روي في الكافي عن عليّ بن ابراهيم عن محمّدبن عيسى عن يونس عن حمّاد عن عبدالله بن سنان عن أبي الجارود قال: قال أبوجعفر عليه السّلام: «اذا حدّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله»[١]؛ ثم قال في بعض حديثه: «انّ رسول الله «ص» نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السّؤال، فقيل: يابن رسول الله أين هذا من كتاب الله، قال: انّ الله عزّ وجلّ يقول: «لاخير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين النّاس» ؛ وقال: «ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم الّتي جعل الله لكم قياماً» ؛ وقال: «لا تسألوا عن أشياء إنْ تبد لكم تسؤكم»[٢].

وفي قوله «ع»: «فأسألوني من كتاب الله»، يعني عن دليل مايحدّثكم اشارة الى بطلان الدّليل، الغير الوارد في كتاب الله من قياس واستحسان؛ بل من اجماع وشهرة أيضاً؛ فدخل مادخل وخرج الباقي؛ فدليل كون القيل والقال منهيّاً عنه هو قوله «تعالى»: «لاخير في كثير من نجواهم «الى أخره»»[٣]، بناءعلى كون النّجوى مطلق المخاطبة والحديث لا في السّرّ فقط، كما في المجمع والنّجيّ: المناجي والمخاطب للإنسان والمحدّث له. انتهى.

١. أصول الكافي: ج١ ص٦٠.
٢. أصول الكافي: ج١ ص٦٠.
٣. سورة النساء/١١٤.

والآية الثّانية صريحة في النّهي عن فساد المال، لأنَّ المال إنّما خلقه الله وأعطاه لأجل أن يصرف في منافع الخلق وسدّ حاجاتهم و يبذل في وجوه الخيرات وأبواب البرّ والإحسان، فمن أضاعه وأسرفه في غير محلّه، كان كمن ضادّ الحقّ ولم يسمع كلام الله وعاداه وهذا هو المنهى عنه شرعاً وقبيح عقلاً، ونتيجة المطلب هو انّه، من علم انَّ عمره قصير وعيشه يسير وانَّ وراءه من يحاسبه على الصغير والكبير والظّاهر والمستور فيكفيه من الزّاد بقدر السّفر والحضر ومن الرّاحلة مايقطع به المسير ومن الدّار بقدر ماينتفع به في الصّيف والشّتاء وكذا من اللّباس مايدفع به ضرر الحرّ والبرد.

والآية الثّالثة صريحة في النّهي من أشياء لوظهر للسّائل وجهها، ليسوئها وهو يحصل بكثرة السّؤال خصوصاً من العوام الجُهال ومن لم يبلغ فهمه الى درك الحقيقة، فهي أفسد شيء لدينهم وعقلهم، بل أقول: انَّ بعض المطالب يحرم القاؤها الى العوام وذكرها عندهم، فربّما لايعرفون الحقّ من الباطل ولايدركون كنه الكلام، فيضلّون ضلالاً بعيداً، كما في زماننا هذا، فانَّ دأب بعض الواعظين من جهة اظهار افاداته أن يتكلّم على الأعواد عن المطالب الكلاميّة والمزايا الحكميّة ولم يدر انَّ السّامعين الّذين لايعرفون الهِرَّ من البرّ، لايدركون ولايفهمون عن تمام كلماته إلاَّ الصّوت واذا تفرّقوا عن مجلسه يحكي بعضهم على بعض آخر: بأنَّ جناب الشّيخ يحكي عن العالم العلوي وهو مفيد عجيب فلابدَّ من الحضور عنده حتّى يزيد لنا الكمال، فترى العوام كالهوام قدضلُّوا عن طريقة الشّريعة، بل الواجب التكلّم بقدر عقولهم و وعظهم بمقدار فهمهم، قال صلوات الله وسلامه عليه: «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم»[1]؛ وقال: «ملعون من ألقى كلّه على النّاس»[2].

والكلّ هو الثّقل؛ وفيه احتمالات: منها ثقل الكلمات الّتي لايفهم معانيها عوام النّاس ويحملونها على بعض الجهات، فعند ذلك صاروا امّا ذهبيّاً أو شيخيّاً أو دهريّاً أو عارفاً لمعارف غير معروفة، أو خانيّاً نكرة غير موصوف؛ لأنَّ الّذي لايفهم المنقولات كيف يفهم المعقولات، مثلاً: اذا أفاد العالم انَّ الواحد لايصدر عنه إلاَّ الواحد، و بنى

١. بحارالأنوار،ج ٦٩/٢.
٢. وسائل الشيعةج ١٨/١٢.

على تفسيره، فالعوام المغيّر الرّأس أيّ شيء يفهم من بياناته؟ وأيّ نقد يحطّ في كيسه؟ غير الكلمات للنّكرة الموصوفة تارة بالمفعول الأوّل وأخرى بالفاعل والمنفعل وثالثة بالفعل والإنفعال ورابعة باللاّهوت والنّاسوت والملكوت؛ ولعمري هذه الكلمات كلّها شبكة تزوير وآلة لجذب قلوب العوام اليه؛ بل قائله في المنبر مضلّ عباد الله عن جادّة الحقّ؛ قال الله تعالى: «وماأرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه»[١].

وهذه الكلمات ليست بلسان القوم الّذي أرسل الله الأنبياء به، سيّما العجم خصوصاً طائفتنا التّرك، فغاية ماينفعهم افهامهم الحلال والحرام والواجبات الموظّفة في شرع نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله، ولهذا خربت البلاد وارتفع السّواد؛ وأقسم بالله العظيم انّ المتكلّم بتلك الكلمات على المنابر لايفهمها بنفسه، فضلاً عن السّامعين كالأنعام؛ وقدسمعت انّ واحداً منهم في بلاد العجم يصعد الأعواد و يقول بعض المزخرفات، الّتي ليس لها مفاد وترجمته بالعربية: هذا أيّها النّاس، أريد اليوم أكشف السترعن وجه المقصود وأفكّ الصّندوق وأصبّ القطن و بعد يقول على سبيل التّعجّب: الله أكبر أخاف من الأعياز والإنكسار الاعتبار، لعدم استعدادكم بعد الى ادراك مطالبي «وهكذا سائر المزخرفات».

أقول بقول العرب: يامقرود أي صندوق الى الآن لم ينفكّ! وأي ستر الى الآن لم ينكشف! وأيّ قطن لم يندف! وهل بقي من الأكاذيب والأقوال الّتي يخدع بها العوام شيء؟ بئسما خلفتم للشّريعة المطهّرة والحنفيّة السّمحة السّهلة، قدخربتموها؛ وطريقة مباركة قدغيّرتموها، فالله يحكم بينكم و بين الشّريعة بالحقّ فلأجل رئاسة خمسة أيّام، كيف يضلّون العوام عن طريق السّداد! أماترون ماورد في الكافي في باب طلب الرئاسة عن أبي الحسن عليه السّلام انّه قال: «ماذئبان ضاريان في غنم غاب عنها رعاؤها، بأضرّ في دين المسلم من حبّ الرّئاسة»[٢] الحديث.

وهذه الكلمات الغير المفهومة معانيها، لاوجه لالقائها الى عوام النّاس إلاّ لطلب

١. سورة ابراهيم/٥٠.
٢. أصول الكافي: ج٢ ص٢٩٧.

الرّئاسة وكونهم مريديه: اللهم آحفظ الإسلام وأهله؛ والله كلّ كبيرة يرتكبها العالم فهو أسلم من أن يتكلّم في تحقيق هذه المطالب، لأنّ الكبيرة لازم لاتتعدّى الى العوام وهذه المذكورات متعديّة يتعدّى الى اختلاف دين النّاس ومذهبهم، فليس لهم التّكلّم بمالايفهمه العوام لاسيّما فيمايتعلّق بالله وصفاته الذّاتية، فليس هذا كلّه ولابعضه من شأن العامي، بل شأنهم الإشتغال بالعبادة والإيمان بماورد به القرآن، والتّسليم لماجاء به الرّسول الهادي، اذ الدّليل الإجمالي أعني طريقة الإنّ وهو الاستدلال بالآثار على المؤثّر و بالخلق على الخالق، يكفي للعوام ولايحتاج الى معرفة طريقة أهل الميزان وهو النّظر في نفس الوجود والموجود المحتاج، الى التّمسّك ببطلان الدّور والتّسلسل، لعدم بلوغ فهم العامّة اليه. ولاالتّمسّك بملاحظة نفس الوجود وادّعاء تأصّله على طريقة وحدة الوجود، الّتي يسمّونها المتصدون لها، استدلالاً من الحقّ الى الحقّ؛ لأنّ محقق المتصدّين لذلك مقرّين بأنّه لايتمّ إلاّ بالكشف والشّهود، الّذي لايحصل إلاّ بالرّياضة والمجاهدة وليس ادراكه في وسع العقل والنّظر، والمتصّدون لإ تمامه بالاستدلال، كما صدرعن بعض متأخّريهم لوفرض تسليم مقدّماته، فانّما هو ممّالايصل اليه أيدي أكثر العلماء فضلاً عن العوام.

ولسنا نحن في صدد تحقيق هذه المراتب بل لها محلّ آخر؛ ومع هذا كلّه من الواضحات الأوّليّة انّ الرسول الأمين «ص» دعى النّاس في أوّل الأمر بقوله: «**قولوا لاإله إلاّ الله تفلحوا**»؛ أقسم بالله انّ هؤلاء من أهل الجنّة من غيرفهم منهم الفاعل والمفعول والفعل والإنفعال ومن غير إلتفات منهم الى عالم اللاّهوت والنّاسوت وليس للعوام أن يسألوا من العالم ماليس من شأنهم فهمه، لكونه غامضاً. وقدورد النّهي عن السّؤال عمّاظهر لكم مايسوءكم من الأخبار الغيبيّة والمطالب المسطورة في زماننا، كما ورد في الخبر انّ النّبيّ «ص» قال: «**ذروني ماتركتكم فان ماهلك من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، مانهيتكم عنه فاجتنبوا وماأمرتكم به فأتوا منه مااستطعتم**»[1].

وفي رواية أنس عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله في ضرر كثرة السّؤال انّه سئل

١ـ كنزالعمال خ٩١٦، خ٩٧٤، الدرالمنثور، ج ٢/ ٣٣٥.

رسول الله «ص» حتّى أكثروا عليه وأغضبوه، فصعد المنبر فقال: «سلوني ولا تسألوني عن شيء إلاّ أنبأتكم به فقام إليه رجل فقال: يارسول الله أفي الجنة أنا أو في النّار، قال: بل في النار. وقام إليه شابان اخوان فقالا: يارسول الله مَن أبونا؟ فقال «ص»: أبوكما الّذي تدّعيان اليه، وقام اليه رجل فقال: من أبي؟ فقال «ص»: أبوك حذافة»[1]، وكان يدعى لغيره فلمّا رأى النّاس غضب النّبيّ «ص» أمسكوا فنزلت الآية: «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»[2]. وفي هذا المضمون أخبار كثيرة، و يكفيك شاهداً قصّة موسى والخضر النّبيّ عليهما السلام فانّها تنبيه على المنع عن السّؤال قبل أوان استحقاقه؛ اذ قال له: «فان اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّى أحدث لك منه ذكراً» ؛ فوقعت أمور ثلاثة: فسأل موسى «ع» عن كل منها ولم يصبر فقال الخضر «ع»: «هذا فراق بيني وبينك»[3]؛ فظهر انّ سؤال العوام عن غوامض المسائل الدّينيّة، من أعظم الآفات لعقائده الحقّة.

وكذا القاء العلماء إليهم فإنّه من الميراث للفتن العظيمة، فيجب منعهم وطردهم عن السّؤال ويجب على العلماء ترك هذه الطّريقة، فانّها منبعثة عن حبّ الدّنيا وحبّ المودّة والرّئاسة، فنعم ماقيل: فمن أراد أن يعرف خواصّ أسرار المبدء والمعاد بهذه الصّنعة المشهورة بعلم الكلام، فقد استسمن ذاورم وهو في خطر عظيم، فانّ طريق معرفة الله والسّبيل الى فهم عجائب ملكوته وأسرار كتبه ورسله شيء آخر، لايحصل بصنعة الكلام ولا المتكلّم بهذه الصّنعة منه شيء في شيء، بل إنّما هو بها في حجاب كثيف منه وخطر شديد. انتهى.

فكأن العلماء المذكورين نسوا: كلّم النّاس على قدر عقولهم. وأيضاً كثرة السّؤال يوجب ثقل التّكليف كما في قضية سؤال بني اسرائيل عن البقرة في القرآن، فكلّما سألوا من موسى «ع» عن صفات البقرة المأمورين بذبحها تعذّر وجودها وأخيراً لم يجدوها إلاّ عند ابن عجوزة فشروها بثمن جزاف وهو ملء جلدها بعد الذّبح ذهباً؛ فصار تمام ماملكه اليهود ذهباً لصاحبها وقصّتها مبسوطة في التّفاسير.

١. سورة الكهف/٧٥.
٢. الدرالمنثور، ج ٢/٣٣٥.
٣. سورة المائده/١٠١.

ايقاظ

اذا عرفت قبح التّكبّر وذمّ الموصوف به وعقابه الأخروي وعذابه السّرمديّ ومضراته الدّنيويّة، تعرف مقابله من التّواضع والحلم ومدح الموصوف بها وعلوّ رتبته في الدّنيا والآخرة، بل عبّر عليّ عليه السلام؛ الّذي كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق: «رأس العلم التّواضع»[1]؛ كما في الكافي حيث شبّه العلم الّذي نحن بصدده بشخص كامل روحاني له أعضاء وقوى كلّها روحانيّة بعضها ظاهرة و بعضها باطنة وله قائد روحاني يقوده الى حسن العافية ومركب فوائد كثيرة، وسلاح هو جنّة عن كلّ آفة و بليّة، وسيف قاطع بنيان رأس كلّ عدوّ وقوس يدفع به غضب جميع الخلائق وجنود يرفع الجهل وماهو من لوازمه ومال لايفنى، بل يكون به غنى عن جميع المكاره وذخيرة تنفع يوم لاينفع مال ولابنون، وزاد يوصله الى المطلوب ومأوى يسكن فيه بالاستراحة ودليل يدلّ به الى سبيل الهداية ورفيق يصاحبه الى الجنّة وهو قول علي بن أبي طالب عليه السلام كما رواه في الكافي عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن نوح بن شعيب النّيسابوري عن عبيد الله بن عبد الله الدّهقان الواسطي عن درست بن أبي منصور عن عروة بن أبي شعب العقرقوبي عن شعيب عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السّلام يقول: كان أمير المؤمنين «ع» يقول: «ياطالب العلم انّ العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التّواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأُذنه الفهم، ولسانه الصّدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النيّة، وعقله معرفة الأشياء والأمور، و يده الرّحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمّته السّلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النّجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرّضا،

١. البحار: ج٧٨ ص١٦. عن الحياة: ج١ ص٧٢.

وقوسه المداراة، وجيشه مجاورة العلماء وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذّنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة ودليله الهدى ورفيقه محبّة الأخيار»[١].

فاستفاد بهذه الألفاظ الموضوعة في اللّغة لهذه المحسوسات، لأجل تلك الفضائل ترشيحاً أو تمثيلاً، كلاّ لمايشابهه أو لماينا سبه من جهة أو لماهو غاية له، فجعل الرّأس الّذي موضع الكبر والنّخوة للتّواضع، لأنّ الأصل والمبدء في تحصيل العلم التّواضع والمذلّة وترك العلوّ والإفتخار، والعين الّتي هي آلة التجسس وطلب المشتبهات للبراءة والتعفف من الحسد. وجعل الأذن للفهم لأنّه غايتها. واللّسان للصدق لأنّه آلته، وهكذا القوى الباطنيّة، فمن اجتمعت فيه تلك الصّفات وهذه الفضائل فهو عالم بالحقيقة ربّاني، ومن اتّصف بأضدادها فهو محض مردود الى الجحيم وشتّان بين المقامين، ومن اتّصف بأضداد بعضها فهو مذبذب بين العالم والجاهل لاينفعه في الآخرة وإن كان سيّداً في الدّنيا، لأنّ بعد كلّ زحمة راحة ولكلّ عمل أجر، فأجره في الدّنيا وليس له في الآخرة من نصيب.

أيقاظ

قد عرفت في طيّ الكلمات المذكورة: انّ العلم علمان: حقيقيّ[٢] وهوالعلم بحقائق الأشياء على ماهي عليها، كما هو مسئول النّبيّ صلّى الله عليه وآله في دعائه ، وغير حقيقيّ وهو معرفة الجزئيّات المتغيرة ومايتعلّق بالأعمال والأفعال من الأحكام الشّرعيّة الأصوليّة مطلقاً والعمليّة الفرعيّة والعلم بالحكايات والرّوايات. ولكلّ منها خواصّ ولوازم.

فمن خواص الأوّل ولوازمها: الخشية من الله والحياء عنه في الباطن لمايخطر

١. أصول الكافي: ج١ ص٤٨، طبعة دار الكتب الاسلامية.

٢. وهذا اصطلاح أهل العرفان وإلاّ العلم له معنى واحد وهو مطلق الإدراك ومتعلقه أيّ نحو كان يسمّى معلوماً. «المؤلّف».

على القلب من جلال الله وخوف القرب والرّجاء، لاخوف المعصية والمحبّة له «تعالى» والشّوق اليه والى ملكوته الأعلى، والإنزجار عن الدّنيا والزّهد فيها، وتمنّى الموت لأجل لقاء الله والصّدق في جميع الأقوال والأعمال، والقناعة بالقليل والتّواضع.

ومن خصائص الثّاني: الأمن من مكر الله والخوف من عذاب المعصية؛ ولذا تراهم انّهم مالم يتيقّنوا بكون شيء معصية يرتكبونه لكون المورد مورد البراءة وهو حكم ظاهري، لامن لااستحقاقية في الواقع ولذا نراهم يحتاطون عن محتمل المعصية، خوفاً من الواقع والاستحقاقية والاستحياء من الخلق، الظّاهر من الّذي ينجلي في القلب و يطلع على الضّمائر والذّكر باللّسان والعمل بالجوارح والظّواهر، ولوحفظاً لنوعهم من عدم اعتناء العوام لكونهم مقلّدين وتابعين لأقوالهم وأفعالهم، لاالذكر بالقلب والضّمائر في السر فالعالم الحقيقي يلزمه الخشية لله والورع والتّقوى ظاهراً و باطناً، فلاجرم يصدق فعله قوله وظاهره باطنه ولايتخلّف أبداً، والعالم الغير الحقيقي خشيته من خوف العذاب وحفظ النّوع وحماية الحمَّى والتّقوى والورع عن محارمه ظاهراً، فلاجرم تراهم تارة يصدق قوله فعله وتارة يتخلّف، وبهذا يجمع بين الأخبار الواردة في خصوص العلماء مثل مارواه في الكافي عن عليّ بن ابراهيم عن محمّدبن عيسى عن يونس عن حمّادبن عثمان عن الحرث بن المغيرة النّصري عن أبي عبدالله «ع» في قوله «تعالى»: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء»[1].

قال: «يعني بالعلماء من صدّق فعله قوله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»[2].

فانّ المراد من قوله «ع» فليس بعالم أي عالم حقيقي ربّاني، ومع ذلك لوكان مثل هذا العالم المنفي، كونه عالماً مجتهداً فيترتّب عليه أحكام المجتهدين من جواز التّقليد وحجيّة قوله والتّحاكم اليه ونفوذ حكمه ووجوب الأخذ بفتواه، وهكذا وإن لم يصدق قوله فعله مالم يظهر فسقه، غاية مافي الباب انّه داخل في زمرة العلماء غير العاملين

١. سورة فاطر/٢٨.
٢. الكافي ج١ ص٣٦.

بعلمهم، فهو معذّب في الآخرة بأشدّ أنواع العذاب كما ذكرنا، لإطلاق الأخبار الدّالة على جواز العمل بقول المجتهد المطلق كمقولة عمربن حنظلة حيث قال «ع» فيها: «انظروا الى من كان منكم قد روى أحاديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكماً، فانّي قد جعلته حاكماً؛ الحديث»[١].

فانّ ظاهر الرّواية وإن كان خطاباً للحاضرين ومخصوصاً بهم، إلاّ انّه بقاعدة الإشتراك في التّكليف، يشمل الغائبين أيضاً، فاذا لم يكن للغائبين الرّجوع الى العالم بالأحكام بالعلم الحقيقي، فيكتفى بالرّجوع الى العالم بالأحكام الظّاهرية، من جهة استفراغ الوسع في الأدلّة المعهودة المقرّرة في الأصول.

فظهر انّ العلماء الخاشعين من الله، ظاهراً و باطناً مع الله، غير العلماء الخاشعين ظاهراً بحسب الخوف من المعصية المعلومة كونها معصية، وعدم الخوف من ارتكاب مالم يثبت كونه معصية عنده بالأدلّة الشّرعيّة الظّاهريّة، مثل موارد جريان أصالة البراءة مثلاً وإن كان في الواقع معصية.

ايقاظ

ولما انجرّ الكلام الى الفقيه، فلابأس بالإشارة الى صفاته الّتي لابدّ من وجودها في الفقيه. قال: في الكافي عن عدّة من أصحابنا عن أحمدبن محمّدبن البرقي عن محمّدبن مهران عن أبي سعد القماط عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألاأخبركم بالفقيه حقّ الفقيه، من لايقنّط النّاس من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يرخّص لهم في معاصي الله ولم يترك القرآن رغبة الى غيره؛ ألالاخير في علم ليس فيه تفهم؛ ألالاخير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألالاخير في عبادة ليس فيهاتفكّر» ؛وفي رواية

١. أصول الكافي: ج ١ ص ٦٧.

أخرى: «ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها ألا لا خير في نسك لا ورع فيه»[١].

وفي هذا الحديث اشارات عجيبة ونكات لطيفة كما فهمه أصحاب الفهم وهو الحقّ الواقع:

منها: انّ المراد من الفقيه هو من عرف المسائل الفرعيّة من العبادات والمعاملات والحدود وغيرها من أدلّتها التّفصيليّة، سواء عرف أصول العقائد وأحوال المبدأ والمعاد، أيضاً بأدلّة أهل الميزان أم لا. وقوله حقّ الفقيه صفة للفقيه، وكلمة من امّا مبتدأ محذوف الخبر وامّا خبر مبتدأ محذوف، فعلى الأوّل متضمن معنى الشّرط فيكون تقديره: من لا يقنط النّاس عن رحمة الله فهو فقيه حقّ؛ وعلى الثاني: موصولة والجملة بعده صلته وتقدير الكلام الفقيه الحقّ، من لا يقنط النّاس «الى آخره».

ومنها: انّه عليه السّلام أشار بهذه الجملات السّلبيّة الأربع الى بطلان مذاهب غيرنا، من المعتزلة المتظاهرين بالفقه والمتّصفين بهذه الصّفات الأربع أي بمنفياتها، لا نفيها.

فالجملة الأولى اشارة الى حال الشّيطان ومن حذى حذوه من القانطين من رحمة الله.

والجملة الثّانية اشارة الى حال المرجئة ومن حذا حذوهم من المغترين بالشّفاعة، فانّهم مأمونون من عذاب الله؛ نعوذ بالله- والشّيعة قائلين بكون الشّخص بين الخوف والرّجاء أي لا القنوط بالكليّة كإبليس، ولا الرّجاء بالكليّة كالمرجئة، بل أمر بين الأمرين فبالنّظر الى رحمة الله الواسعة حيث قال تبارك و«تعالى»: «إِنَّ ٱللَّهَ يَغفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً»[٢].

فالرّجاء ومن ملاحظة صدق الوعيد بالنّار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشيّاً فالخوف.

والجملة الثّالثة اشارة الى حال الحنابلة وأكثر المتصوّفة، حيث انّهم قائلون بالترخيص في معصية الله وهذا باطل وقول بلا دليل، وتحكّم بحت، وتكذيب لما ورد

١. أصول الكافي: ج١ ص٣٦.
٢ سورة الزمر/٥٣.

من آيات الوعيد والويل والنّار.

والجملة الرابعة اشارة الى حال الحنفيّة منهم، حيث عملوا بالقياس وتركوا القرآن مهجوراً عن العترة الطّاهرة ولذا يشكو النّبي «ص» يوم القيامة حيث يقول: «ياربّ انّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً»[١].

وبهذه الآية تثبت حقيّة مذهب الشّيعة، بأنّهم لم يتّخذوا القرآن مهجوراً؛ بل أخذوه مع العترة الطّاهرة، حيث انّهما ثقلان، تركهما النّبي «ص» بين الأمّة وأكّد حفظهما والأخذ بهما بقوله «ص»: «وهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[٢]؛ وهو خبر صريح مسلّم بين الفريقين ذكره أعظم علمائهم في كتبهم الصّحاح، كما فصّلناه في كتابنا الموسوم بـ«هداية الموحّدين» في جلد الإمامة ففي كلامه عليه السّلام اشارة الى أنّ الفقيه الحقّ غير هؤلاء الجماعة المذكورة، بل هو من كان متّصفاً بنقيض تلك الصّفات السلبيّة، كما ذكرنا.

ومنها: انّه عليه السّلام قيّد بكلمة ألا الّتي يفتتح بها الكلام للتنبيه، ليكون المخاطب متوجّهاً الى كلام المتكلّم، على أنّ هذه الصّفات الحسنة المذكورة اذا كانت معرّاة عن الأحوال السّيّئة الباطنيّة، فالاخير فيها ولاطائل تحتها؛ بل ضررها في الآخرة أكثر من نفعها وخسارتها أكبر من فائدتها، كما نبّه الله «تعالى» عليه بقوله مخاطباً لنبيّه المختار: «ومن النّاس من يعجبك قوله في الحيٰوة الدّنيا «الآية»»[٣]؛ و بقوله: «هل نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخسَرِينَ أعمٰالاً «الآية»»[٤]؛ و بقوله: «ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمٰا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ «الآية»»[٥]؛ وغيرها.

والمراد من العلم الّذي ليس فيه تفهّم أمران: أحدهما: العلم التّقليدي في العقائد الحقّة. والثّاني: العلم الّذي لاينطبق بالعمل في الأحكام الشّرعيّة، فظهر انّ العلم

١. سورة الفرقان/٣٠.
٢. أصول الكافي: ج١ ص٢٨٧.
٣. سورة البقرة/٢٠٤.
٤. سورة الكهف/١٠٣.
٥. سورة البقرة/٩.

الّذي لايتغير بتغيّر الأزمنة واتّفقت الأديان على حسنه، بل لاخلاف لأحد في كونه حقّاً، هو ماقاله الصّادق من آل محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم كما رواه في الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن القسم بن محمّد عن النّقري عن سفيان بن عُيينه قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: «**وجدت علم النّاس كلّه في أربع أوّلها: أن تعرف ربّك. والثّاني: أن تعرف ماصنع بك. والثّالث: أن تعرف ماأراد منك. والرابع: أن تعرف مايخرجك عن دينك**»[١].

قال بعض شرّاح الحديث، اشارة الى ثاني قسمي الحكمة العمليّة، و يندرج فيه معرفة جميع الرّذائل النّفسانيّة ليمكن التبرّي منها، وهي امّا اعدام تلك الفضائل المذكورة أو أضدادها، فالأولى: كالجهل البسيط والخمول والبلاهة والجبن ونحوها؛ والثّانية: كالجهل المركّب والفجور والمكر والتهوّر والحرص والعصبيّة والعناد والكبر والعجب والحسد وغير ذلك، فمن جمعت فيه هذه الفضائل وطهرت نفسه عن تلك الرّذائل، لصار ملكاً في صورة البشر؛ بل كاد أن يصير انساناً إلٰهيّاً تحلّ طاعته بعد طاعة اللــه. انتهى.

أقول: لااستيحاش في كلامه، لأنّه امّا اشارة الى ماورد في الأحاديث القدسيّة: «**عبدي أطعني أجعلك مثلي**»[٢]؛ أو انّ المتّصف بتلك الصّفات يصير عالماً ربّانيّاً، فيكون حجّة للنّاس قولاً، فبأيّ حكم حكم و بأيّ مسألة أفتى يجب اطاعته على النّاس أجمع.

فظهر انّ الانسان قابل للتخلّق بكل الخير وللا تّصاف بكلّ الشر؛ بيان هذا: انّ التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، الّذين هم في أعلا عليّين، ومنهم تفيض الخيرات الى اتباعهم وجنودهم والتجرّد لمحض الشر سجيّة الشّياطين المردودين، الّذين هم في أسفل سافلين، ومنهم يتعدّى الشّرور الى اتباعهم وجنودهم والرّجوع الى الخير، بعد الوقوع في الشر، وعكسه ضرورة الآدميّين، فالمتجرّد للخير ملك مقرّب، والمتجرّد للشرّ شيطان مردود، والمتلاقي للشر بالرّجوع الى الخير الانسان فقط، اذ درج في طينة

١. أصول الكافي: ج١ ص٥٠.
٢. مشارق أنوار اليقين ص٦٩، كلمة الله ص١٤٠.

الانسان شائبتان واصطحب فيه سجيتان، فكلّ انسان نسبته امّا الى الملك أو الى الشّيطان؛ لأنّه في أوّل الفطرة له قوّة قبول آثار الجميع وإنّما يخرج من القوّة الى الفعل بمزاولة اعمال ينشأ منها للقلب أحوال، امّا الأعمال الحسنة، فتورث للقلب صفاء وضياء بحيث يستعد به لقبول الهام الملك؛ والأعمال القبيحة والسّيّئة تورث للقلب ظلمة وكدورة بحيث يستعد بها لقبول وسوسة الشّيطان.

فالانسان العاقل، سيّما العامل الفاضل الفايض بدرجة من العلوم، لايرغب عن سجيّة الملك الى الشّيطان، فظهر انّ قلب الانسان متجاذب بين الملك والشّيطان، كما قال صلوات الله وسلامه عليه وآله: «في القلب لمّتان لمّة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحقّ ولمّة من العدوّ، ايعاد بالشرّ وتكذيب بالحقّ ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليعلم انّه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم[1] ثمّ قرأ: «الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»[2]» .

ايقاظ

قال بعض المتألّهين في طيّ بعض كلماته: اعلم انّ الإنسان كما ينتفع من إلهام الملك «كذلك» ينتفع بوجه من وسوسة الشّيطان فلولم يكن أوهام المعطّلين وخيالات المتفلسفين والدّهريّين وسائر أولياء الطّاغوت ومراتب جربزتهم وفنون اعوجاجهم، لما انبعث أولياء الله وأهل الحكمة والعرفان في تحقيق الحقائق وتعليم العلوم وطلب البراهين لبيان التّوحيد، وعلّة الحدوث للعالم على سبيل اليقين وأمثال هذه المسائل، ثم قال: وكذا القياس في تهذيب الأخلاق واستقامة الأحوال وصحّة الأحوال، فلولم يكن اغتياب المغتابين وتجسّس المتجسّسين لعيوب النّاس، لم يجتنب الانسان كلّ الإجتناب من العيوب الخفيّة، الّتي لايراها أحبّاؤه وإنّما يظهر له ثبوتها من تلفيقات الأعداء

١. سورة البقرة/٢٦٨.
٢. الدرالمنثور ج١/٣٤٨.

وتجسّسهم عيوبه واظهارهم إيّاها؛ فكم من عدوّ خبيث الذّات ينتفع الانسان من عداوته، أكثر من ماينتفع به من محبّة الأصدقاء، فانّ المحبّة ممّا يورث الجهل بعيوب الحبيب، والعمى عن معايبه وسماع مثالبه، كما قيل:

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة وعين[1] العداوة قدتبدي المساويا

فظهر انّ لوجود الأعمال الشّيطانية في العالم منافع عظيمة ومن فوائد الآلام والمحن والشّدائد الّتي تصل الى العبد من أهل الظّلم والجور، انّه يوجب له سرعة الرّجوع الى بارئه واللّحوق الى أوليائه الماضين وترك الإخلاد الى الأرض والإجتناب عن معاشرة أهل الدّنيا، لمايرى من أبناء الزّمان مايزعجه من الخلق ويميل عن الدّنيا، فينفر طبعه عنهم و يفرّ الى الله الواحد فراراً عن الدّنيا ومافيها، وتقرباً الى الله «تعالى» وملكوته الأثنى. انتهى.

واذا علمت ذلك، فلابدّ للعالم أن لاينزجرعن النّاس وتكلّمهم عقيبه واغتيابهم إيّاه؛ بل له أن يسعى في ترك مايصدر منه من العيوب الشّرعيّة الّتي توجب اغتياب النّاس، وأن لايطمئنّ بتعريف المحبّين له وتملّقهم إيّاه وقولهم وخطابهم إيّاه: ياسيدي يامولاى مدّ الله ظلّك العالي على رؤوس المسلمين ونحو ذلك، لأنّ الصّديق والمحبّ لايرى منه إلاّ الأعمال الخيريّة، ولايلتفت أبداً الى قبائح من يحسن اليه، لأنّ الإحسان يعمي الإنسان؛ بل له أن يصدق أعداءه لأنّ العدوّ لايرى إلاّ الأعمال القبيحة في ظاهر الحال و باطنه و يتجسّس عيوبه. فلابدّ للعالم من ترك تبعات الشّيطان واتباع النّفس والشّهوات والهوى، فـ«انّ الانسان على نفسه لبصيرة».

فظهر انّ العدوّ أيضاً في الجملة نعمة من الله من تلك الجهة، كماأنّ وجود الشّيطان أيضاً في العالم، لابدّ له من مصلحة العباد وإلاّ لم يوجده خالقه، لإستحالة صدور العبث والقبيح منه «تعالى»، والإهمال والتّعطيل في ايجاده ممتنع، فظهر انّ للعالم مزلقات كثيرة لابدّ من الإجتناب عنها حتّى لايوجب لهلاكه في الدّنيا والآخرة،

١. وفي نسخة: ولكن عين السخط تبدي المساويا، وفي هذا المعنى قول سعدي: دوست همه نيكى بيند/دشمن همه بدى «مؤلف».

فحفظ نفسه حفظ لنفس الشّريعة، لكون الأنظار كلّها متوجّهة الى أفعاله وأعماله وأقواله، حسنة كانت أو قبيحة، امّا الحسنة منها فلايعجبه ذكرها، والقبيحة، لايزجره اغتيابها، فله الصبر في جميع الحالات وله الشكر في جميع الحركات؛ فانّ خيرات الدّنيا ملزومة للشرور، ومسرّاتها مقرونة بالهموم، وحلاواتها ممزوجة بالسّموم؛ ففي كلّ نعمة نقمة ولكلّ نور ظلمة؛ فليلاحظ العالم العاقل، سيّما الرّؤساء منهم، جميع هذه المراتب؛ و يكون داعياً الى الله من كلّ جانب فان اهتدوا، فله الأجر والثّواب وإن لم يهتدوا فليس عليه شيء، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «بعثت داعياً وليس اليّ من الهداية شيء وخلق إبليس مضلاً وليس عليه عن الضّلالة شيء»، «من يهدي الله فلامضلّ له، ومن يضلل الله فلاهادي له»[١].

وهذا هو اللّطف المستور في القهر الإلهي تحيّر فيه العقول، وعجز عن ادراكه فهم الفحول، فالعالم الحقيقي له الدّعوة الى الحق، «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً»[٢]، «ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور»[٢]؛ فمن صدّق رسل الله وكتبه وكان ذافطرة صحيحة نورانيّة مستقيمة، فهو على نورمن ربّه، المؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم، ومن أذعن [إلىٰ] دعوة الشّيطان، واتّبع هواه ونسى ذكر مولاه، وذهل عن أحوال عاقبته وأهوال آخرته، واشتغل بالدّنيا ولذّاتها، وافتتن بشهواتها المزخرفة، واغترّ بأمانيها الفانية، فلن يهتدوا اذاً أبداً؛ وفي الحديث القدسي: «خلقت هؤلاء للجنّة ولاأبالي وخلقت هؤلاء للنّار ولاأبالي»[٣]؛ «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»[٤]؛ «كما بدأكم تعودون * فريقاً هدىٰ وفريقاً حقّ عليهمُ الضّلالة انّهم اتّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون إنّهم مهتدون»[٥]، «أولئك حزب الله ألاانّ حزب الله هم المفلحون»[٦] «أفمن شرح الله

١. سورة الأعراف/١٨٦.
٢. سورة الطلاق/٢ ـ سورة النّور/٤٠.
٣. لم نعثرعلى النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٤. سورة الشّورى/٢٠.
٥. سورة الأعراف/٣٠.
٦. سورة المجادلة/٢٢.

صدره للاسلام فهو على نورمن ربّه»[١]؛ اللهم اشرح صُدورنا بنور الاسلام والإيمان واحفظها الى حين «كلّ مَن عليها فانٍ».

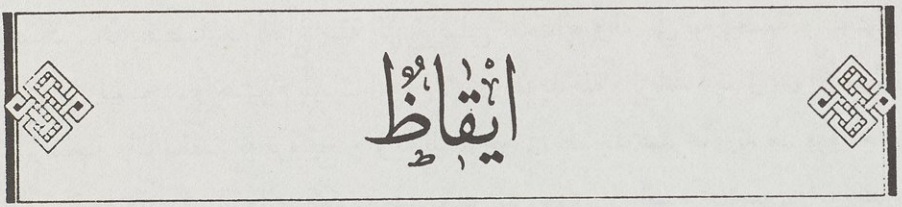

أجمع العلماء على انَّ النّيّة شرط في العبادات كلّها، فلايصحّ شيء منها بدونها واستدلّ بعضهم بقوله صلّى الله عليه وآله: «إنَّما الأعمال بالنيّات»[٢].

وهي فرض في الفرائض ونفل في النّوافل، وأفضلها ماتكون خالصة لله «تعالى»، لايشوبها غرض آخر، وأقلّ منه ماتكون لطلب الجنّة أو الخلاص من النّار؛ قال الصّادق عليه السّلام: «العُبّادُ ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله طمعاً، فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله حبّاً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادات»[٣].

وامّا الرّياء فهو مبطل للعمل فمن نواه في عمله فقدأحبط عمله؛ بل صارت معصية، فكما انَّ الطّاعة تصير معصية بالنيّة، فكذلك المباحات تصير طاعات بالنيّات، فانَّه مامن مباح إلاّ ويحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من محاسن القربات، و ينال عامله بها أعظم الدّرجات وهكذا يحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من أعظم المعاصي، كما ورد في الأخبار: «من تطيّب لله، جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة»[٤].

وذلك مثلاً: انَّ من تطيّب يوم الجمعة أو غيره من الأيّام فيمكن أن يقصد به اظهار التّفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران و يقصد به رياء الخلق ليقوم به الجاه في قلوبهم، و يذكر بطيب الرّائحة أو يتودّد في قلوب النّساء الأجنبيّات اذا كان متهيّئاً

١. سورة الزّمر/٢٢.
٢. جامع أحاديث الشيعة ج١ ص٣٥٨، صحيح مسلم ج٣ ص١٥١٥.
٣. أصول الكافي: ج٢ ص٨٤.
٤. المحجة البيضاء، ج٦ ص١٠٥، عن ميزان الحكمة ج٥ ص٥٧٥.

للنظر الهنّ أو لأمور أُخر لاتحصى، وكلّ هذا يجعل التّطيّب معصية، مع كونه مستحبّاً شرعاً ومطلوباً عقلاً ومحبوباً عرفاً، فبتلك النّيات تكون أنتن من الجيفة يوم القيامة. ويمكن أن يقصد به اتّباع سنّة النّبيّ صلّى الله عليه وآله في يوم الجمعة، وأن ينوي تعظيم المسجد واحترام بيت الله، فلايرى أن يدخله زائر الله «تعالى»، إلاّ طيب الرّائحة وان يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته لهم بروائحه، وان يقصد به دفع الرّوائح الكريهة عن نفسه الّتي تؤدّي الى ايذاء مجالسيه، وان يقصد به سدّ باب الغيبة على المغتابين، اذا اغتابوه بالرّوائح الكريهة، فيعصون الله عزّ وجلّ بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الإحتراز منها، فهو شريك في تلك المعصية أو يقصد به معالجة دماغه مثلاً ليزيد به فطنته وذكاؤه و يسهل عليه درك مهمّات دينه بالفكر، كما قيل من طابت رائحته زاد عقله، الى غير ذلك من النّيات الحسنة، فهذا كلّه طاعة يؤجر عليها و بذلك تكون ريحه يوم القيامة أطيب من المسك. ويمكن أن يقصد به التّنعّم والتّلذّذ وهذا مباح ليس بمعصية ولاطاعة، إلاّ انّه يسأل عنه ويحاسب عليه ومن أدنى شيئاً من مباحات الدّنيا لم يعذّب عليه في الآخرة، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسراناً، بأن تستعجل مايفنى وتخسر زيادة نعيم يبقى كذا قالوا. ولكنّ الحقير أقول: انّ الكريم لايسأل عمّا أعطاه عبده من النّعماء إلاّ أن يكون اسرافاً وتبذيراً، والحاصل نقل عن بعض العلماء: انّه ماارتكب مباحاً في عمره بعدما صار مميّزاً بين الأحكام مثلاً: انّه مايأكل و يبقى جائعاً الى أن يكون الأكل واجباً له، بحيث لوتأخّره لضرّه: وهكذا سائر أفعاله.

وقال بعض السّلف: انّي لأستحبّ أن يكون لي في كلّ شيء نيّة، حتّى في أكلي وشربي ونومي وغيرها من أفعالي، وكلّ ذلك ممّا يمكن أن يقصد به وجه الله، لأنّ كلّ ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمّات البدن، فهو معين على الدّين مثلاً، فمن كان قصده من الأكل التّقوي على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطيّب قلب أهله، والتوصّل به الى ولد يعبد الله، فيكثر به أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله، كان مطيعاً بأكله ووقاعه، وأغلب حظوظ النّفس الأكل والتزويج وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة والمباحات كثيرة، ولايمكن احصاء النّيّات فيها،

فقس على ماذكر غيره من الأعمال والنّيات وهذا معنى قوله «ص»: إنّما الأعمال بالنّيات. وقوله «ص»: «ولكلّ امرىء مانوى»، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله، فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى الدّنيا يصيبها وليس له في الآخرة من نصيب. وقدورد انّه صلّى الله عليه وآله، قال: «انّ الله لاينظر الى صوركم ولاأبدانكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونيّاتكم»[١]؛ وقال «ص»: «انّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة، من صحف مختمة، فتلقى بين يدي الله عزّوجلّ فيقول: ألقوا هذه الصّحيفة فانّه لم يرد بمافيها وجهي، ثم تنادى الملائكة، اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون ياربّنا: انّه لم يعمل شيئاً من ذلك! فيقول: انّه نواه»؛ وقال صلّى الله عليه وآله: «رجل آتاه الله «تعالى»، علماً ومالاً، فعمل في ماله فيقول رجل لوآتاني الله، لعملت كما يعمل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً، ولم يؤته علماً، فهويتخبّط بجهله في ماله، فيقول رجل: لوآتاني الله مثل ماآتاه لعملت، كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شركه في النّيّة في محاسن عمله ومساويه»[٢]؛ الى غير ذلك من الأخبار في هذا المعنى.

وإذا عرفت هذا، فاعلم: انّ العالم اذا قصد في شروعه لتحصيل العلم وجه الله بمعنى انّ الله تبارك وتعالى أمرني بالمعرفة اعتقاداً وعملاً، ولايحصل ذلك إلاّ بعد العلم بها حتّى يكون الإعتقاد والعمل طبقه، ثمّ قصد بانّي بعدما عرفت تكليف نفسي، أقضي حوائج المؤمنين من المسائل والأحكام والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأتقرّب الى الله بتعلّمي وتعليمي، فهو العالم الرّباني الّذي تتوجّه اليه جميع الصّفات الحسنة والكماليّة، الواردة في خصوص العلماء العاملين والفضلاء الصّالحين.

امّا والعياذ بالله، لوقصد الرّئاسة الدنيويّة والحكم بين النّاس بخلاف ماأنزل الله، وتكثير الاعتبارات الدّنيويّة وأموالها، وتواضع النّاس اليه وتقبيل يديه وتملّق الجمهور إيّاه، وغير ذلك من الأغراض الدّنيويّة الفاسدة، فهو أعظم الكبائر وأخسّ الأغراض الباطلة، بل ربّما لاينال مقصوده، فيكون خاسراً في قصده دنياه وخائباً في آخرته، لأنّ هذا كلّه ناشيء عن حبّ الدّنيا وهو رأس كلّ خطيئة؛ بل حلف عليّ

١. صحيح مسلم، ج٤/٩٨٧، الترغيب والترهيب، ج١/٥٨.
٢. الترغيب والترهيب، ج١/٥٩.

عليه السّلام في بعض خطبه: «انّ محبّة الدّنيا لاتجتمع مع حبّ الله» ؛ كما روي في «تحف العقول»، حيث قال: «والله ماأحبّ الله من أحبّ الدّنيا»[١].

هذا حكم النّيّة ومايترتّب عليها من الآثار. وامّا موضوع النّيّة فتوهّم بعضهم بأنّها قول الرّجل في نفسه عند تدريسه مثلاً، أو تحصيله أو تجارته: نويت أن أدرّس لله «تعالى»، أو أحصل العلوم أو أتّجر لله «تعالى». هيهات ليس هذا هو النّيّة!؛ بل هو حديث نفس أو حديث لسان أو فكرة وانتقال من خاطر الى خاطر؛ والنّيّة بمعزل عن جميع ذلك، وإنّما النّيّة انبعاث النّفس وتوجّهها وميلها الى ماظهر لها: انّ فيه غرضها امّا عاجلاً أو آجلاً، والميل اذا لم يكن، لايمكن اختراعه واكتسابه بمجرّد الإرادة؛ بل ذلك كقول الشّيطان: نويت أن أشتهي الطّعام وأميل اليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبّه وأعظّمه بقلبي وذلك محال؛ بل لاطريق الى اكتساب صرف القلب الى الشّيء وميله اليه وتوجّهه نحوه إلاّ باكتساب أسبابه، وذلك ممّا قديقدر عليه وقدلايقدر عليه.

وإنّما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الملائم، الموافق لها ومالم يعتقده الإنسان انّ غرضه منوط بفعل من الأفعال، فلايتوجّه نحوه و يقصده، وذلك ممّالايقدر على اعتقاده في كلّ حين، واذا اعتقد فانّما يتوجّه القلب إن كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لايمكن في كلّ وقت، والدواعي والصّوارف لها أسباب كثيرة، وإنّما يعينك على نيّة الخيرات، تقوية الإيمان بالشّرع، وتعظيم الثّواب وتغليب أمر الدّين على القلب، والإهتمام به واخراج حبّ الدّنيا عن القلب وعدم المتابعة لهوى النّفس، فانّ متابعة الهوى ومصاحبته من جملة مهلكات الرّجل؛ بحيث يفهم من كلمات الأئمّة عليه السّلام عدم النّجاة لصاحب هوى، كما في بعض كلماته أيضاً؛

«انّي لأرجو النّجاة لمن عرف حقّنا من هذه الأمّة إلاّ أحد ثلاثة: صاحب سلطان جائر وصاحب هوى والفاسق المعلن».

فظهر انّ الإمام عليه السّلام، ليس له رجاء النّجاة لمن اتّصف بواحدة من الثلاثة

١. بحار الأنوار، ج٧٨ ص٢٢٦. عن ميزان الحكمة، ج٢ ص٢٢٨.

المذكورة؛ أعاذنا الله من اتّباع الهوى ومصاحبة سلطان جائر؛ وغاية مايترتّب لطالب العلم من الرّئاسة الدّنيويّة، هي برهة من تمام عمره، امّا ثلثه أو ربعه أو خمسه؛ وكم من أعباء الرّئاسة في تلك الأيّام وكم من مضرّات الشّريعة بهذه النيّة؛ قال «ع»: **كُنْ ذَنَباً وَلا تكن رأساً، كم من قلوب انكسرت منه وكم من مظلوم يبكى في ليلة مظلمة في وراءه»**[1]؛ وقدقال «ص»: **«ازالة الجبال أهون من ازالة قلب من موضعه»**[2].

وقد ترى بعض النّاس في هذا الزّمان مغموماً تمام أوقاته ومحزوناً تمام ساعاته وآناته، وليس هذا إلاّ مِن كمال رغبته الى الدّنيا الدّنيّة، من عدم نيله لمقصوده الّذي هو عبارة عن الرّئاسة العامّة على تمام النّاس؛ نعوذ بالله؛ كما قال «ع»: **«الرغبة في الدّنيا تورث الغمّ والحزن»**[3].

فانّا نرى بالعيان صدق مقالات الأئمة عليهم السّلام في الواقع، ولابدّ لكلماتهم «ع» من مصداق خارجي يوجد في الخارج وليس كلامهم مثل كلام أحد النّاس من كونه جزءاً للهوى؛ مع انّ التحصيل بقصد صلاح أمر الدّنيا اتهام في الدّين، كما قال «ع»: **«اذا صلح أمر دنياك فاتّهم دينك»**[4].

فالعلم بقصد صلاح أمر الدّنيا يوجب التّهمة في الدّين لامحالة، وليس هذا عند العاقل بشيء.

ايقاظ

فلمّا انجرّ الكلام الى هنا، فلابأس أن نشير الى بعض الأخبار الواردة في ذمّ طلب الرّئاسة وقدجعله في الكافي باباً مستقلاً: وروي عن محمّدبن يحيى عن أحمدبن

١. تحف العقول: ص٢٦٢.
٢. تحف العقول: ص٢٦٣.
٣. بحار الأنوار: ج٧٨ ص٢٤٠.
٤. تحف العقول: ص٢٦٤.

محمّدبن عيسى عن معمّربن خلاّد عن أبي الحسن عليه السّلام انّه ذكر رجلاً فقال: انّه يحبّ الرّئاسة فقال: «ماذئبان ضاريان في غنم قدتفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرّئاسة»[١]؛ وعنه عن أحمدبن سعيدبن جناح عن أخيه أبي عامرعن رجل عن أبي عبدالله عليه السّلام، قال: «من طلب الرّئاسة هلك»[٢].

أقول: هذان الحديثان بالنّسبة الى نفس الرّئيس وهلاكه وخراب دينه؛ وامّا بالنّسبة الى غيره من المرؤوسين فقدذكر فيه أيضاً، حيث قال: عدّة من أصحابنا عن أحمدبن محمّدبن خالد عن أبيه عن عبدالله بن المغيرة عن عبدالله بن مسكان قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: «إيّاكم وهؤلاء الرّؤساء الّذين يتراءسون، فوالله ماخفقت النّعال من خلف رجل إلاّ هلك وأهلك»[٣].

أقول: وقد حذّر«ع» المخاطبين الحاضرين شفاهاً والغائبين أيضاً، من باب الإشتراك أو التنزيل عن مخالطة الرّؤساء، والحذر لايكون إلاّ من فعل قبيح أو شيء قبيح أو صفة قبيحة.

فان قيل: انّ المراد من هؤلاء هم المشار اليهم في عصره عليه السّلام من رؤساء بني العبّاس، الّذين غصبوا حقّهم.

قلت: اذا كان المناط خفقان النّعال لايتفاوت الحال في عصر من الأعصار وفي مصر من الأمصار، فانّه«ع» حلف بالله، وأخبر مؤكداً بأدات الحصر من النّفي وحرف الاستثناء، وهو يفيد الحصر إجماعاً من الأصوليين والنّحويين. امّا حصر الموضوع في المحمول أو بالعكس، ففي الخبر الشّريف يفيد حصر الهلاك الى خفق النّعال، وانّه«ع» مخبر صادق قطعاً وكلمة رجل مطلق، يشمل على جميع أفراد الرّجال، من المخالف والموافق من أهل الدّين والدّنيا، خرج الرؤساء العدول بالدّليل، و بقي الباقي تحت العموم؛ فانّهم هالكون أنفسهم ومهلكون مرؤسيهم، ومن الّذي لايكون طالباً للرّئاسة في عصرنا هذا؟! مع كونها أحلى الحلويات وألذّ اللّذّات، وإن كان أشدّ زحمة في

١. أصول الكافي: ج٢ ص٢٩٧.
٢. أصول الكافي: ج٢ ص٢٩٧.
٣. أصول الكافي: ج٢ ص٢٩٧.

بعض الأوقات من بعض الجهات. ولكن لها في القلب شيء لايعرفه إلاّ الطّالبون، الواصلون لتلك المرتبة؛ أعاذنا الله من الوصول اليها وإن كنّا طالبيها.

لطيفة: حكي انّ جمعاً من النّاس يتحاكون في مجلس صحبتهم، من أملح الأصوات ولذّة السّماع وحسن الغناء. وكان كلّ واحد منهم يرجّح صوتاً مخصوصاً وكان منهم رجل عالم امام سألوا منه: يافلان ماتقول في الأصوات أي صوت أحسن الأصوات وألذّها؟

فأجاب: انّ ألذّ الأصوات صوت المأموم بقوله يا الله اذا كان الإمام في الرّكوع، وليس صوت أحسن وألذّ منها، فالإمام مع كونه عادلاً ظاهراً يحبّ الرّئاسة بهذا المقدار؛ ولمّا كان بنائي على اظهار الحقّ فأقول: الحقّ وإن كنت من أئمة الجماعة أيضاً؛ أعاذنا الله من شرّ النّفس الأمّارة بالسّوء، فانّها امّارة بالسوء إلاّ مارحم ربّي؛ وأيضاً الخطب[1] العظيم كون الرّئيس ملعوناً وحاكي الرّئاسة في نفسه ملعوناً، والقاصد لها ملعوناً، كما في الكافي أيضاً في باب الرّئاسة عنه عن محمّد بن اسماعيل بن بزيع وغيره رفعوه قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: «**ملعون مَن ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدّث بها نفسه**».[2]

أقول: فاذا كان آخر الرّئاسة ملعنة وفخّاً من الشّيطان، فمابال الإنسان يميل الى مراضيها، مع انّه يعلم انّ الشّيطان للإنسان عدوّمبين. وقال بعض الأفاضل من العامّة[3]: انّ سبب ذلك، استعانة الشّيطان بأعوان من عند الإنسان، وترك استعانة الإنسان بالله فيستعين بشهوته الّتي خلقها الله فيه لمصالح بقائه و بقاء نوعه، ويجعلها سبباً لفساد حاله و يدعوه بها الى مسالك المهالك، وكذلك بغضبه الّذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه، ويجعله سبباً لو باله وفساد أحواله، وميل الإنسان الى المعاصي، كميل المريض الى المضار، وذلك حيث ينحرف المزاج عن الإعتدال، فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه ومن به فساد المعدة، فلايهضم القليل من الغذاء، يميل الى الأكل الكثير، ولايشبع

١. الظاهر كون «الخطر» صحيحاً، لاالخطب.
٢. أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٩٨.
٣. هو فخر الرّازي صاحب التفسير الكبير.

بشيء وهو يزيد في مغدته فساداً؛ وصحيح المزاج لايشتهي إلاّ ماينفعه؛ فالدّنيا كالهواء الوَبِيء، لايستغني الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولاطريق له غير اصلاح الهواء بالرّوائح الطّيّبة والأشياء الزكيّة والرّش بالخلّ، وماء الورد من جملة المصلحات، فكذلك الإنسان في الدّنيا، لايستغني عن أمورها وهي تبعات الشّيطان، وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذّكر الطّيب والزّهد، فاذا صحّ مزاج عقله، لايميل إلاّ الى الحقّ، ولايبقى عليه في التّكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلٰهيّة ألفة، وهنالك يعترف الشّيطان بأنّه ليس له عليه سلطان. انتهى.

ولقد أجاد فيما أفاد، حيث انّه مائل عن طريق الرّشاد.

والحاصل انّ الأخبار في ذمّ طلب الرّئاسة كثيرة، من أرادها فليطلب من مواردها وليعلم أيضاً انّه كما ظهر لك: انّ طلب الرّئاسة منهيّ عنه، فكذلك يظهر من الأخبار: انّ نصب الرّئيس أيضاً منهيّ عنه، و بقول بعض الأعاجم: «رئيس تراشي» (السعي لتَرؤُس شخص ما)، كما في الكافي أيضاً، محمدبن يحيى عن أحمد ابن محمّدبن عيسى عن الحسن بن أيّوب عن أبي عقيلة الصّيرفي، قال حدّثنا كرام عن أبي حمزة الثّمالي قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: «إيّاك والرّئاسة وإيّاك أن تطأ أعقاب الرّجال. قلت: جعلت فداك امّا الرّئاسة فقد عرفتها؛ وامّا أن أطأ أعقاب الرّجال فمائلنا مافي يدي إلاّ ممّا وطيء أعقاب الرّجال. فقال: ليس حيث تذهب، إيّاك أن تنصب رجلاً دون الحجّة فتصدّقه في كلّ ماقال»[١].

وفي خبر آخر: علي بن ابراهيم عن محمّدبن عيسى عن يونس عن أبي الرّبيع الشّامي عن أبي جعفر عليه السّلام، قال: قال لي: «ويحك يا أبا الرّبيع لا تطلبنّ الرّئاسة ولا تك ذنباً[٢]، ولا تأكل بنا النّاس، فيفقرك الله ولا تقل فينا مالانقول في أنفسنا، فانّك موقوف ومسؤول لامحالة، فان كنت صادقاً صدّقناك وإن كنت كاذباً كذّبناك»[٣]؛ وأيضاً علي بن ابراهيم عن محمّدبن عيسى عن يونس عن العلاء عن محمّدبن مسلم قال: سمعت أباعبدالله عليه

١. أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٩٨.
٢. في بعض النسخ (ذنباً) بفتح النون أي لا تكن تابعاً للجهّال.
٣. أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٩٨.

السلام يقول: «أترى لايعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله، وانّ شراركم من أحبّ أن يوطأ عقبه، انّه لابدّ من كذّاب أو عاجز الرّأي»[١].

أقول: كلمة يوطأ بصيغة المجهول ووطيء العقب، كناية عن الإتّباع، وآخر الحديث يحتمل معنيين كما ذكره بعض المفسّرين:

أحدهما: انّ من أحبّ أن يوطأ عقبه أي أحبّ أن يكون رئيساً لابدّ أن يكون كذّاباً، لأنّه اذا سئل فلابدّ أن يجيب وهو لايعلم جميع مايسأل عنه، فان أجاب عن كلّ مايسأل فلابدّ من الكذب وإن لم يجب عمّالايعلم فهو عاجز الرّأي لاعقل له.

وثانيهما: انّه لابدّ في الأرض من كذّاب يطلب الرّئاسة، ومن عاجز الرّأي يتبعه فمقتضى هذا التّفسير هو كون مدّعي الرّئاسة كاذباً وليس هذا إلاّ اختتال الدّنيا بالدّين[٢].

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ويل للّذين يختلون الدّنيا بالدّين»[٣]. و بعد تصوّر هذه المفاسد العظيمة لطلب الرّئاسة، كيف يحكم العقل بلذّاتها الفانية، نعوذ بالله من اتّباع الهوى.

ايقاظ

اعلم انّ أعظم المداخل الّتي يأتي الشّيطان من قبلها ثلاثة: الشهوة والغضب والهوى، فالشّهوة بهيمية، والغضب سبعيّة والهوى شيطانيّة. فالشّهوة آفة لكن الغضب أعظم منها، كما هو المحسوس في جميع الحيوانات بخلاف الغضب، فانّ السّبع له شهوة مع زيادة الغضب وهو السّبعيّة، والغضب آفة لكن الهوى أعظم منه، كما في الانسان، فانّه شريك مع الحيوانات في الصّفتين المذكورتين، مع زيادة الهوى، فانّ السّبع

١. أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٩٩.
٢. هو مافسّره الوافي.
٣. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

ليس فيه هوىٰ، والفحشاء من آثار الشّهوة، والمنكر من آثار الغضب، والبغي من آثار الهوى، ولذا قال الله «تعالى»: «إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ»[١]؛ فبالشّهوة يصير الإنسان ظالماً لنفسه و بالغضب يصير ظالماً لغيره، و بالهوى يتعدّى ظلمه الى حضرت جلال الرّبّ تعالى.

لذا ورد في الحديث: «انّ الظّلم ثلاثة: ظلم لايغفر، وظلم لايترك، وظلم عسى الله أن يتركه»[٢]. الأوّل: هو الشّرك بالله وهو ظلم لله تعالى. والثّاني: ظلم العباد بعضهم بعضاً فلابدّ من الجزاء ورضاء المظلوم، فانّه لايترك مالم يرض المظلوم. والثّالث: هو ظلم الإنسان نفسه فمنشأ الظّلم الّذي لايغفره هو الهوى، آهٍ من الهوى، ثمّ آهٍ من آثار الهوى ؛ ومنشأ الظّلم الّذي لايترك هو الغضب فانّ الإنسان اذا لم يغضب، لايظلم النّاس، ولذا لايصدر الظّلم من الحليم ومن يكون خلقه حسناً؛ ولذا ورد في الأخبار المعتبرة الكثيرة في مدح الحلم وحسن الخلق حتّى ورد: «انّ الحلم وزير العلم»[٣]؛ ومن كان عالماً ولم يكن حليماً كسلطان ليس له وزير فيكون أكثر خطأ من سلطان ذي وزير.

ومنشأ الظّلم الّذي عسى الله أن يغفره و يتركه هو الشّهوة، ثمّ لها نتائج، فالحرص والبخل نتيجة الشّهوة وهو من خواصّ سائر الحيوانات، كما هو المحسوس من حرصها للاكل و بخلها على رفيقها في الأكل؛ فانّا نرى بعضها يدفع بعضها ويمنعه عن الأكل.

والعجب والكبر نتيجة الغضب وهذا مختصّ بالإنسان ولايعرفها الحيوانات غالباً.

والكفر والبدعة نتيجة الهوى وذلك أيضاً من خواصّ الإنسان لاغيره، فانّ الهوى لايوجد إلاّ في الإنسان وكذا آثاره نتيجته؛ فلولا الهوى في رأس أبي جهل ومن حذى حذوه، لم يكفر؛ ولولا هوى الرّئاسة في الجبت والطّاغوت، لماارتكبوا أحداث البدع، ولما اجتمعت هذه السّتّة في بني آدم، تولّد منها سابع وهو الحسد، وهو نهاية الأخلاق

١. الكافي ج٢/٣٣١ وفي معناها كنزالعمال، خ٧٥٨٨.
٢. سورة العنكبوت/٤٥.
٣. بحار الأنوار: ج ٧١ ص٣٩٧.

الذميمة الّذي أهلك بعض علماء هذا الزّمان، فلولا يحسد بعضهم بعضاً وشمّروا ساعد الجدّ والاجتهاد في طريق الشرع وترو يج بعضهم بعضاً ومساعدة كلّهم كلاً، لارتفعت المكاره والمناكر من بين الرّعيّة، وقدقال عليّ عليه السلام: «**ستّة يدخلون النّار قبل الحساب الأُمراء بالجور، والعرب بالعصبيّة، والدّهاقين بالتّكبّر، والتّجار بالخيانة، وأهل الرّساتيق بالجهالة، والعلماء بالحسد**»[١].

والحاصل: انّ الحسد من أكمل الأخلاق المذمومة الرّذيلة، الّتي يترتّب عليه مضار كثيرة، كما انّ الشّيطان نهاية الأشخاص المذمومة وشغله الوسوسة، ولذا ختم الله مجامع الشّرور الانسانية بالحسد، حيث قال: «**ومن شرّحاسد إذا حسد**»، كما ختم مجامع الخبائث الشّيطانيّة بالوسوسة، حيث قال: «**ومن شرّالوسواس الخنّاس، الّذي يوسوس في صدور النّاس**». فظهر انّه ليس في بني آدم صفة أشرّمن الحسد، كما انّه ليس في الشّياطين أشرّمن الوسواس؛ بل قيل الحاسد أشرّمن ابليس، كما روي: انّ ابليس أتى باب فرعون وقرع الباب فقال فرعون : من هذا؟ قال ابليس : لوكنت إلهاً لماجهلتني، فلمّادخل قال فرعون: أتعرف في الأرض شرّاً منّي ومنك. قال: نعم الحاسد. و بالحسد وقعت في هذه المحنة .

فبالله عليكم أيّها العلماء: هل أحد فيكم يخلص من الحسد إذا كان طالباً للرّئاسة؟ سيّما رئاسة الكلّ في الكلّ، غاية مافي الباب، بعضكم لايرتّب عليه أثراً من الآثار؛ وذلك قليل منهم.

ومن أثر الحسد بين العلماء عدم إلتئام قلوب مريدي بعضهم مع مريدي بعض آخر؛ لأنّ النّاس على دين ملوكهم أي طاعة ملوكهم. ومن جملة خواصّ ملوك الطّوائفيّة أعني الـ«رّئيس تراشي» التولّي والتبرّي؛ العياذ بالله.

امّا حقيقة الحسد: هو ارادة زوال نعمة أنعم الله على أخيك المسلم وهو حرام بكلّ حال إلاّ ارادة زوال نعمة الفجّار والكفّار، الّذين يستعينون بتلك النّعمة على الشرّ والفساد في الأرض، والأذى على عباد الله المسلمين، فارادة زوال نعمتهم من حيث

١. تحف العقول: ص١٥٧.

انّها يتوسّل بها الى الأمور المذكورة، ليست داخلاً في الحسد؛ بل فيه نوع من الثّواب، لقلّة الأذى للعباد وارادة حسم مادّة الفساد، والآيات والأخبار الكثيرة تدلّ على ذمّ الحسد وهو من صفات الكفّار، حيث قال: «لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد»[١]. فأخبر الله «تعالى» النّبيّ صلّى الله عليه وآله بحبّ الكفّار زوال نعمة الإيمان عن المؤمنين، وسمّاه حسداً.

وهكذا قوله: «وودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء»[٢]؛ وقوله «تعالى»: «إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيّئة يفرحوا بها»[٣]؛ وهذا الفرح من الكفّار ليس إلاّ الحسد والشّماتة وهما متلازمان. وهكذا اخوان يوسف لمّا سمعوا وعرفوا حبّ يعقوب له، أزيد منهم؛ «اذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ الى أبينا منّا ونحن عصبة»[٤]، الى أن قالوا «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم» ؛ فبيّن الله «تعالى» انّ حسدهم له عبارة عن كراهتهم حصول نعمة الحبّ له؛ وأيضاً قال الله تبارك و«تعالى» في معرض الإنكار: «أم يحسدون النّاسَ على ما آتيٰهم الله من فضله»[٥]؛ وقوله «تعالى»: «وما تفرّقوا إلاّ من بعدما جائتهم البيّنات بغياً بينهم»[٦].

مانزّل الله العلم ليؤلف بينهم على طاعته، فتحاسدوا واختلفوا اذا أراد كلّ واحد أن ينفرد بالرّئاسة وقبول القول؛ وقوله: «إن يكفروا بما أنزل الله بغياً»[٧]؛ أي حسداً. وأوّل من صدر منه الحسد و يترتّب عليه الأثر ابن آدم حين حسد أخاه وقتله: «واتْلُ عَلَيهِم نَبأَ ابْني آدمَ بالحَقّ»[٨].

قال بعض العرفاء: ماحسدت أحداً على شيء من أمر الدّنيا، لأنّه إن كان من

١. سورة البقرة/١٠٩.
٢. سورة النساء/٨٩.
٣. سورة آل عمران/١٢٠.
٤. سورة يوسف/٩.
٥. سورة النساء/٥٤.
٦. سورة الشّورى/١٤.
٧. سورة البقرة/٩٠.
٨. سورة المائدة/٢٧.

أهل الجنَّة فكيف أحسده على الدّنيا وهي حقيرة في الجنَّة وإن كان من أهل النَّار فكيف أحسده على أمر الدّنيا وهو يصير الى النار. وقال بعضهم: الحاسد لاينال من المجالس إلاَّ مذمَّة وذلاً، ولاينال من الملائكة إلاَّ لعنة و بغضاً، ولاينال من الخلق إلاَّ جزعاً وغمّاً، ولاينال عند النَّزع إلاَّ شدَّة، وهو لايزيد عند الوقف إلاَّ فضيحة ونكالاً.

فظهر انَّ الصَّفة المذمومة الّتي صارت سبباً لقتل النَّفس هو الحسد، مع انَّه ورد في الأخبار النَّبويّة: «انَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب»[١]؛ وورد أيضاً «انَّه سيصيب أمّتي داء الأمم. قالوا: ماداء الأمم قال: الأشر والبطر والتّكاثر والتّنافس في الدّنيا والتّباعد والتّحاسد حتّى يكون البغي؛ ثم الهرج»[٢]؛ مع انَّ الحسود يكون مغتماً دائماً، اذ لايخلوا من انَّه يرى النَّاس بعضهم أعلى مرتبة منه دائماً و يذيب جسده أيضاً، لأنَّ الهمَّ والغمَّ يأكل مافي البطن. ومن جملة معائب الحسد كونه سبباً لاغتياب من كان محسوده قهراً، ومع هذه العيوب الكثيرة والقبائح العديدة، هو اعتراض على الله تبارك وتعالى، لأنَّه الّذي يعزّ من يشاء لاواضع لمن رفعه الله، كما انَّه لارافع لمن وضعه الله، وأزيد من ذلك قبحاً، كونه من كيد اليهود مع المسلمين، كما روي انَّ قحاص بن عاذوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمَّار بن ياسر بعد وقعة أُحد: ألم تروا ماأصابكم ولو كنتم على الحقّ ماهزمتم، فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقال عمَّار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فانّي قدعاهدت انّي لاأكفر بمحمَّد «ص» ماعشت. قال اليهود: امَّا هذا فقدصبأ وقال حذيفة: وامَّا أنا فقد رضيت بالله ربّاً و بالإسلام ديناً و بالقرآن إماماً و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين إخواناً، ثمَّ أتيا رسول الله صلَّى الله عليه وآله؛ وأخبراه فقال: «أصبتما خيراً وأفلحتما»؛ فنزل قوله «تعالى»: «ودَّ كثير من أهل الكتاب لويردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبيّن الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره انَّ الله على كلّ شيء قدير»[٣].

١. بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٢٥٥.
٢. الجامع الصغير ج ٢/١٤.
٣. سورة البقرة/١٠٩.

فمن أراد أن يكون متصفاً بصفات اليهود سيّما من صنف العلماء الّذين قال الله «تعالى»: «شَهِدَ ٱللَّهُ أنه لاإلهَ إلاّهُوَ والملائكة وَأولو العلم»[١]؛ «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[٢]. حيث قرن كفاية شهادتهم مع شهادته «تعالى»، بناء على ارادة التعميم من الآيات وقال: «يرفع الله الّذين آمنُوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات»[٣]؛ وقال: «هل يستوي الّذين يعلَمُون والّذين لايَعلمون»[٤]؛ وقال: «أطيعوا الله وأطيعوا الرّسولَ وأولى الأمرمنكم»[٥].

والمراد من أولى الأمر بناء على التّعميم العلماء، لأنّ الملوك يجب عليهم اطاعة العلماء ولاعكس. وهكذا الأخبار الواردة في تعريف العلم والعلماء وفضلهم على سائر النّاس، وهم كالعقل في عالم الشّهود فهو جزاء لقولنا فمن أراده مختارمنه يعرف تكليفه ولكن المصيبة العظمى والدّاهية الكبرى هو اتّباع العوام للعلماء في الصّفات المذمومة أيضاً، ويحتجّون بأنّ فلاناً مع كونه عالماً كيف يرتكبها ونحن لسنا أزيد منه مثلاً: العالم اذا كان صاحب مُلك ومال، ولم يرَ العوام منه اعطاء الزّكاة والخمس، فلابدّ يمشي على وتيرته، واذا رأى العالم راعي القرى وهويظلم الرّعيّة، فالحاكم الجائرلاحرج عليه لوظلم الرّعية بمعنى انّه لايذمّ اذا أورد عليه وإن كان معاقباً في الآخرة لظلمه المظلوم، فالعالم العاقل لايشترك مع اليهود في بعض الأوصاف الخبيثة المذمومة القبيحة، من الكبر والحسد والغلّ والغرور والحرص وحبّ المال والجاه، وغير ذلك من دواعي النّفس وحظوظها ومشتهياتها والسّبعيّة والبهيميّة، فانّ الإجتناب من هذه الصّفات الّتي بمنزلة الكلاب العاوية والحيّات الضّارية الموجبة للهلاك الحقيقي، أهمّ وأحرى وأليق وأولى، ولايحصل ذلك الإجتناب إلاّ باخراج حُبّ الدّنيا من سويدة القلب وقلع هذه الشجرة الخبيثة من أرض الباطن، فانّه مادام الإقبال على الدّنيا

١. سورة آل عمران/٧.
٢. سورة الرّعد/٤٣.
٣. سورة المجادلة/١١.
٤. سورة الزمر/٩.
٥. سورة النساء/٥٩.

متمكّناً في النّفس، لايمكن حسم موادّ هذه الأوصاف منها: وقدشبّه بعض الأصحاب من أهل التّحقيق، الّذين نفضوا عن ذيول سرائرهم غبارة هذه الخربة الدّنيّة وكحلوا عيون بصائرهم بكحل حقيقة الشّريعة المطهرة ذلك الحال: بحال شخص عرض له أمر مهمّ يحتاج الى فكر دقيق وتأمّل رشيق فأراد أن يصفو وقته ويجمع باله للتفكّر في ذلك، فجلس تحت شجرة واشتغل بالفكر فيه، فكانت العصافير وغيرها من الطّيور تجتمع على تلك الشّجرة فتشوّش عليه فكره بأصواتها، وتكدّر وقته، فأخذ خشبة وضرب بها الشّجرة، فهربت العصافير والطّيور عنها.

ثمّ اشتغل مرّة ثانية بفكره وتأمّله، فعادت العصافير كما كانت، فطردها مرّة ثانية، فعادت أيضاً، وهكذا مراراً فقال له شخص: ياهذا إن أردت التخلّص منها، فاقلع الشّجرة من أصلها، وانّها مادامت باقية فالعصافير والطّيور تجتمع عليها حتماً، فقام فقطع أو قلع الشّجرة فاستراح.

فأنتم أيّها العلماء وإن كان خلافاً للأدب أن أنصحكم ولكنّي من باب التّذكّر أقول: اقلعوا عن بستان قلوبكم الظّاهرة المملوءة بالعلوم الرّبانيّة شجرة حبّ الرّئاسة الدّنيويّة، وبعده لا تبقى صفة ذميمة إلاّ وتزول تبعاً لزوال حبّ الرّئاسة «فحينئذ» لايفسق أحد أحداً ولايكفره أبداً.

ولقد أعجبني تشبيه بعضهم ذلك بقصة الكردي الّذي قتل أمّه، كما حكي: انّ أحداً من الأكراد كانت أمّه معروفة بعدم العفّة وتدنّس الأوزار وكان النّاس يعيرونه بذلك وهو يتوقّع الفرصة لحسم المسألة، فدخل يوماً الى البيت فوجد مع أمّه رجلاً يزني بها، فشقّ بالسّكين بطن أمّه واستراح من شنعتها، فقال له بعض أصحابه: ان قتلت الرّجل كان أولى من قتل أمّك، فانّه أمر مستقبح فقال: انّي لولم أقتلها كان يلزمني أن أقتل كلّ يوم رجلاً جديداً وذلك لايتناهى الى حدٍّ، فقتل واحد خير من قتل جمع وأولى. وقدنظم الشّيخ البهائي «ره» تلك القصّة في كتابه الموسوم بـ«سوانح سفر الحجاز»:

كان في الأكراد شخص ذوسداد ... أمّه ذات اشتهار بالفساد
لم تخيّب من نوال طالباً ... لم تكف عن وصال راغباً

دارها مفتوحة للدّاخلين ... رجلها مرفوعة للفاعلين
فهي مفعول بها في كلّ حال ... فعلها تمييز أفعال الرّجال
كان ظرفاً مستقراً وكرها ... جاء زيد قام عمرو ذكرها
جاءها بعض اللّيالي ذو أمل ... فاعتراها الإبن في ذاك العمل
شقّ بالسّكّين فوراً صدرها ... في محاق الموت أخفى بدرها
مكّن الغليان من أحشائها ... خلّص الجيران من فحشائها
قال بعض القوم من أهل الملام ... لِمْ قَتَلتَ الأمّ ياهذا الغلام
كان قتل المرء أولى يافتى ... إنّ قتل الأمّ شيء ماأتى
قال ياقوم اتركوا هذا العتاب ... انّ قتل الأمّ أدنى للصّواب
كان لو أبقيتها فيما تريد ... كلّ يوم قاتلاً شخصاً جديد
انّها لو لم تذق حدّ الحسام ... كان شغلي دائماً قتل الأنام
أيّها المأثور في قيد الذّنوب ... أيّها المحروم من ستر العيوب
أنت في أسر الكلاب العاوية ... من قوى النّفس الكفور الجانية
كلّ صُبح مع مساء لايزال ... من دواعي النّفس في قيل وقال
كلّ داع حيّة ذات التقام ... قل مع الحيّات كم هذا المقام
فاقتل النّفس الكفور الجانية ... قتل كرديّ لأمٍّ زانيّة
أيّها السّاقي أدر كأس المدام ... واجعلن في دورها عيشي مدام
خلّص الأرواح من قيد الهموم ... أطلق الأشباح من أسر الغموم
فالبهائي الحزين الممتحن ... من دواعي النّفس في أسر المحن

ايقاظ

يجب على العالم الزُّهد في الدّنيا وهو على ماحقّقه أهل العلم جميعاً ليس مجرّد التزهّد، بل له علامات وشواهد في الدّنيا، وثمرات وآثار في الأخرى، وقد بيّنها أزهد الزّاهدين أبو الأئمة الرّاشدين سلام الله عليه في بعض خطبه: «انّ علامة الزّاهدين في الدّنيا الرّاغبين في الأُخرى، تركهم كلّ خليط وخليل ورفضهم كلّ صاحب لايريدمايريدون، ألاوانّ

العامل لثواب الآخرة هو الزّاهد في عاجل زهرة الحيٰوة الدّنيا، الأخذ للموت أُهبة[١] الحاثّ على العمل قبل فناء الأجل، ونزول مالابدّ من لقائه وتقديم الحذر قبل الحين، فانّ الله جلّ وعزّ يقول: «حتّى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعونِ لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت»[٢]. فلينزلنّ أحدكم اليوم نفسه كمنزلة المكرور الى الدّنيا، النّادم على مافرّط فيها من العمل الصّالح ليوم فاقته.

واعلموا عباد الله، انّه من خاف البيات، تجافى عن الوساد، امتنع عن الرّقاد، وامسك عن بعض الطّعام والشّراب من خوف سلطان أهل الدّنيا، فكيف ويحك يا ابن آدم من خوف بيات سُلطان، ربّ العزّة وأخذه العليم وبياته لأهل المعاصي والذنوب، مع طوارق المنايا باللّيل والنّهار، فذلك البيات، الّذي ليس منه منجي، ولادونه ملتجأ ولامنه مهرب، فخافوا الله أيّها المؤمنون: من البيات خوف أهل اليقين وأهل التّقوىٰ، فانّ الله يقول: «ذٰلِكَ لمن خافَ مقامِي وخافَ وعيد»[٣]. فاحذروا زهرة الحيٰوة الدّنيا وغرورها وشرورها، وتذكّروا ضرر عاقبة الميل إليها، فانّ زينتها فتنة وحبّها خطيئة.

واعلم: ويحك يا ابن آدم، انّ قسوة البطنة وفترة الميلة وسكرة الشّبع وغرة الملك، ممّا يثبّط[٤] ويبطيء عن العمل وينسي الذّكر ويلهي عن اقتراب الأجل، حتّى كأنّ المبتلى بحبّ الدّنيا به خبل[٥] من سكر الشّراب، وانّ العاقل عن الله، الخائف منه، العامل له ليمرّنّ نفسه و يعوّدها الجوع، حتّى ماتشتاق الى الشّبع، وكذلك تضمّر الخيل لسبق الرّهان، فاتّقوا الله عباد الله، تقوى مؤمّل ثوابه وخاف عقابه، فقد لله أنتم أعذر وأنذر وشوق وخوف، فلاأنتم الى ماشوّقكم اليه من كريم ثوابه تشتاقون فتعملون، ولاأنتم ممّا خوّفكم به من شديد عقابه وأليم عذابه ترهبون فتنكلون، وقد نبّأكم الله في كتابه: «فمن يعمل من الصّالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنّا له كاتبون»[٦]؛ ثمّ ضرب لكم الأمثال في كتابه وصرّف الآيات لتحذروا عاجل زهرة الحيٰوة الدّنيا، فقال: «إنّما أموالكم وأولادكم فتنة وانّ الله عنده أجر عظيم»[٧].

١. أهبة من التهيّؤ من مادة أهبة وهو عدة «مجمع البحرين». أهبّ وتأهبّ للأمر: تهيأ واستعد الأهبة: العُدّة. «المنجد».
٢. سورة المؤمنون/٩٩.
٣. سورة ابراهيم/١٤.
٤. يثبط، ثبّطه عن الأمر أي أثقله وأقعده «مجمع البحرين».
٥. خبل، خبله واختبله، اذا فسد عقله «مجمع البحرين».
٦. سورة الأنبياء/٩٤.
٧. سورة الأنفال/٢٨.

فاتّقوا الله ماستطعتم واسمعوا وأطيعوا فاتّقوا الله واتّعظوا بمواعظ الله وما أعلم إلاّ كثيراً منكم. قد نهكته عواقب المعاصي ممّا حذرها وأضرّت بدينه فامقتها، أما تسمعون النّداء من الله بغشيها وتصفيرها، حيث قال: «إنّما الحَيٰوة الدّنيا لَعِبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غَيثٍ أعجبَ الكُفّارَ نباتُه، ثمّ يَهيجُ فَتَريهُ مُصْفرّاً، ثُمّ يكون حُطاماً وفي الآخرة عَذابٌ شَديدٌ ومغفرَةٌ من الله ورضوان وما الحيٰوة الدّنيا إلاّ متاعُ الغرورِ سابقوا الى مغفرة من ربّكم وجنّةٍ عرضها كعرضِ السّماءِ والأرض أعدّتْ للّذِينَ آمَنوا باللهِ ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم»[١]؛ وقال: «ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظرْ نفسٌ ماقدّمت لغدٍ واتّقوا الله انّ الله خبيرٌ بما تعملون * ولا تكونُوا كالّذين نسُوا الله فأنسيهُم أنفُسهم أولئك هم الفاسقون»[٢].

فاتّقوا الله عباد الله وتفكّروا واعملوا لما خلقتم له، فانّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدىً، قد عرفكم نفسه وبعث إليكم رسوله وأنزل عليكم كتابه، فيه حلاله وحرامه، وحججه وأمثاله، فاتّقوا الله، فقد احتجّ عليكم ربّكم فقال: «ألَمْ نجعل له عينينِ ولساناً وشفتينِ وهديناهُ النّجدينِ»[٣]؛ فهذه حجّة عليكم، فاتّقوا الله ماستطعتم، فانّه لاقوّة إلاّ بالله، ولا تكلان إلاّ عليه، وصلّى الله على محمّد وآله».[٤]

ايقاظ

ومن جملة خواصّ بعض علماء الزّمان، انّهم يحسنون لمن أحسن لهم ويحبّون من أحبّهم، و يسلّمون على من قلّدهم، و يتعارفون على من تملّقهم، و يراعون من تابعهم، و يقطعون عمّن قطع عنهم، و يتواضعون لأهل الثّروة و يستصغرون أهل الفقر والفاقة، و يولّون عمّن علموا منه الإحتياج اليهم، و يترددون الى حضور من حضر عندهم، وهذا

١. سورة الحديد/٢٠-٢١.
٢. سورة الحشر/١٨-١٩.
٣. سورة البلد/٨-١٠.
٤. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

خلاف ماأمروا به من الشّرع الشّريف، ومضادّ الطريقة الحنيفة من الأوّلين والآخرين، أومايكفيكم من الوعظ قول المسيح عيسى بن مريم على نبيّنا وآله وعليه السّلام: «يابني اسرائيل أما تستحيون من الله، انّ أحدكم لايسوغ له شرابه حتّى يصفيه من القذاء، ولايبالي أن يبلغ أمثال الفيلة من الحرام، ألم تسمعوا انّه قيل لكم في التّورٰية: «صلوا أرحامكم وكافئوا أرحامكم» وأنا أقول لكم: «صلوا من قطعكم واعطوا من منعكم، وأحسنوا الى من أساء إليكم، وسلّموا على من سبّكم، وأنصفوا من خاصمكم، واعفوا عمّن ظلمكم، كما انّكم تحبّون أن يعفى عن اساءتكم، فاعتبروا بعفو الله عنكم، ألا ترون ان شمسه أشرقت على الأبرار والفجّار منكم، وانّ مطره على الصّالحين والخاطئين منكم، فان كنتم لاتحبّون إلاّ من أحبّكم، ولاتحسنون إلاّ من أحسن إليكم ولا تكافئون إلاّ من أعطاكم، فافضلكم اذاً على غيركم، قديتّصف بهذا السّفهاء، الّذين ليست عندهم فضول ولاهم أحلام، ولكن إن أردتم أن تكونوا أحبّاء الله وأصفياء الله، فأحسنوا إلى مَن أساء إليكم، واعفوا عمّن ظلمكم وسلّموا على مَن أعرض عنكم، إسمعوا قولي واحفظوا وصيّتي وارعوا عهدي، كيماتكونوا علماء فقهاء.

بحقّ أقول لكم انّ قلوبكم بحيث تكون كنوزكم ولذلك النّاس يحبّون أموالهم وتنوق[1] إليها أنفسهم، فضعوا كنوزكم في السّماء، حيث لايأكلها السّوس ولاينالها اللّصوص.

بحقٍّ أقول لكم: إنّ العبد لايقدر على أن يخدم ربّين، ولامحالة انّه يوثر أحدهما على الآخر وإن جهد، كذلك لايجتمع لكم حبّ الله وحبّ الدّنيا.

بحقٍّ أقول لكم: انّ شرّ النّاس لرجل عالم آثر دنياه على علمه، فأحبّها وطلبها وجهد عليها، حتّى لواستطاع أن يجعل النّاس في حيرة، لفعل وماذا يغني عن الأعمى سعة نور الشّمس وهو لايبصرها، كذلك لايغني عن العالم علمه، اذ هو لم يعمل به، ماأكثر ثمار الشّجر وليس كلّها ينفع و يؤكل، وماأكثر العلماء وليس كلّهم ينتفع بماعلم، وماأوسع الأرض وليس كلّها تسكن، وماأكثر المتكلّمين وليس كلّ كلامهم صدقاً، فاحتفظوا من العلماء الكذبة، الّذين عليهم ثياب الصّوف، ومنكّسورؤوسهم الى الأرض، يزودون به الخطايا، يرمقون من تحت حواجبهم، كماترمق الذّئاب وقولهم يخالف فعلهم، وهل يجتنى من العوسج العنب ومن الحنظل التين؛ وكذلك لايأثم قول العالم الكاذب إلاّ وزراً، وليس كلّ من يقول[2]

١. تنوق إليها: تنوق عمله بأحكام وانق «بالفتح» الفرح والسرور «مجمع البحرين».
٢. الظاهر: وليس كلّ من يقول يصدق.

بحق أقول لكم: انّ الزّرع ينبت في السّهل ولاينبت في الصّفا، وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار. ألم تعلموا انّه من شمخ برأسه الى السّقف شجّه، ومن خفض برأسه عنه، استظلّ تحته وأكنّه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه ومن تواضع لله رفعه، واعلموا انّه ليس على كلّ حال يصلح العسل في الزقاق [١]؛ وكذلك القلوب ليس على كلّ حال تعمر انّ الزق مالم يتخوق أو يقحل [٢] أو يتكل، فسوف يكون للعسل وعاء، وكذلك القلوب مالم تخرقها الشّهوات و يدنّسها الطّبع و يفنيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة «الى أن قال» ياعلماء السوء لاتحدّثوا أنفسكم، انّ آجالكم تستأخر من أجل، وانّ الموت لم ينزل بكم، فكأنّه قد حلّ بكم فأظعنكم، فمن الآن فاجعلوا الدّعوة في آذانكم، ومن الآن فنوحوا على أنفسكم، ومن الآن فابكوا على خطاياكم، ومن الآن فتجهّزوا وخذوا أهبتكم وبادروا التّوبة الى ربّكم.

بحقٍّ أقول لكم: كما انّه ينظر المريض الى طيب الطّعام فلايلتذّ مع مايجده من شدّة الوجع، كذلك صاحب الدّنيا لايلتذّ بالعبادة ولايجد حلاوتها، مع مايجد من حبّ المال، وكما يلتذّ المريض نعت الطّبيب العالم بمايرجوا فيه من الشّفاء، فاذا ذكر مرارة الدّواء وطعمه، كدر عليه الشّفاء، كذلك أهل الدّنيا يلتذون ببهجتها وأنواع مافيها، فاذا ذكروه فجأة الموت كدرها عليهم وأفسدها.

بحقٍّ أقول لكم: انّ كلّ النّاس يبصر النّجوم ولكن لايهتدي بها إلاّ من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك تدرسون الحكمة ولكن لايهتدي لها منكم إلاّ من عمل بها، و يلكم ياعبيد الدّنيا!

بحقٍّ أقول لكم: انّ النّاس في الحكمة رجلان، فرجل أتقنها بقوله وضيّعها بسوء فعله، ورجل أتقنها بقوله وصدّقها بفعله وشتّان بينهما، فطوبى للعلماء بالفعل، وو يل للعلماء بالقول.

بحقٍّ أقول لكم: من لاينق من زرعه الحشيش، يكثر فيه حتّى يغمره فيفسده، وكذلك من لايخرج من قلبه حبّ الدّنيا يغمره حتّى لايجد حبّ الآخرة طعماً، ياعبيد الدّنيا! اتّخذوا مساجد ربّكم سجوناً لأجسادكم، واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتّقوى ولاتجعلوا قلوبكم مأوى للشّهوات.

بحقٍّ أقول لكم: انّ أجزعكم على البلاء لأشدّكم حبّاً للدّنيا؛ وإنّ أصبركم على البلاء لأزهدكم

١. ومنه حديث علي عليه السّلام: أمكن اليتامى من رؤوس الزقاق يلعقونها أي زقاق العسل التي جاءوا بها من همدان وحلوان الى أميرالمؤمنين عليه السّلام. «مجمع البحرين».

٢. قحل يقحل إذا لزق جلده بعظمه من الهزال، قحل بالفتح يقحل قحولة، يبس «مجمع البحرين».

في الدّنيا؛ ويلكم ياعلماء السّوء !ألم تكونوا أمواتاً فأحياكم، فلمَّا أحياكم متّم؛ ويلكم ! ألم تكونوا أميّين فعلمكم، فلمَّا علَّمكم نسيتم. ويلكم ! ألم تكونوا عمياً فبصّركم فلمَّا بصّركم عميتم. ويلكم ! ألم تكونوا صمَّاً فأسمعكم فلمَّا أسمعكم صممتم. ويلكم ! ألم تكونوا بكماً فأنطقكم فلمَّا أنطقكم بكمتم. ويلكم ! ألم تستفتحوا فلمَّا فتح لكم نكصتم على أعقابكم. ويلكم ! ألم تكونوا أذلَّة فأعزّكم فلمَّا عززتم قهرتم واعتديتم وعصيتم. ويلكم ! ألم تكونوا مستضعفين في الأرض تخافون أن يتخطَّفكم النَّاس فنصركم وأيَّدكم، فلمَّا نصركم استكبرتم وتجبّرتم. فياويلكم ! من ذلّ يوم القيامة كيف يهينكم ويصغركم. وياويلكم ! ياعلماء السّوء: أنّكم لتعملون عمل الملحدين وتأملون أمل الوارثين، وتطمئنّون بطمأنينة الآمنين، وليس أمر الله على ماتمنّون وتتخيّرون، بل للموت تتوالدون وللخراب تبنون وتعمرون، وللوارثين تمهّدون.

بحقٍّ أقول لكم: ماذا يغني عن الجسد اذا كان ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً، وماتغني عنكم أجسادكم اذا أعجبتكم وقدفسدت قلوبكم، ومايغني عنكم، أن تنقون جلودكم وقلوبكم دنسة.

بحقٍّ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج الدّقيق الطيّب ويمسك النّخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم.

بحقٍّ أقول لكم: انَّ الّذي يخوض النَّهر لابدَّ أن يصيب ثوبه الماء وإن جهد أن لايصيبه، كذلك من يحبّ الدّنيا لاينجو من الخطايا ياعبيد الدّنيا ! كيف يدرك الآخرة من لا تنقص شهوته من الدّنيا، ولا تنقطع منها رغبته.

بحقٍّ أقول لكم: ياعبيد الدّنيا ! ماالدّنيا تحبّون ولاالآخرة ترجون، لوكنتم تحبّون الدّنيا أكرمتم العمل الّذي به أدركتموها، ولوكنتم تريدون الآخرة، عملتم عمل من يرجوها، ياعبيد الدّنيا ! انَّ أحدكم يبغض صاحبه على الظنّ ولايبغض نفسه على اليقين.

بحقٍّ أقول لكم: انَّ أحدكم ليغضب إن ذكر له بعض عيوبه وهي حقّ، ويفرح إذا مدح بماليس فيه.

بحقٍّ أقول لكم: انَّ الأجر محروص عليه ولايدركه إلاّ من عمل له. «الى أن قال». طوبى لمن تعلّم من العلماء ماجهل، وعلّم الجاهل ممَّا علم، طوبى لمن عظّم العلماء لعلمهم، وترك منازعتهم، وصغر الجهال لجهلهم ويطردهم ولايقرّبهم ولايعلّمهم. «الى أن قال».

يقول الله تبارك و«تعالى»: «يحزن عبدي المؤمن ان أصرف عنه الدّنيا، وذلك أحبّ مايكون إليّ

وأقرب مايكون منّي، ويفرح ان أوسّع عليه في الدّنيا، وذلك أبغض مايكون اليّ وأبعد مايكون منّي».

أقول: ومن هذا ظهر انّ توسيعه تعالى للكفّار في الدّنيا أبغض ماعنده وأبعد مايكون منه «تعالى»، فلو كان للدّنيا وقع عنده بقدر جناح بعوضة لما يعطي للكفّار شربة ماء؛ بل يقول «تعالى» شأنه: «إنّما نُمْلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم في الآخرة عذاب شديد»[١].

وامّا الّذي ورد عن الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين في مراعاة حقوق النّاس قال في تعداد الحقوق:

وامّا حقّ الخصم المدعى عليك فان كان مايدّعي عليك حقّاً لم تنفسخ في حجّته ولم تعمل في ابطال دعوته وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها والشاهد له بحقّه دون شهادة الشّهود، فانّ ذلك حقّ الله عليك، وإن كان مايدّعيه باطلاً، رفقت به وروعته وناشدته[١] بدينه، وكسرت حدّته عنك بذكر الله، وألقيت حشو الكلام ولغطه[٢] الّذي لايرد عنك عادية[٣] عدوك؛ بل تبوء بأثمه وبه يشحذ عليك[٤] سيف عداوته، لأن لفظة السّوء تبعث الشرّ والخير مقمعة للشرّ، ولاقوّة إلاّ بالله.

وامّا حقّ الخصم المدّعى عليه، فإن كان مايدّعيه حقّاً أجملت في مقاولته[٥] بمخرج الدّعوى، فانّ للدّعوى غلظة في سمع المدّعى عليه، وقصدت قصد حجّتك بالرّفق، وأمهل المهلة وأبين البيان وألطف اللّطف، ولم تتشاغل عن حجّتك بمنازعة بالقيل والقال، فتذهب عنك حجّتك ولايكون لك في ذلك درك، ولاقوّة إلاّ بالله.[٦]

وامّا حقّ من ساءك القضاء على يديه بقول أو فعل فان كان تعمّدها كان العفو أولى بك لمافيه له من الطّمع وحسن الأدب مع كثير أمثاله من الخلق، فانّ الله يقول:

١. سورة آل عمران/١٧٨.

١. روعه: أفزعه. وناشدته بدينه: حلفته وطلبته به.

٢. اللغط: كلام فيه جلبة وأختلاط ولايتبيّن. وفي بعض النسخ: ولفظه.

٣. عادية عدوك: أي حدته وغضبه، عادية السمّ: ضرره.

٤. يشحذ عليك أي يغضب وأصله من شحذ السكّين ونحوه: أحدّه.

٥. المقاولة: المجادلة والمباحثة.

٦. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٩٢.

«ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل» -الى قوله- «من عزم الأمور»[١]؛ وقال جلّ وعزّ: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين»[٢]؛ هذا في العمد وإن لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمّد الإنتصار منه، فتكون قد كافأته في تعمّد على خطأ، ورفقت به ورددته بألطف ماتقدر عليه، ولاقوّة إلاّ بالله.

وامّا حقّ أهل ملّتك عامّة، فاضمار السّلامة ونشر جناح الرّحمة والرّفق بمسيئهم وتالّفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم الى نفسه وإليك، فانّ احسانه الى نفسه، احسانه اليك اذا كفّ عنك أذاه، وكفاك مؤنته وحبس عنك نفسه، فعمهم جميعاً بدعوتك وانصرهم جميعاً بنصرتك وأنزلهم جميعاً منك منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد وصغيرهم بمنزلة الولد وأوسطهم بمنزلة الأخ. فمن أتاك تعاهد بلطف ورحمة. وصل أخاك بما يحبّ الأخ لأخيه[٣].

أقول: فبالله عليكم أيّها العلماء مالكم في هذه الدّنيا الدنيّة لايصدق أحد منكم أحداً في علمه وزهده؛ بل في تديّنه وعدله، أليس هذا إلاّ من جهة الرّئاسة الدّنيّة المذمومة، وان يكون توجّه النّاس من العوام والخواص والأعيان والتجّار إليكم، مع انّه لايترتّب على اخلاصهم ثمرة إلاّ الزّخارف الدّنيويّة، تأخذون منهم وتعطونها لغير المستحقّين. وقدقال عليّ أميرالمؤمنين عليه السّلام: «فانّ اعطائك المال في غير وجهه تبذير واسراف وهو يرفع ذكر صاحبه في النّاس ويضعه عند الله ولم يضع امرءٌ ماله في غير حقّه وعند غير أهله، إلاّ حرّمه شكرهم وكان خيره لغيره، فان بقي معه منهم من يريه الودّ ويظهر له الشّكر، فانّما هو ملق وكذب. وإنّما يقرب لينال من صاحبه مثل الّذي كان يؤتى اليه قبل، فان زلّت بصاحبه القدم واحتاج الى معونته ومكافاته؛ فشرّ خليل والأم خدين»[٤]؛ مقاله جهّال مادام عليهم منعماً، وهو عن زلّة الله بخيل. فأي حظٍّ أبور وأخسّ من هذا الحظّ، وأيّ معروف أضيع؟ وأقلّ عائدة من هذا المعروف. انتهى.

١. سورة الشّورى/٤١.
٢. سورة النحل/١٢٦.
٣. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٩٤.
٤. نهج البلاغة: صبحي صالح طبع بيروت ١٣٨٧هـ مقتبس من كلام له عليه السّلام ١٢٦ ص١٨٣.

اعلموا أيّها الرّؤساء انَّ الذين يدورون حولكم و يقبّلون أيديكم و يقولون: يامولاي و ياسيّدي. والله لونقص من موظّفاتهم أو شهريّاتهم شيء، يغتابوكم وراءكم؛ بل تفسّقون؛ قال عليّ عليه السّلام: «احذر ممّن أحسنت اليه»[1]؛ يعني إذا قطعت عنه احسانك يكون عدوّاً بيّناً لك، واذا خرجتم الى الصّلوٰة يحولوا حولكم و يعرفوكم على من لم يعرفوكم واذا دخلتم المسجد أو المصلّى يفروا عن صلوٰتكم وإن كان ولابدّ راهم أحد لايصلّي وراءك ، يصلّون خوفاً منه، ثمَّ يعادون وأنتم نيام وهؤلاء الّذين خلفكم ووراءكم مستيقظون، لاحول ولاقوّة إلاَّ بالله من أهل هذا الزّمان، سيَّما عن الّذين ليس لهم شغل شاغل إلاَّ تعريف العالم الّذي مدار عيشه منه، ودوران معيشته بكيفيّة خاصّة، الّتي لايعلمها إلاَّ هو من بيت مال المسلمين، ولعمر أبيك انَّه ليس حبّ العالم لعلمه؛ بل حبّ لدنياه وتظهر الثّمرة عند نقص شيء من معتاده، فنعوذ بالله، ولعمري رأيت النّاس قدتفرّقوا عن رئيس وقع مريضاً سنوات عديدة، ليأسهم عنه خيراً، لاحول ولاقوّة إلاَّ بالله، ورأيت بعض النّاس مفلساً في أمان الله، فبمجرّد كونه خادماً لباب عالم، صار معتبراً ومتموّلاً حلّت البركة لمثل هذه التّجارة الّتي رأس مالها ومنافعها من دم كبد الفقراء والضّعفاء، المستحقّين غير المعروفين عندهم، الّذين يحسبونهم العلماء الرّؤساء أغنياء من التّعفّف؛ لاحول ولاقوّة إلاَّ بالله.

ايقاظ

يشتمل على آداب المعلّم والمتعلّم على وجه الإختصار؛ قال: في منهاج النّجاة: انَّ أدب العالم سبعة: الإحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمة الوقار، مع إطراق الرّأس وترك التّكبّر على جميع العباد إلاَّ على الظّلمة، زجراً لهم على الظّلم، وإيثار التّواضع في المحافل والمجالس، وترك الهزل والدّعابة، والرّفق بالمتعلّم والتأنّي

١ . لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

بالمتعجرف واصلاح البليد بحسن الإرشاد وترك الحرد عليه وترك الألفة من قول لاأدري، وصرف الهمّة الى السّائل وتفهم سؤاله، وقبول الحجّة والإنقياد الى الحقّ بالرجوع إليه عند الهفوة، ومنع المتعلّم من كلّ علم يضرّ وزجره عن أن يريد بالعلم النّافع غير وجه الله، وصدّ المتعلّم عن أن يشتغل بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين، وفرض عينه اصلاح ظاهره و باطنه بالتّقوى، ومؤاخذة نفسه أوّلاً بالتّقوى ليقتدي المتعلّم أوّلاً بأعماله و يستفيد ثانياً من أقواله.

قال مولانا زين العابدين عليه السّلام: «وامّا رعيّتك بالعلم، فان تعلم انّ الله «تعالى» إنّما جعلك قيّماً لهم فيما آتاك من العلم وفتح لك من خزانة الحكمة، فان أحسنت في تعليم النّاس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم، زادك الله من فضله، وانّك ان منعت النّاس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك، كان حقّاً على الله أن يسلبك العلم وبهاءه و يسقط من القلوب محلّك»؛ وقال «ع» في رسالة تعداد الحقوق: «وامّا حقّ رعيّتك بالعلم فان تعلم انّ الله قد جعلك لهم فيما أتاك من العلم وولاّك من خزانة الحكمة فان أحسنت فيما ولاّك الله من ذلك وقمت به لهم مقام الخازن الشّفيق، النّاصح لمولاه في عبيده، الصّابر المحتسب الّذي اذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال الّتي في يديه راشداً، وكنت لذلك آملاً معتقداً وإلاّ كنت له خائناً ولخلقه ظالماً ولسلبه وعزّه متعرّضاً»[1].

وامّا آداب المتعلّم مع العالم: أن يبدأه بالتحيّة والسّلام وأن يقلّ بين يديه الكلام، ولايتكلّم مالم يسأله أستاذه، ولايسأل مالم يستأذن أوّلاً، ولايقول في معارضة قوله: قال فلان خلاف ماقلت. ولايشير عليه بخلاف رأيه فيرى انّه أعلم بالصّواب من أستاذه ولايسار عليه في مجلسه ولايلتفت الى الجوانب، بل يجلس متأدّباً مطرقاً كأنّه في الصّلوٰة ولايكثر عليه عند قوله. واذا قام قام له ولم يتبعه بكلامه سؤاله، ولايسأله في طريقه الى أن يبلغ الى منزله، ولايسيء الظنّ به في أفعال ظاهرها منكر عنده، فهو أعلم بأسراره وليتذكّر عند ذلك قول موسى للخضر عليه السّلام: «أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً»[2]؛ وكونه مخفيّاً في انكاره، اعتماداً على الظّاهر، وقال «ع» في تعداد الحقوق: «وامّا

١. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٨٨.
٢. سورة الكهف/٧١.

حقّ من سايسك بالعلم، فالتّعظيم له والتّوقير لمجلسه وحسن الإستماع والإقبال عليه والمعاونة له على نفسك فيما لاغنى بك عنه من العلم، فأن تفرّغ له عقلك وتحضره فهمك وتذكّي ذهنك وتجلّي له بصرك بترك اللّذات ونقص الشّهوات، وإن تعلم انّك فيما ألقى رسوله الى من لقيك من أهل الجهل فلزمك حسن التّأدية عنه إليهم ولاتخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه اذا تقلدتها، ولاحول ولاقوّة إلاّ بالله»[١].

أقول: ولمّا كان المتعلّمون الجالسون في مجلس الدّرس، داخلين في عنوان مطلق الجليس: فالأولى لهم مراعات حقّ الجليس أيضاً، كما قال الامام عليه السّلام:

وامّاحق الجليس فان تلينَّ له كنفك[٢] وتطيّب له جانبك وتنصفه في مجاراة اللّفظ، ولا تغرق في نزع اللّحظ اذا لحظت وتقصد في اللّفظ الى افهامه اذا لفظت، وإن كنت الجليس اليه كنت في القيام عنه بالخيار وإن كان الجالس إليك كان بالخيار ولا تقوم إلاّ باذنه. ولاقوّة إلاّ بالله[٣].

أقول: أيضاً المتعلمين في مجلس الدّرس يكون بعضهم مصاحباً بعض آخر، فيدخل كلّ منهما في عنوان الصّاحب، فاللاّزم عليهم مراعات حقوق الصاحب أيضاً بعنوان الصّحبة قال عليه السّلام:

وامّا حقّ الصّاحب فان تصحبه بالفضل ماوجدت اليه سبيلاً، وإلاّ فلاأقلّ من الإنصاف وان تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك، ولايسبقك فيما بينك وبينه الى مكرمة، فان سبقك كافأته ولا تقصر به عمّا يستحقّ من المودّة. تلزم نفسك نصيحته وحياطته ومعاضدته على طاعة ربّه ومعونته على نفسه فيما لايهمّ به من معصية ربّه، ثمّ تكون رحمة ولا تكون عليه عذاباً، ولاقوّة إلاّ بالله[٤].

١. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٨٧.
٢. الكنف: الجانب والظلّ.
٣. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٩١.
٤. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٩١.

ايقاظ

للّذين أبواهم موجودان حيّان اعلم: انَّ أدب الولد مع الوالدين أن يستمع كلامهما ولايردّه إليهما، و يقوم اذا رآهما ويمتثل أمرهما ولايرفع صوته فوق صوتهما، ولايقول أفٍّ لهما واذا دعياه لبّاهما، ويخفض لهما جناح الذّلّ و يسعى بما كان فيه رضاهما، ولايمنّ عليهما اذا برّهما و يرحمهما في كلّ وقت سيّما في حالة شيخوختهما، واذا مرضا يسعى الى عيادتهما و يشربهما الدّواء يعني دواء الشّفاء والصّحة لادواء الخلاص من زحماتهما، فانَّ الله تعالى أوصى لهما في القرآن في سبع آيات للأولاد، فببالي انَّ خمسة منها مختصة توصيه بالأم فقط وآيتان لهما أو بالعكس ولاينظر اليهما شزراً ولايقطب وجهه في وجههما ولايسافر إلاّ بإذنهما ولايصيح عليهما اذا دعاهما ولايضيق خلقه عند نصحهما إيّاه و يستشيرهما في أمره ولايجرّىء زوجته عليهما سيّما الأمّ، فانَّها حملته كرهاً ووضعته كرهاً، فحقّ الأمّ أكثر من الأب وإن كان بغض أمّ الزّوج بالنّسبة الى زوجة ابنها غير خفيّة، بل لاتحبّها أصلاً بخلاف محبّتها بالنّسبة الى زوج بنتها كما هو المجرّب. وقضيّة قولها: «قربان شوم خدارا يكبام دوهوارا»[1] مشهورة معروفة، وكيف كان فحقّ الأمّ على الأولاد عظيم، كما قال سيّد العارفين زين العابدين سلام الله عليه وعلى آبائه الطّاهرين وأولاده المنتجبين:

«وامّا حقّ أمّك فان تعلم انَّها حملتك حيث لايحتمل أحد أحداً، وأعطتك[2] من ثمرة قلبها مالايعطى[3] أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع وتطعمك أو تعطش وتسقيك وتعرى

١. أفديك، إلهي سطح واحد وهواءين.
٢. وفي بعض النسخ: [اطعمتك] من ثمرة.
٣. وفي بعض النّسخ: [مالايطعم] أحد أحداً.

وتكسيك وتضحى وتهجر النّوم لأجلك وتّقتك الحرّ والبرد لتكون لها وإنّك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله وتوفيقه.

وامّا حقّ أبيك فان تعلم انّه أصلك ولولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك مايعجبك فاعلم: انّ أباك أصل النّعمة عليك فيه فاحمد الله وأشكره على قدر ذلك، ولاقوّة إلاّ بالله»[1].

أقول: إيّاك وانْ تعقّهما، فانَّ الله تبارك وتعالى قدقرن احسانهما بعبادته، و بعبارة أخرى انّه تعالى قدقرن عبادته و برّ الوالدين في قضائه تعالى شأنه، حيث قال عزّ وجلّ: «وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه و بالوالدين إحساناً»[2]. وانّ الأخبار المتواترة مشحونة، بأن الله لايعفو عمّن عقّ والديه. وورد انّه لايستجاب دعاؤه وتحيّر في عمره، كما ورد في الكافي عن أبي عبدالله الصّادق عليه السلام حيث عدّ في عداد الكبائر ومضار دنيوتّهما من المعاصي الّتي تردّ الدّعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين[3]. وفي الكافي أيضاً عليّ بن ابراهيم عن أبيه الى إسحٰق بن عمّار قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: «كان أبي يقول: نعوذ بالله من الذّنوب الّتي تعجلّ الفناء وتقرّب الآجال وتخلي الدّيار، وهي قطيعة الرّحم والعقوق وترك البرّ»[4].

أقول: ظنّي انَّ المراد من قوله «ع» تظلم الهواء، هو تحيّره في معيشته وأمره في الدّنيا، فكما انَّ الإنسان يكون متحيّراً في الهواء المظلمة و يضلّ طريق المقصود، هكذا عاق الوالدين؛ وامّا موضوعه العقّ بمعنى الشقّ والقطع في اللّغة. وفي الإصطلاح عبارة عن ايذاء الوالدين وترك الإحسان إليهما وعصيانهما، وأقلّ مصداقه كلمة أُفٍّ.

روى الطبرسي «ره» في تفسيره عن عليّ بن موسى الرّضا «ع» عن أبيه «ع» عن جدّه أبي عبدالله سلام الله عليهم أجمعين، قال: «لوعلم الله لفظة أوجز في أقلّ عقوق الوالدين من أُفٍّ، لأتى به»[5]؛ وفي خبر آخر: «فليعمل العاق مايشاء أن يعمل، فلن يدخل

١. تحف العقول، رسالة الحقوق ص١٨٩. وإن كان قداختلف في بعض العبارات.
٢. سورة الاسراء/٢٣.
٣. أصول الكافي: ج٢ ص٢٧٧-٢٨١.
٤. أصول الكافي: ج٢ ص٣٤٧.
٥. مجمع البيان: ج٦/ص٤٠٩.

الجنّة». فالمعنى لا تؤذوهما بقليل. «امّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما»؛ يعني به الكبر في السنّ والمعنى ان عاشا عندك أيّها الإنسان المخاطب حتّى يكبرا أو عاش أحدهما حتّى يكبر يعني ان بلغا في السنّ مبلغاً يصيران بمنزلة الطّفل الّذي يحتاج الى رعاية. وخصّ حال الكبر وإن كان من الواجب طاعة الوالدين على كلّ حال، لأنّ الحاجة أكثر في تلك الحال الى الرعاية والخدمة.

قال مجاهد: معناه ان بلغا عندك من الكبر مايبولان ويحدثان فلا تنفد برّهما وأمط عنهما، كما كانا يميطان عنك في حال الصّغر: «فلا تقل لهما أفٍّ»، وهي كلمة تدلّ على الضّجر. وقيل: كلمة كراهة «ولا تنهرهما»، أي لا تزجرهما باغلاظ وصياح. وقيل: معناه لا تمنعهما من شيء اذا أرادا منك «وقل لهما قولاً كريماً»، أي قولاً رقيقاً لطيفاً.

فظهر انّ أدنى مرتبة العقوق قول أُفّ، كما في الحديث: «أدنى العقوق أُفٍّ».

أقول: وقد صار قبح العقوق في الأنظار بمرتبة انّ أهل التّشبيه كانوايستخرجون شبيه العاقّ و ينزلون شبيه الملائكة الغلاظ الشّداد، يجرّونه الى جهنّم و بئس المهاد.

ومن جملة خواصّ العقوق كون العاقّ فقيراً محتاجاً في الدّنيا، كما هو المجرّب المشاهد، يعمل كثيراً و يأكل قليلاً. ولايخفى انّ العقوق ليس منحصراً بزمان حياتهم بل يعقّ الإنسان بقطع الإحسان والخيرات بعد ممات الوالدين أيضاً.

لطيفة: ورد شخص على شخص من أهل الرّساتيق وكان إيّام الشّتاء، فرأى شخصاً معتبراً قاعداً في صدر المجلس وعنده مجمرة من النّاريلعب بها، فسلّم وقعد ثمّ نظر الى كشوان المجلس، فرأى شخصاً منحنياً راكعاً قاعداً محزوناً مغموماً سأل عنه صاحبه: من هذا الشّيخ ذوالشّيبة القاعد في مكان كذا وكذا؟ قال: هذا أبي لطمته لطمة، ضاق صدره منّي؛ يعني «يک سيلى باو زده ام بدماغش خورده وقهر كرده»:

چو هرمز ز پرويز خوشنود بود بسى دولت وحشمتش رو نمود
چو شيرويه تعظيم خسرو نكرد از او باد نكبت بر او رد كرد[1].

١. ضربته على أمّ رأسه فغضب، لماكان هرمز راضياً من پرويز، أظهر له كل الحبّ والاحترام، ولمّا لم يعظم شيرو يه خسرو لقي منه النكبات.

وأيضاً حكى انَّ شخصاً ورد على أحد من أحبّائه في الشّتاء، فجلسا في الحضيرة المتعارفة في المعجم، فدخل رجل كبير وأخذ السّفطة الّتي يخرجون بها روث الدّواب من الحضيرة الى الخارج على كتفه، فصاح صاحب الدّار. ياأباه أتركها في محلّها، سيجيء الخادم ليخرج الرّوث قال: أليس هذا شغلي القديم وحرفتي في إيّام الشّتاء، كيف أتركه.

أقول: ولمّا قال الله تبارك وتعالى: «واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة»[١]؛ فهذا الولد قد خفض لوالده جناح الذّلّ و بالغ في التّواضع والخضوع لأبيه، فضربه ضربة من اللّطم عملاً بالآية وكذا الولد في القضيّة الثانية قدرحم والده فأرادأمام ضيفه اظهار رحمته عملاً بقوله تعالى: «وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً»[٢]؛ قيل: انَّ الله تعالى: أوصى الأبناء بالوالدين لقصور شفقتهم.

وروى الطّبرسي عليه الرّحمة عن أبي سعيد الأنصارى قال: «بينا نحن عند رسول الله، اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يارسول الله: هل بقى من برّ أبويّ شيء أبرّهما به بعد موتهما؟ قال: نعم الصّلوٰة عليهما والإستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما واكرام صديقهما وصلة الرّحم الّتي لا توصل إلاّ بهما»[٣].

قال قتادة: هكذا علّمهم وبهذا أمرهم فخذوا بتعليم الله وأدبه.

أقول: في هذا الخبر الشّريف اشارة الى ماذكرنا من امكان حصول العقوق بعد الموت، اذا لم يعمل الولد بمابقي في حال موت أبيه.

١. سورة الاسراء/٢٤.
٢. سورة الاسراء/٢٤.
٣. كنز العمال: ج١٦، ص٥٧٩. خ٤٥٩٣٤.

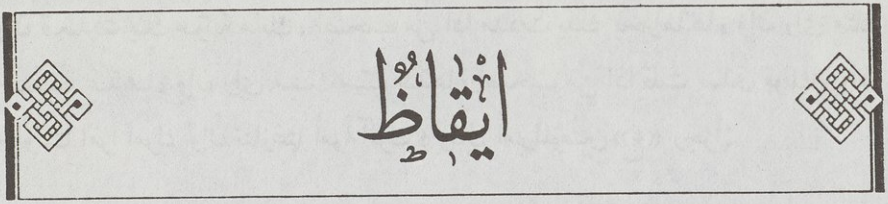

قال في منهاج النّجاة: اعلم، انَّ النّاس في حقّك ثلاثة: امّا أصدقاء، وامّا معارف، وامّا مجاهل؛ فان بليت بالعوام المجهولين فأدب المجالسة العامّة بترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء الى أراجيفهم والتّغافل عمّا يجري من سوء ألفاظهم والإحتراز عن كثرة لقائهم، والحاجة اليهم والتّنبيه على منكراتهم باللّطف والنّصح عند رجاء القبول منه. وامّا الأخوة والأصدقاء فعليك في حقّهم وظيفتان:

احداهما: أن تطلب أوّلاً شروط الصّحبة والصّداقة، فلا تواخ إلاّ من يصلح للأخوّة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله»[1]. فلينظر أحدكم من يخالل فاذا طلبت رفيقاً ليكون شريكك في التّعلم وصاحباً في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال الأولى: العقل فلاخير في صحبة الأحمق فان صحبته آخر الأمر الى الوحشة والقطيعة ترجع، فاحسن أحواله أن يضرّك وهو يريد أن ينفعك، والعدوّ العاقل خير من الصّديق الأحمق. قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

شعر:

ولا تصحب أخا الجهل وإيّاك وإيّاه فكم من جاهل أودى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ماهو ماشاه وللشيء على الشّيء مقاييس وأشباه
وللقلب الى القلب دليل حين يلقاه

الثّانية: حسن الخلق فلا تصحب من ساء خلقه وهو الّذي لايملك نفسه عند

١. نهج الفصاحة: ص٦٢٤ الحديث ٣٠٧٧.

الغضب والشّهوة، وقد أجمع ذلك علقمة العطاردي في وصيّة لابنه حين حضرته الوفاة، فقال: اذا أردت صحبة انسان فاصحب من اذا خدمته ضمنك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من اذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى منك سيّئة سدّها، اصحب من اذا قلت صدّق قولك، واذا حاولت امرا امرك وإن تنازعتما أمراً آثرك ؛ وقال أمير المؤمنين «ع» رجزاً:

انَّ أخاك الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن اذا رأى ريب زمان صدّ عنك شتّت فيه شمله ليجمعك

الثّالثة: الصّلاح، فلا تصحب فاسقاً مصرّاً على معصية كبيرة، لأنَّ من يخاف الله لايصرّ على كبيرة ومن لايخاف الله لا تؤمن غائلته بل يتغيّر بتغيير الأغراض قال الله «تعالى» لنبيّه صلّى الله عليه وآله: «ولا تطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه»[٢].

فاحذر صحبة الفاسق والفسق فان مشاهدة الفسق والمعصية على الدّوام، يزيل عن قلبك وقع المعصية ويهوّن عليك أمرها، ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة ولو رأى خاتماً من ذهب أو ملبوساً من حرير على فقيه، لاشتدّ انكارهم لذلك والغيبة أشدّ من ذلك.

الرّابعة: ان لايكون حريصاً على الدّنيا فصحبة الحريص على الدّنيا سمّ قاتل، لأنَّ الطّباع مجبولة على التّشبيه والإقتداء، بل الطّبع يسرق من حيث لايدري؛ مجالسة الحريص تزيد في حرصك ومجالسة الزّاهد تزيد في الزّهد.

أقول: قد أثبتنا في أوّل الكتاب تأثير المجالسة وانّها مؤثرة قطعاً.

الخامسة: الصدق ولا تصحب كذّاباً فانّك منه على غرور وهو مثل السّراب يقرّب منك البعيد و يبعّد منك القريب، ثمّ قال: ولعلّك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكّان المدارس والمساجد، فعليك بأحد أمرين؛ امّا العزلة والإنفراد ففيه سلامتك؛

١. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٢. سورة الكهف/٢٨.

وامّا أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم، بأن تعلم انَّ الأخوة ثلاثة: أخ لآخرتك فلا ترع فيه إلاَّ الدّين، وأخ لدنياك فلا ترع فيه إلاَّ الخلق؛ وأخ تستأنس به فلا ترع فيه إلاَّ السّلامة من شرّه وخبثه؛ والنّاس ثلاثة: أحدهم مَثَله مثل الغذاء لايستغنى عنه. والآخر مَثَله مثل الدّواء يحتاج اليه وقت دون وقت؛ والثالث: مثل الدّاء لايحتاج اليه قطّ ولكن العبد قديبتلى به، وهو الّذي لاأُنس فيه ولانفع؛ فيجب مداراته الى الخلاص؛ وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وقفت لها، وذلك ان تشاهد من خباثة أخلاقه ماتستقبحه فالسّعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن.

وقيل: لعيسى عليه السّلام من أدّبك، فقال: «ماأدّبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبته»[١].

ولقد صدق صلوات الله عليه، فلواجتنب النّاس مايكرهونه من غيرهم، لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدّب.

الوظيفة الأخرى: مراعاة حقوق الصّحبة فيها فاذا انعقدت الشّركة وانتظمت بينك و بين شريكك الصّحبة، فعليك حقوق يلزم مراعاتها عند الصّحبة، وفي القيام بها آداب، وقدقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل أحداهما الأخرى»[٢]. ودخل صلّى الله عليه وآله، أجمّة فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم، وكان «ص» معه بعض أصحابه فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج؛ فقال: يارسول الله انّك أحقّ بالمستقيم منّي، فقال «ص»: «مامن صاحب يصحب صاحباً ولوساعة من نهار إلاّ سئل عن صحبته، هل أقام فيها حقّ الله أو أضاعه»[٣]؛ وقال «ص»: «ماإصطحب اثنان قطّ إلاّ وكان أحبّهما الى الله أرفقهما بصاحبه»[٤]؛ فأدب الصّحبة الإيثار بالمال وإن لم يمكن، فبذل الفضل منه عند الحاجة، والإعانة بالنّفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غيراحتياج الى إلتماس، وكتمان السّرّوستر العيوب

١. البحار: ج١٤ ص٣٢٦.
٢. نهج الفصاحة: ص٥٦٦ الحديث ٢٧٣٤.
٣. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٤. أصول الكافي: ج٢ ص١٢٠.

والسّكوت عن تبليغ مايسوؤه من مذمّة النّاس إيّاه، وابلاغ مايسرّه من ثناء النّاس عليه وحسن الإصغاء عند الحديث، وترك الممارات فيه، وان يدعوه بأحبّ أسمائه إليه، وأن يثني عليه بمايعرف من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه في حقّه، وأن يذبّ عنه في غيبته اذا تعرّض لعرضه أحد، كما يذبّ عن نفسه، وأن ينصحه باللّطف والتّعريض اذا احتاج الى ذلك، وأن يعفو عن زلّته وهفوته ولايعتب عليه، وأن يدعو له في صلاته في حياته و بعد مماته، وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته، وأن يؤثر التّخفيف عنه فلايكلّف شيئاً من حاجاته فيروج سرّه عن مهمّاته، وأن يظهر الفرح بجميع ماتباح له من مسارّه والحزن بماياناله من مكارهه، وأن يظهر مثل مايظهر فيكون صادقاً ودّه سرّاً وعلناً، وأن يبدأه بالسّلام عند اقباله، وأن يوسع له في المجالس ويخرج له من مكانه، وأن يشيّعه عند قيامه، وأن يصمت عند كلامه حتّى يفرغ من خطابه و يترك المداخلة في كلامه، وعلى الجملة فيعامله بما يحبّ أن يعامل به، فمن لايحبّ لأخيه مايحبّ لنفسه فأخوّته نفاق وهو عليه في الدّنيا والآخرة و بال. فهذا كلّه أدبك في حقّ العوام المجهولين وفي حقّ الأصدقاء المواخين.

أمّا القسم الثّالث: وهم المعارف، آه من المعارف والأمان منهم، فاحذر فرسخاً فرسخاً، فانّك لا ترى شرّاً إلاّ ممّن تعرفه؛ امّا الصّديق، فكما روي عن صادق آل محمّد صلّى الله عليه وآله من طريق العامّة حيث قال «ع»: «اذا لقيت مائة صديق أترك تسعاً وتسعين منهم ولا تطمئنّ على الواحد الباقي؛ فانّ أصدقاء الزّمان يعيبونك ولايعينونك»[1].

وامّا غيره فلاينفعك وإنّما الشّرّ كلّه من المعارف الّذين يظهرون الصّداقة والألفة بألسنتهم فقط، ليأكلون منك إن كنت متموّلاً أو باذلاً وإن كنت فقيراً فيهينوك و يستهزئوا بك؛ قلل المعارف ماقدرت، وإذا بليت بهم في مدرسة أوجامعة أومسجد أو بلدة أو سوق فيجب أن لا تستصغر منهم أحداً، لأنّه امّا يظنّ نفسه صاحب حسب أو نسب فبكلا الوجهين لابدّ له أن يستعظم نفسه، فان سلّمت عليه يرتفع ابطاه وإن لا تسلّم عليه فقداستصغرته، فأنت مبتلى لابدّومع ذلك سلّم عليه حتّى ولوكنت داخلاً

١. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

فيمن بادر الى التحيّة فانّك لا تدري لعلّه خير لك. من السّكوت ولعلّه خير منك في نفس الأمر.

ولا تنظر إليهم بعين التّعظيم من حيث دنياهم فتهلك، لأنَّ الدّنيا صغيرة عند الله وصغير مافيها ومهما عظّمت أهل الدّنيا في قلبك، فقد سقطت من عين الله، وإيّاك إيّاك أن تبذل دينك لهم لتنال دنياهم، فانَّ من المجرّبات الواضحة انَّ من فعل ذلك صغر في أعينهم، ثمَّ حرم ممَّايمدّ عينيه الى ماعندهم من الخيرات؛ والأخبار الواردة في ذمّ تعظيم أهل الدّنيا من حيث المال والجاه، كثيرة من أرادها فليطلبها من مواردها.

وأيضاً إن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة، لأنَّك لا تطيق الصبر على مكافأتهم، فيكافؤن من حيث لا تعلم إلاَّ أن تكون أشدّ منهم قساوة. و«حينئذ» فلست مع الله؛ وإيّاك أن تذهب دينك فيهم و يطول عنادك معهم، وظنّي انَّه يبقى شرّ ذلك في الأولاد نسلاً بعد نسل؛ بل طائفة بعد طائفة وجيلاً بعد جيل، كما هو «كذلك» بين طوائف العرب بلديّاً كان مثل طائفتي زكرتي وشمرتي أو خارجيّاً كما في قبائل العرب وفي العجم مثل حيدري ونعمتي وليس هذا إلاَّ اتباع الهوى، فكم من نفوس تلفت في عصرنا هذا من الطَّرفين، وكم من مال النَّاس نهبت حتَّى عجز العلماء عن سدّ هذا الباب وعجزت الحكومة عن حسم تلك المادَّة، وقدرأيت شيخاً لاقدرة له بأخذ السَّلاح والضّرب يحوص عند نفسه و يدقّ رجليه على الأرض، رافعاً يده اليمنى وجامعاً بيده اليسرى لباسه وقائلاً مرة، هى أولادي الله وإيّاكم وآخريصيح اليوم يومكم، والنَّسوان يهلهلن وراءهم.

والعجب انَّه اذا سقط منهم أحد وقتل، لايبكين عليه، لئلاَّيفهم الطرف المقابل انَّه نقص من ابطالهم واحد. والله رأيت شايخاً مضروباً في فخذه بالرّصاص ويجري الدّم منه كالميزاب ويمشي مهلاً مهلاً و يده على شاربه يلويه و يظهر شجاعته بحيث لايعرج رجله أبداً، و يظهر البشاشة عند النَّاس وأنا أدري كيف يحترق كبده في باطنه.

والحاصل: العداوة والتّقابل مع العدوّ يوجب خسران الدّنيا والآخرة والعاقل لايرتكبه.

قال الشّهيد «ره». ولا تسكن إليهم في اكرامهم إيّاك، وثنائهم عليك في وجهك واظهارهم المودّة لك، فانّك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة واحداً، فلا تطمع أن يكونوا لك في السرّ والعلن متّحداً، ولا تتعجّب ان ثلبوك في الغيبة ولا تغضب منها، فانّك ان انصفت وجدت من نفسك مثل ذلك حتّى في أصدقائك وأقاربك؛ بل في استاذك ووالديك، فانّك تذكرهم في الغيبة بمالا تشافههم به. واقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم، فان الطّامع في الأكثر خائب في المال وهو ذليل لامحالة في الحال، واذا سألت واحداً حاجة فقضاها فاشكر الله «تعالى» واشكره. انتهى محلّ الحاجة.

ايقاظ

ولمّا كان كلامنا في آداب المعلّم والمتعلّم، فالأولى ذكر جملة من الكلمات الّتي ينفعهما من اتّخاذ المجالس ومايناسب الجلوس فيه واتّخاذ المصاحب الّذي ينفع في الدّنيا والآخرة صحبته.

قال الشّهيد الثّاني عليه الرّحمة في منية المريد:

فصل:

ومن الحكمة القديمة قال لقمان لابنه: «يابني اختر المجالس على عينك فإن رأيت قوماً يذكرون الله، فاجلس معهم فان تكن عالماً ينفعك علمك وإن تكن جاهلاً علموك، ولعلّ الله أن يظلّهم برحمته فتعمّك معهم. واذا رأيت قوماً لايذكرون الله فلاتجلس معهم، فان كنت عالماً لم ينفعك علمك وإن كنت جاهلاً يزيدوك جهلاً ولعلّ الله أن يظلّهم بعقوبة فتعمّك معهم؛ وفي التّوراة قال الله «تعالى»: لموسى عليه السّلام، « عظّم الحكمة فانّي لاأجعل الحكمة في قلب أحد إلاّ وأردت أن أغفر له فتعلمها ثمّ اعمل بها ثمّ ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدّنيا والآخرة».

وفي الزّبور: «قل لأحبار بني اسرائيل ورهبانهم، حادثوا من النّاس الأتقياء، فان لم تجدوا فيهم تقيّاً فحادثوا العلماء، فان لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء فانّ التّقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ماجعلت

واحدة منهنّ في خلقي إلاّ أريد هلاكه».

قيل: وإنّماقدّم التّقى لأنّه لايوجد بدون العلم، كما تقدّم انّ الخشية الّتي هي من لوازم التّقيّ لاتحصل إلاّ بالعلم ولذلك قدّم العلم على العقل، لأنّ العالم لابدّ وأن يكون عاقلاً.

وفي الإنجيل قال الله «تعالى» في السّورة السّابعة عشر منه: «ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يحشر مع الجهّال الى النّار. اطلبوا العلم وتعلّموه فانّ العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضرّكم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم فلانعمل ولكن قولوا: نرجوا أن نعلم فنعمل، والعلم يشفع لصاحبه وحقّ على الله أن لايخزيه انّ الله «تعالى» يقول يوم القيامة: يامعشر العلماء ماظنّكم بربّكم فيقولون: ظنّنا أن يرحمنا ويغفر لنا. فيقول الله «تعالى» فانّي قدفعلت انّي قداستودعتكم حكمتي لالشر أردته بكم؛ بل لخير أردته بكم فادخلوا في صالح عبادي الى جنّتي ورحمتي».

قال مقاتل بن سليمان: «وجدت في الإنجيل؛ انّ الله «تعالى» قال لعيسى عليه السّلام: «عظّم العلماء واعرف فضلهم، فانّي فضّلتهم على جميع خلقي إلاّ النّبيّين والمرسلين، كفضل الشّمس على جميع خلقي،[1] وكفضل الشّمس على الكواكب وكفضل الآخرة على الدّنيا وكفضلي على كلّ شيء»[2]. انتهى.

أقول: واذا علمتم أيّها العلماء والمتعلّمون قدركم عند الله وفضلكم على سائر النّاس، فلابدّ أن يكون مشيكم ومماشاتكم مع النّاس بنحو من الآداب حتّى يأخذون منكم الأدب من الشّرعيّات والعرفيّات، لاانّهم يستهزؤون بأفعالكم وأقوالكم، فانّ النّاس سيّما الجهّال منهم بناؤهم على الإيراد لأفعال العلماء والطّلاب وحركاتهم وسكناتهم، حتّى سمعت عن بعض الأساتيذ انّه كان أحد علمائنا المتأخّرين في اصفهان يوصي و يقول للطلاّب:

إذا مشيتم الى ضيافة ووليمة تفرّقوا وامشوا اثنين اثنين، ولا تمشوا جماعة لأنّ النّاس

١. كذا في النسخة والظاهر انّه زائد مستغنى عنه وقع مكرراً بقلم الناسخ سهواً.
٢. منية المريد ص٣٦.

عيونهم ضيّقة ليس كلّهم ينظرون إليكم بنظر الإخلاص والقربة، بل ينظرون بنظر الاستهزاء؛ بل يضحكون وراءكم و يغتابون.

وربّما يقولون: أين يمشون! آكلين مال النّاس بلاشيء. وأيضاً يقول «ره»: لاتحنّكوا في بعض المجالس أو في الصّلاة، خوفاً عن حمل الجهّال على التزو ير. مثلاً انّ العوام لمّا سمعوا انّه ورد في الأخبار الكثيرة انّ الملائكة لتضع أجنحتها وتفرشها لطالب العلم [١]، وفي مجالس المذاكرة؛ وفي بعضها انّ الملائكة تحف بأجنحتها ثمّ يركب بعضها بعضاً [٢] حتّى يبلغوا سماء الدّنيا من محبّتهم لمايطلب؛ فربّما يستهزىء بذلك منهم، كما قال الشهيد «ره»؛ «واسند بعض العلماء الى أبي يحيى بن زكريّا بن يحيى السّاجي انّه قال:

كنّا نمشي في أزقّة البصرة الى باب بعض المحدّثين فأسرعنا في المشي وكان معنا رجل ماجن فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة كالمستهزىء، فمازال عن مكانه حتّى جفّت رجلاه.

واسند أيضاً الى أبي داود السّجستاني انّه قال كان في أصحاب الحديث رجل خليع، الى أن سمع بحديث النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «انّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»، فجعل في رجليه مسمارين من حديد وقال أريد أن أطأ أجنحة الملائكة فأصابته الاكلة في رجليه.

وذكر أبو عبدالله محمّدبن اسماعيل التّميمي هذه الحكاية في شرح المسلم وقال: «فشلّت رجلاه وسائر أعضائه» [٣].

فاللاّزم للعلماء أن لايجلسوا مجالس الجهّال ولامصاحبتهم، نعم لاريب أن يحضروا في المساجد والمنابر الّتي يحضر فيها الجهّال أيضاً لاستماع المواعظ وأخذ المسائل، لامثل بعض المجالس المعدّة للاستهزاء بالواعظ والإصغاء لبعض الحكايات والقضايا العجيبة المضحكة، الموجبة لسخط الرّحمان، سيّما في بعض البلدان من رفع الأصوات الى

١. سنن الدارمي ج١/١٠١ احياء علوم الدين ج١/١٥
٢. كنز العمّال ج١٠/٢٥٨ ح٢٩٣٧
٣. منية المريد/٢٧

الصلوات استهزاءً واستخفافاً للواعظ وتكلّمه، ولامثل الّذي يسأل بعض المسائل المضحكة استخفافاً للعالم، فان هذا كلّه موجب لسخط الرّب جلّ وعلا، فيجب على العالم الإجتناب عن مثل تلك المجالس وعدم الإعتناء للسّائل عن تلك المسائل.

نعم إذا بلغ الأمر الى الجواب وانجرّ الكلام الى مثل هذا المقام؛ لابدّ للعالم أوّلاً ذكر آلاء الله «تعالى» لعباده الصّالحين، ثمّ البشارة لهم من نعماء الجنّة وتطميعهم بالحور والقصور، وذكر ثواب أخذ المسائل واقعاً لمن يحتاج إليها، وذكر محبّة الله لعباده ليلين بذلك قلوب الجهّال القاسية؛ كما قال الشّهيد «ره» قال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: «أوحى الله عزّوجلّ الى موسى عليه السّلام: «حبّبني الى خلقي وحبّب خلقي إليّ» قال: ياربّ كيف أفعل؟ قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني فلا ترد آبقاً عن بابي، أو ضالاً عن فنائي؛ أفضل لك من عبادة سنة بصيام نهارها وقيام ليالها.

قال موسى عليه السّلام: ومن هذا العبد الآبق منك؟ قال «تعالى»: العاصي المتمرّد؛ قال عليه السّلام فمن الضّال عن فنائك؟ قال الجاهل بإمام زمانه تعرفه والغائب عنه بعدما عرفه الجاهل لشريعة دينه ومايعبد به ربّه و يتوصّل به الى مرضاته»[1]؛ قال عليّ عليه السّلام: «فابشروا علماء شيعتنا بالثّواب الأعظم والجزاء الأوفر»[2]؛ انتهى.

فظهر انّ للعالم أن يحبّب الله للعوام ويحبّبهم الى الله بذكر الوعد الوارد في كتاب الله، للمطيعين من الجنّة ونعيمها وتعليم المسائل الدّينيّة من الإعتقادات والأحكام الفرعيّة، والثّواب الأعظم والأجر الجزيل هو في تعليم الجهّال علم الشّريعة، لأنّهم الأيتام القاصرين عن أمّتهم، كما سمّاهم الإمام عليه السّلام بالأيتام، كما في التّفسير المنسوب الى العسكري عليه السّلام في قوله «تعالى»: «وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلاّ الله»[3]، إلى قوله: واليتامى قال الإمام «ع»: وامّا قوله عزّوجلّ واليتامىٰ فانّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «حثّ الله «تعالى» على برّ اليتامى لانقطاعهم عن آبائهم، فمن صانهم صانه الله ومن أكرمهم أكرمه الله ومن مسح يده برأس يتيم رفقاً به، جعل الله «تعالى» له في

١. منية المريد ص٣٣.
٢. المحجّة البيضاء ج١ ص٣١.
٣. سورة البقرة/٨٣.

الجنّة بكلّ شعرة مرّت تحت يده قصراً أوسع من الدّنيا بمافيها وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين وهم فيها خالدون».

قال الإمام عليه السّلام «أشدّ من يتم هذا اليتيم، يتم القطع عن إمامه، لايقدر على الوصول اليه ولايدري كيف حكمه فيمايبتلى به من شرائع دينه. ألافمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا، فهدى الجاهل بشريعتنا، المنقطع عن مشاهدتنا، كان كمن أخذ يتيماً في حجره. ألافمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرّفيق الأعلى، حدّثني بذلك أبي عن أبيه عن آبائه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله»[1].

وقال عليّ عليه السّلام: «من كان من شيعتنا، عالماً بشريعتنا، فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم الى نورالعلم الّذي حبوناه به،جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نوريضيء لأهل تلك العرصات وحلّة لايقوم لأقلّ سلك منها الدّنيا بحذافيرها، ثمّ ينادي مناد: هذا عالم من بعض تلامذة آل محمد. ألافمن أخرجه في الدّنيا من حيرة جهله فليتشبّث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات الى نزهة الجنان، فيخرج كلّ من كان علمه في الدّنيا خيراً، أوفتح عن قلبه من الجهل قفلاً، أو أوضح له عن شبهة».

قال: «وحضرت إمرأة عند فاطمة الصّديقة عليها السّلام، فقالت: انّ لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلوٰتها وقد بعثتني إليك أسألك فأجابتها عن ذلك ثمّ ثنّت فأجابت ثمّ ثلّثت فأجابت الى أن أتت عشرمرّات فأجابت ثمّ خجلت من الكثرةوقالت : لاأشقّ عليك يابنت رسول الله «ص»، قالت فاطمة عليها السّلام: هاتي فاسألي عمّا بدا لك، أرأيت من ذا الّذي يصعد يوماً الى سطح بحمل ثقيل وكراه مائة ألف دينار، أيثقل عليه ذلك؟ فقالت: لا. فقالت «ع»: أكريت أنا لكلّ مسئلة بأكثرمن ملء مابين الثّرى الى العرش لؤلؤفأحرى اذا ان لايثقل عليّ، لأنّي سمعت أبي صلّى الله عليه وآله، يقول: «انّ علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في أرشاد عباد الله، حتّى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور، ثمّ ينادي مناد في السّماء من ربّنا عزّ وجلّ: أيها الكاضون لأيتام آل محمد «ص»، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الّذين هم أئمّتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الّذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع

١. منية المريد ٣١ ط، مجمع الذخائر الاسلاميه

العلوم في الدّنيا، فيخلعون على كلّ واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذ عنهم من العلوم، حتّى انّ منهم يعني في الأيتام لمن يخلع عليه مائة ألف خلعة، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثمّ انّ الله «تعالى» يقول: أعيدوا على هؤلاء العلماء، الكافلين للأيتام حتّى تنموا لهم خلعهم وتُضاعفوها فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم و يضاعف لهم، وكذلك مرتبتهم ممّن خلع عليهم على مرتبتهم. قالت فاطمة عليها السّلام:

«يا أمَة الله ان سلكا من تلك الخلع، لأفضل ممّا طلعت عليه الشّمس ألف ألف مرّة، ومافضل ماطلعت عليه الشّمس فانّه مشوب بالتنغيص والكدر»؛ وقال الحسن بن عليّ عليهما السّلام: «فضل كافل يتيم آل محمد «ص»، المنقطع عن مواليه، النّاشب في سنة الجهل يخرجه من جهله و يوضح له ماشتبه عليه و يطعمه و يسقيه كفضل الشّمس على السُّها». وقال الحسين بن عليّ عليهما السّلام: «من كفل لنا يتيماً قطعته عنّا محنتنا باستتارنا فواساه من علومنا الّتي سقطت اليه حتّى أرشده بهداه؛ قال له الله عزّ وجلّ: يا أيّها العبد الكريم المواسي، انّي أولى بهذا الكرم، اجعلوا له ملائكتي في الجنان بعدد كلّ حرف علّمه أخاه ألف ألف قصر، وضمّوا إليها مايليق بها من سائر النّعم».

وقال محمّد بن عليّ عليهما السّلام: «انّ من تكفّل بأيتام آل محمد، المنقطعين عن إمامهم، المتحيّرين في جهلهم، الأسراء في أيدي شياطينهم وفي أيدي النّواصب من أعدائنا، فاستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشّياطين بردّ وساوسهم وقهر النّاصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم. لتفضلوا عند الله على العابد بأفضل المواقع، بأكثر من فضل السّماء على الأرض والعرش على الكرسيّ والحجب على السّماء وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السّماء».

وقال عليّ بن محمّد عليهما السّلام: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم من العلماء، الدّاعين اليه والدّالين عليه والذّابين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك ابليس ومردته ومن فخاخ النّواصب، الّذين يمسكون لزمّة قلوب ضعفاء الشّيعة، كما يمسك السّفينة سكّانها، لما بقي أحد إلاّ ارتدّ عن دين الله، أولئك هم الأفضلون عند الله عزّ وجلّ».

وقال الحسن بن علي عليهما السّلام: «يأتي علماء شيعتنا، القوّامون بضعفاء محبّينا وأهل ولايتنا يوم القيامة والأنوار تسطع من تيجانهم وعلى كلّ واحد منهم تاج قد انبثّت تلك الأنوار في عرصات القيامة ودورها مسيرة ثلثمائة ألف سنة فشعاع تيجانهم ينبثّ في كلّها، فلايبقى هناك يتيم

قد كفلوه ومن ظلمة الجهل علموه ومن حيرة التّيه أخرجوه إلاّ تعلّق بشعبة من أنوارهم، فرفعتهم الى العلوّ حتّى يحاذي بهم فوق الجبال ثمّ ينزلونهم الى منازلهم المعدّة لهم في جوار أساتيذهم ومعلّميهم وبحضرة أئمّتهم الّذين كانوا إليهم يدعون، ولايبقى ناصب من النّواصب يصيبه من شعاع تلك التّيجان إلاّ عميت عيناه وصمّت أذناه وأخرسَ لسانه ويحول عليه أشدّ من لهب النيران، فيحملهم حتّى يدفعهم الى الزّبانيّة، فيدفعوهم الى سواء الجحيم»[١].

فهذه نبذة ممّا ورد في تعليم الجهّال والعوام وفي ثوابه.

وامّا اتّخاذ المصاحب وخواصّه قال الشّهيد «ره»: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من جلسَ مع ثمانية أصناف من النّاس، زاده الله ثمانية أشياء: من جلسَ مع الأغنياء زاده الله حبّ الدّنيا والرّغبة فيها، ومع الفقراء حصل له الشّكر والرّضا بقسم الله تعالى، ومع السّلطان زاده الله القوّة والكبر، ومع النّساء زاده الله الجهل والشّهوة، ومع الصّبيان ازداد من الجرأة على الذّنوب وتسويف التّوبة، ومع الصّالحين ازدادت رغبته في الطّاعات، ومع العلماء[٢] ازداد من العلم»[٣].

أقول: قال عليّ عليه السّلام في خطبته المعروفة بالدّيباج: «ومجالسة أهل اللّهوينسي القرآن ويحضر الشّيطان والنّسيء زيادة في الكفر وأعمال العصاة تدعو الى سخط الرّحمٰن وسخط الرّحمٰن يدعو الى النّار، ومحادثة النّساء تدعو الى البلاء وتزيغ القلوب؛ والرّمق لهنّ يخطف نور أبصار القلوب ولمح العيون مصائد الشّيطان، ومجالسة السُّلطان يهيج النّيران»[٤].

١. منية المريد ص٣٥.

٢. كذا في النسخة المكتوبة بخط المصنّف، والظاهر انّه سقط من النسخة شيء اذ دلّ الكلام من جلس مع ثمانية أصناف والمعدود سبعة.

٣. منية المريد ص٣٧. نقل الشهيد عن بعض العارفين، ونسبه المؤلف الى رسول الله «ص» سهواً.

٤. تحف العقول: ص١٠٦.

ايقاظ

فيه اشارة الى تأديب الطّالبين للعلم أدباً ينفعهم علمه في الدّنيا وعمله في الآخرة، قال الشّهيد «ره» في «منية المريد»:

فصل:

وعن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «انّ مُوسى عَليه السّلام لَقى الخضر عَليه السّلام، فقال: أوصني، فقال الخضر «ع»: «ياطالب العلم انّ القائل أقلّ ملالة من المستمع، فلا تملّ جلساءك اذا حدثتهم، واعلم انّ قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعرف الدّنيا وانبذها وراءك، فانّها ليست لك بدار ولا لك فيها محلّ ولا قرار، وانّها جعلت بلغة للعباد ليتزوّدوا منها للمعاد، ياموسى وطّن نفسك على الصّبر تلق الحكم، واشعر قلبك التّقوى تنل العلم، وأرض نفسك على الصّبر تخلص من الإثم. ياموسى تفرّغ للعلم إن كنت تريده، فإنّما العلم لمن تفرّغ له ولا تكوننّ مكثاراً بالمنطق تكن مهذاراً، انّ كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوي السّخفاء، ولكن عليك بذي اقتصاد. فان ذلك من التّوفيق والسّداد وأعرض واحلم عن السّفهاء، فانّ ذلك فضل الحلماء وزين العلماء اذا شتمك الجاهل فاسكت عنه سلماً وجانبه حزماً، فانّ مابقي من جهله عليك وشتمه إيّاك، ياابن عمران: لا تفتحنّ باباً لا تدري ماغلقه، ولا تغلقنّ باباً لا تدري مافتحه، ياابن عمران: من لاينتهي من الدّنيا بهمته ولا تنقضي فيهارغبته، كيف يكون عابداً من يحقّر حاله و يتّهم الله بماقضى له؟ كيف يكون زاهداً، ياموسى تعلّم ما تعلم لتعمل به ولا تعلم لتحدث به، فيكون عليك بوره و يكون على غيرك نوره».

ومن كلام عيسى عليه السّلام: «تعملون للدّنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلاّ بالعمل، وأنتم علماء السّوء الأجر تأخذون والعمل تضيعون. يوشك ربّ

العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدّنيا العريضة الى ظلمة القبر وضيقه. الله تعالى نهاكم عن الخطايا، كما أمركم بالقيام والصّلوٰة، كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وقد علم انّ ذلك من علم الله وقدرته. كيف يكون من أهل العلم من اتّهم الله فيما قضى له؟ فليس يرضى شيئاً أصابه، كيف يكون من أهل العلم من دنياه عنده آثر من آخرته وهو مقبل على دنياه ومايضرّه أحبّ اليه ممّا ينفعه؟ كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلب ليعمل به»[١].

وذكر أيضاً: انّ الله تبارك وتعالى قال في وصف بلعم بن باعور الّذي كان في حضرته اثناعشر ألف محبرة، يكتبون عنه العلم، مع ماأتاه الله من الآيات المتعدّدة، الّتي كان من جملتها انّه كان بحيث اذا نظر يرى العرش، كما نقله جماعة من العلماء: فـ«مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث»[٢].

وقال في وصف العالم التّارك للعمل بعلمه: «مثل الّذين حمّلوا التّورٰية ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[٣]؛ فأيّ خزي أعظم من تمثيل حال العالم، غير العامل بعلمه بأخبث الحيوانات وأنجسها وأبلد الحيوانات وأحقرها وهما الكلب والحمار.[٤]

أقول: والمصيبة كلّ المصيبة هو عدم تصوّر العالم، التّارك لعلمه الأخبار الواردة في عذابه في جهنّم، زائداً عن النّار، مثلاً انّه قال صلّى الله عليه وآله: «يلقى العالم في النّار فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار في الرّحى»[٥].

قال في صحاح اللّغة: الإندلاق التّقدّم. وكلّ مايبرز خارجاً فقد اندلق. والأقتاب الأمعاء يقال: طعنته فاندلق اقتاب بطنه أي خرجت أمعاؤه. انتهى.

و يدوّر بصيغة المجهول من باب التّفعيل والمراد والله العالم: امّا ان هذا العالم يدور بين أهل النّار حتّى يظهر حاله على جميع من في النّار ليفضح أو يلف أمعائه على ظهره

١. منية المريد: ص٤٧-٤٨.
٢. سورة الأعراف/١٧٦.
٣. سورة الجمعة/٥.
٤. منية المريد: ص٥٥.
٥. منية المريد ص٥٥.

كالحبل الّذي يدور به حمار الرّحى، فحيف ألف حيف لعالم يجرّه علمه الى النّار المؤصدة الّتي تطّلع على الأفئدة، وهذا العذاب الأليم لأجل عدم خلوص منيّة تحصيل العلم عن رضاء الله، بل لغرض من الأغراض الدّنيويّة وليس إلاّ حبّ الرّئاسة؛ نعوذ بالله؛ بل الخوف كل الخوف أن نكون حطباً للنّار حتّى يحترق النّاس بشعلتنا، كما ورد في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السّلام: «انّ المالك اذا غضب يحطب بعضهم بعضاً»؛ العياذ بالله، من تلك الحالات.

ومن كلامه صلوات الله عليه: «ويل لعلماء السّوء تصلى عليهم النّار؛ ثمّ قال: اشتدّت مؤنة الدّنيا ومؤنة الآخرة. امّا مؤنة الدّنيا فانّك لا تمدّ يدك الى شيء منها إلاّ وجدت فاجراً قد سبقك اليه. وامّا مؤنة الآخرة فانّك لا تجد أعواناً يعينونك عليها.[١]

وأوحى الله تعالى الى داود «ع»: «لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدّنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فانّ أولئك قطّاع طريق عبادي، المريدين انّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال:[٣] «من تعلّم علماً من علم الآخرة ليريد عرضاً من عرض الدّنيا لم يجد ريح الجنّة ثمّ قال «ره»: هذه الدّرجة وهي درجة الإخلاص عظيمة المقدار، كثيرة الأخطار، دقيقة المعنى صعبة المرتقى يحتاج طالبها الى نظر دقيق وفكر صحيح ومجاهدة تامّة»؛ وكيف لا يكون «كذلك» وهو مدار القبول وعليه يترتّب الثّواب وبه تظهر ثمرة عبادة العابد وتعب العالم وجدّ المجاهد ولو فكّر الإنسان في نفسه وفتّش عن حقيقة عمله لوجد الإخلاص فيه قليلاً وشوائب الفساد اليه متوجّهة والقواطع عليه متراكمة، سيّما المتّصف بالعلم وطالبه، فانّ الباعث الأكثر، سيّما في الابتداء الباغي للعلم، طلب الجاه والمال والشّهرة وانتشار الصّيت ولذّة الاستيلاء والفرح بالإستتباع واستيثار الحمد والثّناء، وربّما يلبس عليهم الشّيطان مع زلله لا يقول لهم: غرضكم نشر دين الله والنّضال عن الشّرع الّذي شرعه رسول الله «ص» والمظهر لهذه المقاصد يتبيّن عند ظهور

١. منية المريد/٤٨.
٢. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.
٣. أصول الكافي: ج ١ ص ٤٦.

أحد من الأقران أكثر علماً منه وأحسن حالاً، بحيث يصرف النّاس عنه فلينظر «حينئذ» فان كان حاله مع الموقّر له والمعتقد لفضله أحسن، وهو له أكثر احتراماً و بلقائه أشدّ استبشاراً ممَّن يميل الى غيره، مع كون ذلك الغير مستحقّاً للموالاة فهو مغرور وعن دينه مخدوع، وهو لايدري كيف؛ وربَّما انتهى الأمر بأهل العلم الى أن يتغايروا تغاير النِّساء، فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته الى غيره وإن كان يعلم انَّه ينتفع بغيره و يستفيد منه في دينه ولهذا رشح الصّفات المهلكة المستكنة في سرّ القلب الّتي يظنّ العالم النّجاة منها، وهو مغرور في ذلك وإنَّما ينكشف بهذه العلامات ونحوها، ولوكان الباعث له على العلم هو الدّين، لكان اذا ظهر غيره شريكاً أو مستبدّاً أو معيناً على التّعليم يشكر الله «تعالى»؛ اذ كفاه وأعانه على هذا المهم بغيره، وكثر أوتاد الأرض ومرشدي الخلق ومعلّمهم دين الله ويحيي سنن المرسلين.

وربَّما لبس الشّيطان على بعض العالمين و يقول: إنَّما نمّمك لانقطاع الثّواب عنك لالانصراف وجوه النّاس الى غيرك ؛ اذ لورجعوا اليك أو اتّعظوا بقولك وأخذوا عنك، لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثّواب محمود ولايدري المسكين: انَّ انقياده للحقّ وتسليمه الأمر الى الأفضل، أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليعلم انَّ اتباع الأنبياء والأئمَّة لواغتموا من حيث فوات هذه المرتبة لهم واختصاص أهلها بها، لكانوا مذمومين في الغاية، بل انقيادهم الى الحقّ وتسليم الأمر الى أهله، أفضل الأعمال بالنِّسبة اليهم وأعود عليهم في الدّين، وهذا كلّه من غرور الشّيطان وخدعه، بل قدينخدع بعض أهل العلم بغرور الشّيطان ويحدث نفسه بأنَّه: لوظهر من هو أولى منه، لفرح به وأخباره بذلك عن نفسه قبل التّجربة والإمتحان غرور، فانَّ النّفس سهلة الإنقياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثمَّ اذا دهاه الأمر تغيَّر ورجع ولم يفِ بالوعد، إلاَّ من عصمهُ الله تعالى، وذلك لايعرفه إلاَّ من عرف مكائد النّفس وطال اشتغاله بامتحانها، ومن أحسّ في نفسه بهذه الصّفات المهلكة، فالواجب عليه طلب علاجها من أرباب القلوب، فان لم يجدهم فمن كتبهم المصنّفة في ذلك.

وإن كان كلا الأمرين قدانمحى أثره وذهب مخبره ولم يبق إلا خبره، يسأل الله المعونة والتّوفيق، فان عجز عن ذلك فالواجب عليه الإنفراد والعزلة وطلب الخمول

والمدافعة عمّا يسأل، إلاّ أن يحصل على شروط التّعلم والعلم، وربّما يأتيه الشّيطان هنا من وجه آخر و يقول: هذا الباب لوفتح لاندرست العلوم وخرب الدّين من بين الخلق لقلّة الملتفت الى الشّرائط والمتلبّس بالإخلاص، مع انّ عمارة الدّين من أعظم الطّاعات، فليجبه «حينئذ»: بأنّ دين الإسلام لايندرس بسبب ذلك مادام الشّيطان يحبّب الى الخلق الرّئاسة، وهو لايفترعن عمله الى يوم القيامة، بل ينهض لنشر العلم أقوام لانصيب لهم في الآخرة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «انّ الله يؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم»[١]. وقوله «ص»: «انّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر»[٢].

فلاينبغي أن يغتر بهذه التّلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتّى يربّي في قلبه حبّ الجاه والثّناءوالتّعظيم، فانّ ذلك بذر النّفاق. وقال «ص»: «حُبّ الجاه والمال ينبت النّفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[٣]. وقال صلّى الله عليه وآله: «ماذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيها من حبّ الجاه والمال في دين المرء المسلم»[٤].

فليستكثر فكره في التّفطّن لخفايا هذه الصّفات من قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها. فانّ الفتنة والضّرر بهذه الصّفات في العالم والمتعلّم أعظم منه في غيره بمراحل، فانّه مقتدى به فيما يأتي و يذر. فيقول الجاهل: لوكان ذلك مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه منّا، فيتلبّسون بهذه الأخلاق الذّميمة، إلاّ أنّ بين الذّنبين بوناً بعيداً، فانّ الجاهل يأتي يوم القيامة بذنبه والعالم يأتي بذنبه الّذي فعله وذنب من تأسّى به واقتدى بطريقته يوم القيامة، كما ورد في الأخبار الصّحيحة.

و بالجملة فمعرفة حقيقة الأخلاق والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع، إلاّ الشّاذ النّادر المستثنى من قوله «تعالى»: «إلاّ عبادك منهم المخلَصين»[٥]. فليكن العبد شديد التّفقّد والمراقبة لهذه الدّقائق وإلاّ التحق باتباع الشّياطين وهو لايشعر. نعوذ بالله

١. جامع الصّغير ج ١ ص٧٢، المحجّة البيضاء ج ٥ ص ٥٤.
٢. نهج الفصاحة: ص ١٦١، الحديث: ٧٩٢، المحجّة البيضاء: ج ٥ ص ٥٤، مسند أحمد ج ٢ ص ٣٠٩.
٣. احياء علوم الدين ج ٣/ ٢٠٠، المحجة البيضاء ج ٦/ ٤٠.
٤. نهج الفصاحة: ص ٥٣٢، الحديث ٢٥٦٥، تنبيه الخواطر « مجموعة ورام»، ص ١٢٦.
٥. سورة الحجر/ ٤٠.

ايقاظ

قدظهر من جميع ماذكرنا الى الآن من لزوم التّخلّق بأخلاق الله ودفع الأوصاف المذمومة عن ملك الوجود. انَّ اللاّزم الواجب سيّما على صنف العلماء وسلسلة أهل العلم، كثّر الله جنودهم، وجعلهم من حزبه العاملين لما يعلمون والمجاهدين في سبيل الهداية، هو الإتّصاف بصفة العدل والإنصاف، وهو وإن كان معنوناً في الكتب الفقهيّة ومبرهناً عند العلماء الرّبانيّة موضوعاً ومحمولاً. ولكن لابأس بالإشارة الى بعض مايحتاج اليه من العدل في باب الأخلاق.

فاعلم: انَّ العدل هو التّوسط بين السَّفاهة والبلاهة في القوّة العقلية وهي الحكمة، و بين التّهوّر والجبن في القوّة العصبيّة وهي الشَّجاعة، و بين الشره وخمود الشّهوة في القوّة الشّهويّة وهي العفّة. فاذا حصلت هذه الأوساط وصارت ملكات، حصلت حالة أخرى متشابهة من تمازجها واختلاطها وهي المسمَّاة بالعدل. فالعدل محيط بأنواع كثيرة من الفضائل، احاطة الجنس بأنواعها، محاط بجنسين من الرّذائل وهما طرفا افراط وتفريط وعبّر عنهما بلسان الشّرع بالجور ظلماً وانظلاماً على نفسه وعلى غيره، وتلك الصّورة الباطنيّة الواقعة في الوسط هي المسمَّاة بالعدالة وتوضيح هذا: انَّه شبهت تلك الصّورة الباطنيّة الّتي للقلب تارة بالصّورة الظّاهرة المحسوسة، فكما انَّ لها أركاناً من الأعضاء الظّاهرة ولايوصف بالحسن إلاَّ بحسن جميعها وتوسّطها بين الإفراط والتّفريط، «كذلك» لتلك الصّورة الباطنيّة الّتي هي صورة القلب أركان من القوّة الناطقة الغضبيّة والشهويّة، ولايوصف بالحسن مالم يحسن جميعها ولم يتوسّط بين الإفراط والتّفريط.

وتارة بالمزاج، فكما انَّ اعتدال المزاج هو أن يكون قدتوفّر في الإنقسام على الممتزج

من العناصر بكمّياتها وكيفياتها، القسط الّذي ينبغي له على أعدل قسمة ونسبة واستقامة المزاج المذكور لكلّ ممتزج وصحّته وسلامته وهي حالة تصدر عنها الأفعال من الموضوع لها، سليمة يتوقّف على فقدان الأمراض البدنيّة وزوالها، «كذلك» اعتدال تلك الصّورة واستقامتها يتوقّف على زوال الأمراض القلبيّة الّتي هي الأخلاق الذّميمة، الواقعة في طرفي الإفراط والتّفريط، وكما انّ أنواع سوء المزاجات وتفرّق الإتّصالات، أضرارها مسرية ينجر بعضها الى بعض وصحّة المزاج وصدور الأفعال سليمة لايحصل إلاّ بفقدان جميعها، «كذلك» الأخلاق الذّميمة علل مسرية، ينجرّ بعضها الى بعض والنّجاة في النشأتين وحسن القبول في الدّارين وتسخير عالم الملك والملكوت لايحصل إلاّ بزوال جميعها.

ومن هنا ظهر سرّ قولهم: «خير الأمور أوسطها»، والخبير يعلم انّ المزاج كلّما كان قربه الى الإعتدال الحقيقي أكثر، يكون وحدة الجمعي أكثر، فتكون النّفس الفائضة من المُبدء الفيّاض عليه أشرف، فتكون بالغاً كمال الإعتدال في امّهات الأخلاق الحسنة وأصولها، كما بلغ اليه رسول الله صلّى الله عليه وآله، فنزل في حقّه: «**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**»[1]،ولذا اختار حبّ الله تعالى على حبّ كلّ شيء، فصار حبيب الله، وسمّاه الله تعالى بالحبيب والنّاس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فينبغي أن نقتدى فانّه «ص» قال: «**إنّما بعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[2].

فاذا عرفت ذلك ظهر لك انّ العدل من دعائم الإيمان وقد ذكرنا تماميّة حسن الأخلاق باجتماع جميعها، فالعالم اذا كان عادلاً في أفعاله وأقواله، يكون مصداقاً لقول أمير المؤمنين عليه السّلام حيث قال: «**والعدل على أربع شعب غامض الفهم وغمر العلم وزهرة الحكم وروضة الحلم فمن فهم فسّر جميع العلم ومن علم عرف شرائع الحكم ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في النّاس حميداً**»[3].

١. سورة القلم/٤.
٢. كنز العمال: ٥٢١٧.
٣. نهج البلاغة، صبحي صالح حكم (٣١) ص٤٧٣ طبعة بيروت ١٣٨٧هـ.

ايقاظ

قال الله تبارك و«تعالى»: «والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا»[١].

اعلم انَّ الجهاد جهادان: أحدهما الجهاد الأكبر. وثانيهما الجهاد الأصغر. امَّا الأخير فهو الجهاد مع الكفَّار والبغاة ويجب مع دعوة النّبيّ «ص» المختار والإمام أو نائب الإمام اذا خيف على بيضة الإسلام أو على النَّفس على ماقرّر في الشّريعة المطهَّرة وسطر في الكتب الفقهيّة. وامَّا الأوَّل أعني الجهاد الأكبر المشار اليه في قوله «تعالى»: «وجاهدهم به جهاداً كبيراً»[٢].

وماصرَّح به في الأخبار كما روى الصَّدوق «ره» باسناده عن العالم عن أبيه عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السَّلام: «انَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله بعث سريّة فلمَّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر؛ قيل يارسول الله «ص» وماالجهاد الأكبر قال: جهاد النَّفس، ثمَّ قال «ص»: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه الّتي بين جنبيه»[٣].

وقال أمير المؤمنين «ع»: جاهد هواك كما تجاهد عدوّك»[٤]؛ وقال «ع» أيضاً: «اجعل قلبك قريناً برّاً أو ولداً أو أصلاً واجعل علمك والداً تتبعه واجعل نفسك عدوّاً تجاهدها واجعل مالك عارية تردّها»[٥]. فهو على مافسّره جماعة من العلماء، عبارة عن جهاد المتكلّمين من علماء الدّين في حلّ شبه المبطلين واعداء الدّين، والأكثرون، على انَّ الجهاد الأكبر هو الجهاد مع شيطان النَّفس، الّذي هو أعدا الأعداء وكفرة الأهواء و بغاة الآراء وطغات الشّهوات

١. سورة العنكبوت/٦٩.
٢. سورة الفرقان/٥٢.
٣. بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٦٥.
٤. بحار الأنوار ج ٧٨، ص ٣١٥.
٥. لم نعثر على النص في المصادر المتوفرة لدينا.

وماتميل اليه النّفس من اللّذات.

وامّا لفظ الجهاد لغة: فعال بكسر الجيم من الجهد وهي المشقّة البالغة مصدر من جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة، و بفتح الجيم الأرض الصّلبة، الّتي لاينبت فيها البذر، و بالضمّ الوسع والطّاقة؛ وقال ابن الأثير: بالفتح هو المشقّة، وعند أبي العبّاس بالفتح لاغير النّهاية والغاية. بأيّ تقدير و بأيّ معنى كان، ليس لنا التّعرض الى تحقيقه وهو واضح، وقد استعمل في جميع المعاني و بالوجوه الثّلاثة، موجودة في الآيات والأخبار، وشرعاً بلوغ المشقّة و بذل الطّاقة في النّفس والمال لإعلاء كلمة الإسلام أو اقامة شعائر الإيمان الّذي هو من أعظم الأركان وهو على أربعة أوجه، كما في رواية فضل بن عيّاض قال: سألت أبا عبدالله «ع» عن الجهاد سنّة أو فريضة. فقال: «الجهاد على أربعة أوجه فجهادان فرض وجهاد سنّة لايقاوم إلاّ مع فرض وجهاد سنّة، فامّا أحد الفرضين فمجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي الله «تعالى»، وهو أعظم الجهاد، ومجاهدة الّذين يلونكم من الكفّار فرض، وامّا الجهاد الّذي هو سنة لايقاوم إلاّ مع فرض»[١].

انّ مجاهدة العدوّ فرض على جميع الأمّة ولوتركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الأمّة وهو سنّته على الامام وحده أن يأتي العدوّ مع الأمّة فيجاهدهم، وامّا الجهاد الّذي هو سنّة فكلّ سنّة أقامها الرّجل وجاهد في اقامتها و بلوغها واحيائها، فالعمل والسّعي فيها من أفضل الأعمال، لأنّها احياء سنّة. وقدقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من سنّ سنّة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[٢].

الحاصل الآيات والأخبار كثيرة في ثواب الجهاد الأصغر: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات»[٣]؛ «ولاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً»[٤]؛ «انّ الله اشترى من المؤمنين

١. تحف العقول: ص١٧٥.

٢. صحيح مسلم، ج٢ ص٧٠٥، سنن ابن ماجة، ج١ ص٧٤، وسائل ج١١ ص١٦ نقلاً عن الكافي والتهذيب والخصال وتحف العقول.

٣. سورة البقرة/١٥٤.

٤. سورة آل عمران/١٦٩

أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون»[١]؛ وكلّ هذه الآيات وردت في الجهاد الأصغر.

وامَّا الجهاد الأكبر الّذي صرَّح بأفضليّته عن الأصغر، كما سمعت من الأخبار آنفاً وهو جهاد النَّفس قال الله تبارك و«تعالى»: «والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا»[٢]؛ فيجب على كلّ شخص أن يجاهد نفسه بالمحاسبة والمراقبة و يصدّها عن الحظوظ الفانية الدّنيّة و يضيق عليها في حركاتها وسكناتهاوخطراتها،فانَّ كلّ نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها، يمكن أن يشري بها كنزمن كنوز لايتناهى نعيمه أبد الآباد.

وانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة الى مايجلب الهلاك ، خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل. وقدورد في الأخبار الصَّحيحة: «انَّه ينشر للعبد بساعات اليوم واللّيلة أربع وعشرون خزانة فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوّة نوراً من حسناته الّتي عملها في تلك السَّاعة، فيناله من الفرح والسّرور والاستبشار مالووزّع على أهل النَّار لأشغلهم ذلك عن الإحساس بألَمِها، و يفتح له خزانة أخرى، فيراها مظلمة يفوح نتنهاو يتغشّاه ظلامها، وهي السَّاعة الّتي عصى الله الخالق الجبَّار فيها، فيناله من الهول والفزع مالوقسّم على أهل الجنَّة لتنغّص عليهم نعيمها و يفتح له خزانة أخرى، فيراها خالية ليس فيها شيء وهي السّاعة الّتي نام فيها واشتغل بشيء مباح من المباحات، فيتحسّر على خلوّها و يندم على مافاته من الرّبح العظيم الّذي كان قادراً على تحصيله في تلك السَّاعة، وهكذا تعرض عليه خزائن ساعاته من أوقاته في طول عمره»[٣].

و يظهر من بعض الأخبار انَّ الأعمال تتجسّم، وعن بعضها انَّ الحركات الصَّادرة عن الإنسان تنقش في الزَّمان والمكان، وهكذا فينبغي للمتدرّب العاقل الألمعي اللّوذعيّ ان يخاطب نفسه في كلّ صباح اذا قعد من نومه بعد أداء الفريضة

١. سورة التّوبة/١١١.
٢. سورة العنكبوت/٦٩.
٣. لم نعثرعلى النص في المصادر المتوفرة لدينا.

و يقول يانفس: ليس لي بضاعة لسوق القيامة إلاَّ العمر الّذي يمضي آناً فآناً، بل لمحة ولحظة، ولم ترجع أبداً تلك الآنات، فكلّما يفنى منها فهو من رأس المال. والآن الّذي يجيء بعد الآن الأوّل، فهو يوم جديد أو ساعة جديدة، قد أمهلني الله «تعالى» فيه وأنعم به عليَّ ولوتوفاني لكنت تتمنَّى أن ترجعي الى الدّنيا يوماً واحداً لتعملي فيه عملاً صالحاً،فافرضي انَّك توفيّت ثمَّ رددت. فايّاك ثمَّ إيّاك أن لا تضيعي هذا اليوم واعملي انَّه مامن شيء إلاَّ وأنت تشبهينه من وجه.

لكن الغالب عليك أربعة أوصاف الملكيّةوالسَّبعية والبهيميّة والشّيطانيّة، فمن حيث الملكيّة تتعاطى أفعال الملائكة من عبادة الله سبحانه وتعالى، والطّاعة والتقرّب اليه، ومن حيث الغضب تتعاطى أفعال السّباع من العداوة والبغضاء والهجوم على النّاس بالشّتم والضّرب، ومن حيث الشّهوة تتعاطى أفعال البهائم من الشّره والشّبق والحرص، ومن حيث الشّيطانيّة تتعاطى أفعال الشّيطان من وجوه الشّرور وطيّ طريق المكر والحيلة والإفساد بين النّاس واضلالهم عن طريق الحق، فكان المجتمع في اهابك أيّها الإنسان، ملك وكلب وخنزير وشيطان.

فالكلب هو الغضب والخنزير هو الشّهوة، فان اشتغلت بجهاد هذه الثّلاثة ودفع كيد الشّيطان ومكره وحيلته بالبصيرة النّافذة وتكسر شر هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه، اذ بالغضب تنكسر سورة الشّهوة واذللت الكلب بتسليط الخنزير وجعلت الكلّ مقهورين تحت السّياسة، اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكلّ على الصّراط المستقيم، وان لم تجاهدهم قهروك واستخدموك فلا تزال في استنباط الحيل وتسليط الفكر في تحصيل مطلوبات الخنزير ومرارات الكلب، فتكون دائماً في عبادة الكلب والخنزير.

هذا حال أكثر النّاس الّذي همّتهم مصروفة الى البطن والفرج ومناقشة الخلق ومعاداتهم، والعجب منك انَّك تنكر على عبّاد الأصنام عباداتهم لها،ولوكشف الحجاب عنك وكوشفت بحقيقة حالك ومثّل لك: مثل مايمثّل لأهل الكشف؛ امَّا في النّوم أواليقظة، لرأيت نفسك قائماً بين يدي خنزير مشمّراً ذيلك. في خدمته، ساجداً له مرَّة، وراكعاً أخرى منتظراً لاشاراته وأمره، فهما طلب الخنزير شيئاً من شهواته،

توجّهت فوراً الى تحصيل مطلوبه واحضار مشتهياته، ولا بصرت نفسك جاثياً بين يدي كلب عقور عابداً له، مطيعاً لما تلتمسه مدقّقاً للفكر في الحيل الموصلة الى طاعته، وأنت بذلك متاع فيما يرضي الشّيطان ويسره، وانّه هو الّذي يهيج الخنزير والكلب و يبعثهما على استخدامك، فأنت من هذا الوجه عابد للشّيطان وجنوده، مندرج في المخاطبين، المعاتبين يوم الدين بقوله «تعالى»: «ألَمْ أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان انّه لكم عدوّ مبين»[١].

فليراقب كلّ عبد حركاته وسكناته ونطقه وسكوته وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه و يقظته، لئلاّ يكون ساعياً طول عمره في عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظّلم، حيث صيّر المالك مملوكاً والسّيّد عبداً والرّئيس مرؤوساً، اذ العقل هو المستحقّ للرّئاسة والسّيادة والاستيلاء وهو قد سخّره لخدمة هؤلاء وسلّطهم عليه وحكمهم فيه. قال بعض المفسّرين عند قوله «تعالى»: «وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعاً منه انّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون»[٢]؛ قد سخّر لك الكون ومافيه لئلاّ يستسخرك منه شيء، وتكون مسخّراً لمن سخّر لك الكلّ، فان جعلت نفسك مسخّرة لما في الكون، أسيرة للذّات الفانيّة، فقد جهلت بفضل الله لديك وكفرت بنعمته عليك، إذ خلقك عبداً لنفسه، حرّاً من الكلّ، فاستعبدك الكلّ ولم تشتغل بعبوديّة الحقّ بحال.

نقل عن الرّسالة الموسومة بـ«زجر النّفس» المنسوبة الى هرمس الهرامسة، أعني ادريس النّبيّ على نبيّنا وآله وعليه السّلام، الّتي تكفي للعاقل، بل لمطلق من لاحظها، عالماً كان أو غيره نصحاً وزجراً وهي ثلاثة عشر فصلاً نقلتها بعينها.

الفصل الأوّل:

يانفس تصوّري وتمثّلي ماأنا مورده من المعاني العقليّة، الموجودة وجوداً دائماً، فاتصوّريه فاعقليه واقتنيه وتيقّنيه كتيقّنك: انّ الحيّ جنس الإنسان، وانّ المتنفّس جنس لنوع الحيّ وكتيقّنك أيضاً انّ المستوي غير المعوّج، وانّ الكلّ أعظم من الجزء، وانّ الماء يروي من العطش،

١. سورة يس/٦٠.
٢. سورة الجاثية/١٣.

وانّه بارد بالطّبع، وانّ النّار تحرق وانّها حارةيابسة. وكسائر ماعقلته وشاهدته وشافهته في عالم الحسّ والعقل وماخفي عنك. يانفس: ممّا أنا مبيّنه لك فاستعملي فيه التّمثيل العقلي، الصّحيح، التّبريء من الأغلاط فانّه سيدلّك ظاهر ماشاهدته على باطن ماغاب عنك، كما استدلّ النّاظر الى الصّورة الممثّلة في الحائط على وجود المصوّر لتلك الصّورة، وكما استدلّ ممّاعاين من حركات يد الكاتب على سائر تخطيطها وتشكيلها، وعلى لطائف ماكان قائماً في فكره ونفسه.

وفي جملة ذلك يانفس: فانّه قديستعمل التّمثيل في الإعتبار والتعجّب ممّاقدورد فيما هو غير وارد لامحالة بضروب الأمثال على غائبها وشاهدها. فاستعملي يانفس: التّصور والتّمثل في سائر الأشياء، الموجودة عقلاً وحسّاً، واعلمي انّ الشّيء الذّاتي بالحقيقة الأصليّة النّوري هو المفيد للحكم اللّطيفة والتّميزات الشّريفة والحياة الدّائمة، ولكيفيّة سائر الأشياء الّتي هي جزئيّات لاأجزاء، وهو كليّ لها لاكلّ.

فاعتبري ذلك يانفس: وتيقّظي واحذري الغفلة والتّواني واستعملي التّهذّب والحذرمن أوساخ الطّبيعة واستعيني على ذلك بالخضوع والرّغبة الى ينبوع الخير ومظهره وأصله ومبدعه ومفيد الحكمة والحياة والجود التّام والرّحمة، لتحيي بذلك يانفس وتسعدي.يانفس: انّ مبدع الأشياء ومبدئها ومنشئها جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه: أبدعك وجعلك ذات التّصوّر والتّمثّل، فامّا التّصوّر فتصوّرك الشّيء على حقيقة ماأبدعه مبدعه.

وامّا التّمثّل فتمثّلك ماخفي عنك معناه من عالم العقل بماشهدته في عالم الحسّ، مثلاً بمثل ومعنى بمعنى، كما دلّت الصّورة المطبوعة من السّمع على معنى حقيقتها في الطّابع. وكما تدلّ الصّورة الممثّلة على معنى حقيقتها في نفس ممثّلها ومصوّرها. واعلمي انّ جميع ماأنت مشاهدة له في عالم الحسّ والكون من الصّور والصّنع، هي تمثالات وتشكيلات معان؛ هي في عالم العقل بالحقيقة، غيرزائلة ولابائدة، وإنّما تصوّر العقل ذاته في الهيولي، ثمّ ينظر بذاته الى معاني ذاته وصورها، فيلتذّ بذلك معجباً فيه بذاته واللّذة العقليّة، هي مايناله العقل من ذاته بذاته لابشيء خارج عنه، ولايعرض عارض؛ بل من ذاته لذاته، وهي هذه اللّذة الحقّ الدّائمة، الأبديّة.

يانفس: افتني معرفة الأشياء وانّياتها وماهيّاتها ولاتجعلي لمعرفة كميّاتها وكيفيّاتها، لأنّ المطلبين الأوّلين بسيطان أزليّان، لاوسط بين النّفس و بينهما، وانّ المطلبين الآخرين مركّبان، زمانيان، مكانيّان.

واعلمي يانفس: انّ علم المركّبات منفصل عنك عند مفارقتك الحسّ، فخذي علم البسيط وذري علم المركّبات.

الفصل الثّاني:

يانفس: لا تذّمي الدّنيا فتقولي: هي دارخديعة ومفسدة وغرور، فانّها ليست «كذلك» إلاّ عند ذوي العقول النّاقصة ومن يعرض له النّسيان والجهل، ولوكانت دار خديعة بالحقيقة لكان الإنسان منذ بدء ظهوره فيها الى وقت خروجه منها لايشافهه منها إلاّ نعيم ولذّات وسرور. ثمّ تأتيه المساءة بغتة، فتزيله عن ذلك النّعيم وليس الأمر فيها «كذلك»؛ بل إنّما يرى الإنسان أحوالاً مختلة لا نظام لها، فيوماً محزوناً و يوماً مسروراً و يوماً ملتذّاً و يوماً متألّماً متوجّعاً، والشيء اذا أظهر لك جميع مافي طبعه، فقد أنصفك ونصحك، وإنّما المخادع من كان في طبعه الخير والشر، فأظهر لك الخير وأبطن لك الشر، لوقت المكنة منك. ولست أرى أحداً نال من هذه الدّنيا فرصة وراحة، إلاّ وأعقبه غصّة وألماً، وليس هذا شرط المخادعة من قبل الدّنيا، وإنّما المخادعة من قبل الإنسان نفسه، وذلك: انّ الإنسان النّاقص، والمخادع نفسه والملك لها الدّنيا، لأنّ الدّنيا قد أظهرت له جميع مافي طبعها من نعيم و بؤس، واغتبط الإنسان الضّعيف العقل بنعيمها ولتفقّده دائماً ونسيه بؤسها وأهمله، ثمّ يقول: خدعتني الدّنيا.

يانفس: لا تكن أخلاقك في هذه الدّنيا كأخلاق الصّبيّ الّذي لاعقل له، ان أطعم ورفق به رضى وضحك، وان شدّدعليه بكى وغضب، فهو بينما يكون ضاحكاً حتّى يكون باكياً؛ و بينما يكون راضياً حتّى يكون غضباناً وليست هذه أخلاق فردية؛ بل أخلاق مشتركة مذمومة.

يانفس: إنّما رتّبت الدّنيا على هذه المعاني المختلفة الّتي هي خير وشر ونعيم و بؤس وشدّة ورخاء، تنبيهاً للنّفس وايقاظاً لها وأمثلة تعمل عليها، فتكتسب بذلك العقل المضيء النيّر والعالم التّام، الّذي هو الحكمة والمعرفة بحقائق الأشياء، وإنّما وردت إليها النّفس، لتعلم وتختبر، ومن ورد الى محلّ من المحال، ليعلمه ويختبر حاله ثمّ ترك العلم والإختبار والبحث، وتشاغل بالنّعم والتّلذذ، فقدضيّع مطلبه ونسى إربه الّذي قصده له.

يانفس: إنّما هذه الدّنيا دارعلم وبحث واختبار للمتأمّلين. فتأمّلي يانفس: جميع معانيها وصورها وهيئاتها وتشكيلاتها المحسوسة، الزّائلة الأشخاص. واعلمي: إنّما هى أمثلة للصّور الخفيّة والتشكيلات الحقيقيّة الدائمة الأبديّة.

و بالجملة يانفس: فانّه ليس في عالم العقل نوع إلاّ وله شكل «ظاهر» في جريان الطّبيعة، و«كذلك» كلّ ماهو موجود في عالم الكون إنّما هو دواعي ومثالات لذّاته الزّائلة الكاذبة، تدلّ على اللّذات الصّادقة الدّائمة وصوره المنحلّة السّائلة الهالكة، تدلّ على الصّور الباقية الثّابتة. وانّ

اختلاف جميع مافي الحسّ وزواله، يدلّ على اتّفاق جميع مافي العقل و بقائه وثباته، فمادمت يانفس؛ في عالم الطّبيعة فلا تطلبي لذّة ولا تتشاغلي لمحسوس عن العلم والتّصوّر والتّمثيل والبحث والاستكشاف، لجميع ماقصدت له من مطالبك وآرائك وتهذّبي من أوزار جسمك وتتقي من المخالفة لجوهرك ؛ ثمّ صيري الى عالم اللّذات الخفيّة والسّرور الدّائم والبسي حلل الذّاتيّة وتصوّري بصورك الجوهريّة، الدّائمة الباقيّة، الّتي شاهدت تشكيلاتها ومثالات أنواعها وأنت في عالم الكون والفساد، فتيقّني يانفس: جميع ماقدشرحته لك واعقلي له.

يانفس: انّ مهلكات النّفوس ثلاثة أجناس: الشّرك وهوفساد قوّة النّطق، والظّلم وهو افراط القوّة الغضبيّة؛ والتلذّذ وهو افراط الشّهوة؛ ويجمع هذه الأجناس أصل واحد وهو حبّ الدّنيا. فاحذري يانفس من الدّنيا. واعرضي عنها وانظري اليها بعين الخائف الوجل منها، كالطّائر الّذي عرف الفخّ المنصوب وفطن له، فانحرف عنه وحذره. واعلمي يانفس: ان حذرك من جنس الشّرك يذهب بك الى رتبة التّوحيد، وان حذرك من جنس الظّلم، يذهب بك الى رتبة النّور والصّفاء والتّمحّض والترهب، وان حذرك من جنس التّلذّذ يريحك من مقاساة الخوف والحزن والجهل والفقر، فتبقى بحقيقة هذه المعاني وتيقّنها. واعلمي بها تحيي وتسلمي بها من الهلكة.

يانفس: انّ المبدع جلّ اسمه، كالنّاطق الفائض بماعنده من المعاني والجواهر، كلّها على المستمعين منه، وليس كلّ المستمعين يفهمون من التّكلّم؛ بل منهم من يحتاج الى ترجمان نوريّ له، ووسيط متوسّط بين النّاطق والسّامع، وذلك لضعف السّامع عن فهم القول، فلا تكوني يانفس: من الجواهر المحتاجة الى الوسائط، فانّ التّرجمان ربّماخان في تغيير الكلام وغيّر القول وحرّفه، فاخرجي يانفس عن رتبة العجومة الى رتبة الفصاحة، واقتني العلم قبل العمل.

الفصل الثّالث:

يانفس: حتّى متى أنت فقيرة، هاربة من ضدّ الى ضدّ، فتارة هاربة من الحرّ الى البرد، وتارة من البرد الى الحرّ وتارة من الجوع الى الشّبع، وتارة من الشّبع الى الجوع، و«كذلك» في سائر الأطعمة والرّوائح، ان أسرفت عليك الحلاوة، افتقرت الى الملوحة، وانّ أسرفت عليك الملوحة، افتقرت الى الحموضة، و«كذلك» أنت في جميع المشمومات وجميع ماأنت مشاهدة له في عالم الحسّ، فبينما أنت فقيرة الى المقتنيات، فاذا وصلت الى ذلك، اكتسبت الخوف عليها مادامت معك، فاذا فارقتك وفقدتها، زال عنك الخوف وأعقبك ذاك حزناً وغمّاً. فانزعي يانفس:

هذا الشّيء الّذي أنت مشاهدة به لهذه الأشياء الذي أنت واجدة لهذه الأمراض والآلام بسببه، ولا تأسي لمفارقة الأحزان والهموم والخوف والفقر، ولا تكرهي مواصلة الغنى والعزّ والأمن والسّرور، فانّه من آثر الفقر على الغنى والخوف على الأمن والذّلّ على العزّ، كان جاهلاً، ومن جهل ضلّ ومن ضلّ هلك.

يانفس: تيقّني انّك قد برزت على أصل أنت فرعه، وانّ الفرع وان جرى على غاية في البعد عن أصله فانّ بينه و بينه وصلة ورابطاً وبهذه الوصلة والرّباط يستمدّ كلّ فرع من أصله، كالشّجرة المثمرة، فانّ الثّمرة وإن بعدت عن أصلها، كان بينها و بينه اتّصال وربط، به يكون استمدادها منه، ولوعدم ذلك الإتّصال، بأن قطع بينهما قاطع ممّا سواهما، فسد الفرع في الحال وتلف، فتبصّري يانفس: هذه الأشياء وتيقّنيها؛ واعلمي: انّك راجعة الى مبدئك الّذي هو أصلك ووثيقك؛ واحذري من أوساخ الآنات المبطئة بك عن سرعة الرّجوع الى عالمك وأصلك.

يانفس: هذا عالم الطّبيعة وهو محلّ الفقر والخوف والذّلّ والحزن وهذا عالم العقل وهو محلّ الغنى والأمن والعز والسّرور، وقد شاهدتيها جميعاً وسكنتيها، فتخيّري على علم و بصيرة، واختبري اللّبوث في أيّهما شئت غير مدفوعة ولا ممنوعة. واعلمي: انّ من الممتنع أن يكون انسان فقيراً، غنيّاً، خائفاً، آمناً، عزيزاً، ذليلاً، مسروراً، محزوناً واذا كان هذا هكذا «فكذلك» لايمكن أن يجتمع للانسان حبّ الدّنيا وحبّ الآخرة، بل ذلك من الممتنع أشدّ الإمتناع.

يانفس: من طرح سلاحه واستسلم لعدوّه، وجب أسره ومن قاتل بسلاحه وحمى نفسه وجب قتله، وأيّ نفس وردت الى عالم الطّبيعة، فلا تدلّها أن تسلك احدى هاتين الحالتين، امّا القتل وامّا الأسر، فمن اختار الأسر، فقد اختار طول العذاب وهوان الإستعمال وذلّ العبوديّة، ومن اختار القتل مات عزيزاً وكان موته حياة له واستراح من الأسر وهوانه وطول ذلّه.

يانفس: متى نويت ترك الأفعال الخسيسة الدّنيّة، فاقصدي نبعتها[1] وأصلها فاجتنبيه. وهو حبّ الدّنيا ومتى نويت الأفعال الشّريفة الإلٰهيّة فاقصدي أصلها، فاغرسيه وربّيه وهو الزّهد في الدّنيا.

يانفس: لا تغتري بدنيّات الأمور وخسائها فتلزمك العادة بذلك، فتكتسبي طبعاً مخالفاً لطبيعتك، فتعدمي الإنضياف اليها والرّجوع الى وطنك، واعلمي: انّ مبدع الأشياء جلّ وعلا، هو أشرف الأشياء كلّها، فاقتني لشرائف الأشياء لتقربي من بارئك بطريق المجانسة.

١. النبع شجر يتّخذ منه القسيّ، الواحدة نبعة و يتّخذ من أغصانها السّهام.

يانفس: تطلبين الإستقرار وأنت في عالم الكون والفساد، أيّ استقرار يوجد في عالم الكون والفساد، انّ الدّف مادام على ظهر الماء فلاقرار له ولاطمأنينة البتّة، وإن استقرّ وقتاًما. فانّ ذلك بالعرض، ثمّ يعود الماء باضطرابه وتموّجه بما على ظهره، وإنّما يستقرّ ذلك الدّف: اذا أخرج من الماء وأُعيد الى الأرض، الّتي هي نبعته وأصله ومشاكلة له بالكثافة والثّقل، «فحينئذ» يستقرّ به القرار؛ و«كذلك» النّفس، مادامت في حدثان الطّبيعة لاراحة لها ولاقرار، ولاطمأنينة لا تعابه لها وخذلانه لها، فاذا عادت الى نبعتها وأصلها، استقرّت وظفرت بالرّاحة واستراحت من شقاء الغربة وذلّها.

الفصل الرّابع:

يانفس: انّ عالم الطّبيعة صفو وكدر، فتجرّعي كدره قبل صفوه، فانّه الّذي ينبغي أن يكون في التّدبير والسّياسة. واعلمي: انّ شرب الصّفو بعد الكدر، خير من شرب الكدر بعد الصّفو، ولا تغترّي بقولي: انّ في عالم الطّبيعة صفواً وأيّ صفو يوجد فيه؟ وهو كدر، وكلّ كدر، وإنّما ضربت لك ذلك مثلاً؛ فان أردت الصّافي الهنيّ فاطلبيه في عالم غير عالم الكون والفساد، فانّك ان طلبته في معدنه وجدته، وان طلبته في غير معدنه عدمته، وإن عدمت طلبت، اقترنت بك الأحزان، وأعقبك ذلك مرضاً يؤدّي بك الى الموت من العيش العقلي، والحياة الدّائمة.

يانفس: انّ هذا المركّب الّذي قدركبت في البحر العظيم، إنّما هو من مياه تجمده بالعرض، فيوشك أن تطلع عليه الشّمس فتنحلّ الى عنصرها وتتركك جالسة على وجه الماء، ان أمكنك الجلوس، تطلبين مركباً، ولامركب إلاّ مااكتسبته من جودة السّباحة وحسن التأنّي.

يانفس: انّ الماء الصّافي النّقي مؤدّ الى رؤية سائر مافي ذاته، فاذا شافهه الكدر حجب التبصّر عن ادراك سائر الأشياء المسكّنة فيه، وكذلك نور الشّمس اذا أشرق على الأشياء، كان البصر مدركاً لها بالحقيقة، فاذا عرض فيه البخار والدّخان والغبار، حال بين البصر و بين ادراكه تلك الأشياء، و«كذلك» أنوار العقل اللّطيفة الشّريفة، اذا امتزجت بالأشياء الكثيفة، المظلمة كدرتها وعاقتها عن ادراك مافي ذاتها من الصّورة والأشكال، «فحينئذ» تبقى النّفس فقيرة من مقتنياتها جاهلة لمعلوماتها، عادتهاحسن التّهدّي الى طريق نجاتها.

يانفس: ليس الزّهد في دار الدّنيا بترك تزيينها واصلاحها مع الرّضا بالمقام فيها، وإنّما الزّهد التّام، الرّضا بالتّحويل عنها، والاشتياق الى النّقلة منها، وكذلك يانفس: ليس الزّهد في عالم الطّبيعة بترك لذّاته وشهواته مع الرّضا بالمقام فيه، إنّما الزّهد بالحقيقة شدّة الشّوق الى مفارقته

والرّاحة منه، ومن معاندته ومضادته.

فينبغي لك يانفس: أن تعقدي الشّوق الى الموت والرّضابه، وتحذري الفشل عنه، فبالخوف منه تكون الهلكة، و بالشّوق اليه تكون السّلامة، ألا تعلمين يانفس: انّك بالموت منتقلة من الضّيق الى السّعة، ومن الفقر الى الغنى! ومن الحزن الى السّرور! ومن الخوف الى الأمن! ومن التّعب الى الرّاحة، ومن الألم الى اللّذة! ومن المرض الى الصّحّة! ومن الظّلمة الى النّور، فلا تأسي يانفس: على أن تسلبي حلل الشّرّ والشقاء، وتلبسي حلل الخير والبقاء.

يانفس: تطلبين الاخوان والصّحابة في عالم الكون والفساد، وقدعلمت انّ ذلك جنس الممتنع، إنّما يوجد ذلك في عالم الروحانيّين، لانفراد ذواتهم وتمحضها وصفائها، فان أحببت ذلك، فصيري الى هناك لتظفري بمطلوباتك، ولا تطلبين من عالم الكون ماليس فيه، لأن سكّانه أسرى ومماليك، فأيّ اخوة لأسير؟ وأيّ عهد لمملوك ؟ فتيقّني ذلك واعلمي، واعتقديه يانفس: اعلمي وتيقّني: انّ كلّ فاقد تائه، وانّ كلّ تائه هالك، فاحذري ان تقتني ماتفقديه منه فتنامي وتهلكي.

يانفس: ماأشدّ مفارقة الأحباب! وأشدّ من ذلك محبّة كلّ مفارق. يانفس: تيقّني وتفهّمي بالإستقراء والتّمثيل والتأمّل: انّ الأشياء الّتي هي سبب هلاك النّفس، الجهل والحزن والفقر والخوف.

واعلمي يانفس: انّ من بحث عن العلم عدم الجهل، ومن ترك المقتنيات الخارجة، عدم الحزن، ومن عفّ عن الشّهوات عدم الفقر، ومن تشوّق الى الموت ورضي به، عدم الخوف. يانفس: انّ الموت تحت الصّبر والثّبات عزّ، وانّ الموت تحت الهزيمة والفشل ذلّ. يانفس: القتل إنّما هو ساعة تنقضي ومقاساة ذلّ الأسر حال يطول، فارضي بالقتل في الطّبيعة، ولا ترضي بالأسر، فانّ القتل بالطّبيعة هو الحياة الدّائمة.

يانفس: هذه رتب ثلاث، فكوني على أشرفها وأجلها، فأدناها رتبة عالم غير عامل، وهو كرجل ذي سلاح لاشجاعة له، والرتبة الثانية رجل عامل غير عالم، وهو كرجل شجاع لاسلاح له، غيرانّ الشّجاع على السّلاح أقدرمن الجبان على الشّجاعة، والرتبة الثالثة رجل عامل عالم، فهو رجل ذوشجاعة وسلاح، وهذه ينبغي أن تكون هي الرتبة الشّريفة.

يانفس: انّ القمر نيّر ماورد اليه نور الشّمس، فاذا عرض له، أن يحول بينها ظلّ الأرض، انخسف وأظلم، «فكذلك» النفس، مضيئة ماورد إليها نور العقل، فاذا توسطت أسباب الدّم والبلغم والمرتين بينها عدمت النّفس نورها، فانكسفت واظلمت، وكما انّه مادامت الأرض في

وسط العالم لن يعدم القمر الخسوف، كذلك النّفس مادامت ملازمة للطّبيعة، لن تعدم الظّلمة والأذى، وقدتبيّن من هذا الشّرح: انّ راحة النّفس في مفارقتها عالم الطّبيعة.

الفصل الخامس:

يانفس: مابال سائر الجواهر الطّبيعة غير العاقلة تكون متحرّكة بالطّبع الى عناصرها ومواضعها الخاصّة بها، لولا انّ كلّ جوهر إنّما كان شرفه وعزّه ان يرجع الى عنصره، فيكون هو وطنه ومحله. يانفس: أليس سائر مايتكوّن من التّراب كالحجارة وغيرها، يرجع منحلاً الى التّراب، الّذي هو أصله ونبعته، حتّى انّه لوأخذ جزء من الأرض فعلى به من وجه الأرض، ثمّ خلّى سبيله يعود مسرعاً بحركته الطّبيعة الى عنصره وأصله، و«كذلك» سائر المياه، تراها أبداً متحرّكة بالطّبع الى عنصرها الأعظم، مالم يعقها عائق كسائر العيون الّتي تنضاف الى الأنهار وسائر الأنهار الّتي تنضاف الى البحر، الّذي هو عنصر الماء، وكذلك غيرها كالنّار مثلاً، فانّها أيضاً متحرّكة بالطّبع الى عنصرها، فاذا كانت هذه الأشياء، الّتي ليس لهاعقل ولا تمييز، وإنّما حركتها حركة هيام[1] وطبع، يتحرّك كلّ شيء منها الى حيث شرفه وعزّه وقوّته، و يأبى البعد والغربة عن وطنه ومحلّه. فمابالك أنت يانفسي: وأنت ذات العقل والتّمييز، تأبين الرّجوع الى وطنك وعنصرك ، الّذي فيه شرفك وعزّك ، وتكرهين ذلك وتحبّين البعد عن أصلك ونبعتك، وتختارين اللّبوث في أرض الغربة ومقاساة الذّلّ والهوان.

فياليت شعري: أبالطّبع تختارين ذلك أم بالعقل ؟ فان كان ذلك بالطّبع، فساوى الطّبيعة في أفعالها ورجوعها أبداً الى عنصرها، وإن كان هذا منك بالعقل والتّمييز فكيف يجوز للعاقل المميّزان يختار الغربة على الوطن ؟ ومحلّ الخساسة على محلّ الشّرف ؟ ومقاساة الذّلّ والهوان على الرّاحة؟ والعزّ والكرامة؟ ومن توقّف على هذه الرّتبة، فتبيّن انّه لايعدّ في رتبة الطّبيعات ولافي رتبة العقليّات، ومالم يكن من هٰذين الجنسين، فليس هو بشيء ولايعدّ في الموجودات؛ بل ينبغي أن يكون منفيّاً، فتصوّري يانفس: هذه المعاني، وارجعي بعقلك الى شرفك الأعلى ومحلّك الأقصى.

يانفس: انّي تأمّلت اللّذات كلّها، فلم أجد ألذّ من ثلاثة أشياء: العلم والأمن والغنى،

١. الهيام: بالفتح الرمل الذي لايتماسك أن يسيل من اليد للينه «مجمع البحرين». الهيام: جمع هُيُم: مالايتماسك من الرمل فهو ينهار أبداً «المنجد».

ولكلّ واحد من هذه الأشياء أصل و ينبوع يحركه، فمن طلب العلم، فليذهب الى معنى التّوحيد، فانّه بالتّوحيد تكون المعرفة والعلم والتّحقّق. و بالأشراك تكون النّكرة والجهل والشّك، ومن طلب الغنى فليذهب الى رتبة القنوع، فانّه لاقناعة لغني، ومن طلب الأمن فليعتقد التّمنّي لمفارقة عالم الطّبيعة.

يانفس: مادمت في عالم الكون، فاحذري حالتين هما والله مهالك النّفوس واحذريها وانحرفي عنهما انحراف الخائف الوجل منهما، وهما النّساء والأشربة المسكرة. يانفس: انّ الواقع في مصيدة النّساء، كالطّائر الواقع في يد صبيّ لاعقل له، فالصّبيّ يلهو به و يلعب و يفرح بهجاً بذلك مسروراً، والطّائر في ذلك يتجرّع غصص الموت، و يتلقّى أنواع العذاب. وكذلك ينبغي يانفس: ان تحذري الشّرب والسّكر، فانّ السّكر يجعل النّفس كالسّفينة المارة في تيّار[1] الماء وأمواجه وليس فيها ملاّح ولامدبّرها. و«كذلك» النّفس اذا فارقت العقل، جرت بها الطّبيعة جريانها لا ترتيب له ولانظام فهلكت وماتت.

الفصل السّادس:

يانفس: انّه لوشرب شارب من الماء شربة واحدة، لقد كانت تلك الشّربة تقرّر في نفسه المعرفة بطبيعة الماء كلّه، فانّ اختيار جزء من الشّيء البارد لمنبيء عن جميعه. وإنّ النّاظر الى كفّ من التّراب، لعالم بالتّراب كلّه، فانّ التّراب وإن اختلف لونه فليس جوهره بمختلف، وإنّ المصاحب للقرناء والخلاّن الّذين كلّهم من طينة واحدة وجوهر واحد، لعارف بأن واحدهم لينبيء على جميعهم، فاقتصري يانفس: بهذا الشّرح، واكتفي به يانفس: أنت صافية فلا تصحبي كدراً، وأنت نيّرة غير مظلمة فلا تصحبي مظلماً، وأنت حيّة ناطقة فلا تصحبي ميتة أبكم، وأنت عالمة عادلة فلا تصحبي جاهلاً جائراً، وأنت طاهرة نقيّة فلا تصحبي نجساً دنساً، وأنت متصرّفة بالتّمييز والإرادة فلا تصحبي المتحرّك حركة الهيام.

يانفس: مااشتغل الغريق في الماء عن صيد السّمك، و«كذلك» ساكن الدّنيا فما أشغله عن مقتنياتها ولذّاتها: إن فطن لسوء وقوعه فيها. يانفس: انّه يجزيك وأنت في عالم الحسّ ماتقايسينه من آلتك وأضدادها وأوساقها، فلا تضيفي الى آلاتك شخصاً آخر، فتكون كالغريق المرتهن في البحر، قد حمل على عاتقه حجراً، وما كلّ غريق ينجو من البحر مجرّداً بنفسه، فكيف اذا حمل على عاتقه حجراً.

١. التّيار: بالتشديد موج البحر «مجمع البحرين».

يانفس: اعلمي انَّ كلّ شيء يذهب و ينتقل الى نحو العلوّ، ينبغي أن يكون خفيفاً صافياً نقيّاً، ليكون أسرع لمرّه الى غايته. يانفس: انَّ الأصناف الشّريفة ترد من عالمها الى عالم الطّبيعة ورود مختبر له، فاذا استعملت الآلات الّتي تشافه بها الأطعمة والرّوائح والمبصرات وجميع الآلام العارضة في الحسّ، نسيت عالمها وجميع مافيه، وظنّت انَّه لاشيء غير ماهي مشاهدة له في الحسّ «فحينئذ» تنسى عالم العقل وتعدم ذكره. ثمَّ أنها كلّماعقلت شيئاً، ممَّانسيته انجلى بصرها وقويت صحّتها وفاقت مرضها، وعند ذلك تدرك ببصر عقلها، انَّ جميع ماهي مشاهدة له في عالم الحسّ، إنَّما هو خيالات أشياء، لاأشياء بالحقيقة وخيال الشّيء هو ظلّ الشّيء بالحقيقة، وإنَّما عرض للنّفس بمرابط أشكال الأنواع، دون الأنواع نسيانها عالم العقل أولاً عند ورودها الى عالم الحسّ. وبتأمّلها هذه المعاني وذكرها إيّاها، تكون صحّتها من مرضها وعقلها بعد جهلها، فتذهب راجعة بتمام المعاني الحقيقية والحياة السّرمديّة.

يانفس: تأمّلي قولي وافهميه واعلمي: انَّ العقل للنّفس كالأب والطّبيعة كالزوجة، وانَّ للنفس جهتين تميل إليهما، فتارة تميل نحو العقل بالمناسبة كالمناسبة الّتي بين الأب والإبن، وهذا هو الميل الطّبيعي الحقيقي، وتارة تميل نحو الطّبيعة بالهوى كالعشق الّذي يكون بين الرّجل والزّوجة، وهذا هو الميل العرضي الزّائل؛ فتأمّلي يانفس: الرّجل اذا خلا مع زوجته كيف تعامله بالملاعبة والضّحك والملق وتكلّمه بألطف مايكون من الكلام وأرقّه، وليس ظاهر ماتبديه من ذلك كباطنه، لأنَّها إنَّما تفعل ذلك لتسعيد وتستعمله وتذهب به الى المهالك.

فانظري يانفس: الى فعل الزّوجة كيف تسقي العسل مخلوطاً بالسمّ القاتل، الرّدىء العاقبة. ثمَّ تأمّلي يانفس: فعل الرّجل اذا خلا مع أبيه كيف يعامله بالعتب والتّوبيخ و يكلّمه بأحقر مايكون من الكلام واخشنه، وليس ظاهر مايبديه من ذلك كباطنه، لأنَّه إنَّما يريد بذلك تشريفه ومنفعته في جميع حالاته، فانظري يانفس: الى فعل الأب كيف يسقي الدّواء المرّ الكريه، لمنفعته مخلوطاً بالصّحة والحياة وحسن العاقبة. وانَّ لطمة من أبيك خير لك من قبلة من زوجتك.

الفصل السّابع:

يانفس: حتّى متى أنا أسوقك الى طريق النّجاة والمنفعة لي ولك، ولا تنساقين وأنت سائقة الى طريق المضرّة والهلكة لي ولك، فلاأنساق معك، فاذا كان قدوجب هذا الخلاف بيني و بينك، فليس هاهنا يانفس غير المفارقة، فاذاً نفترق ويمضي كلّ واحد منّا الى حيث يهوى و يريد. يانفس: ان فاتتك فرصة العمل بالنّصيحة في أوان العمل، فاتتك حلاوة الإستثمار

والثّواب على صالح الأعمال، فانّه إن لم يغرس الشّجرة في أوان الغرس لم يتلذّذ بالثّمرة عند أوان ادراك الثّمار.

يانفس: انّ المواعظ المنبّهة، تصقل النّفوس من الصّدأ. وانّ المرات الصّيديّة بالعرض السّريع الزّوال، ممكن بالصّقل جلاؤها، وانّ المرات الّتي قبلت الصّدأ بالعرض الثّابت المبطىء الزّوال، الخارج من حدّ القوّة الى حدّ الفعل بتمامه، وقدصار ذلك الصدأ طبعاً ثانياً مستحكماً، فلن ينجح فيها على الصقل، ولايستخرج الصّدأ منها إلاّ باعادتها الى النّار والسّبك، و«كذلك» النّفوس العرضيّة تنجلي بالتنبيه والمواعظ فتذكّر سالفات أمورها، وامّا النّفوس الطّبيعيّة الكدر والوسخ، فلايجلوها إلاّ دخولها في رتبة العذاب.

يانفس: انّه لايمكن لأحد أن يدرك فضل حلاوة العمل على مرارة الصّبر، دون أن يذوقهما جميعاً و يعقلهما.

يانفس: كم بين الخارج من الشيء قدخبره وذاقه عن زهد فيه، و بين الداخل إليه الراغب في أن يختبره و يذوقه.

يانفس: انّ المقاتل في الحرب يتمنّى الخروج منها، لكرب القتال وثقل السّلاح، ومن لم يشاهد حرباً قطّ، يشتهي أن يلاقي الحرب و يذوقها، فان كنت يانفس: وصلت الى غايتك ممّا خبرته، فارجعي الآن الى نهايتك ممّا كنت قدانستيه.

يانفس: كم بين خليل يكدّرك ويجهلك و يعميك ويمنّيك الأماني الكاذبة الخسيسة، فأنت بسببه أبداً محتاجة فقيرة خائفة حزينة ذليلة مظلمة صدية مستعبدة، تتوهّمين دوام خلّته وثباته وهو مسرع بجريانه الى تركك والذّهاب عنك و«حينئذ» يذيقك غصص الفراق وتوهان الفقد، فكم بين هذا الخليل يانفس: و بين خليل: ان افتقرت أغناك ، وإن ضللت هداك ، وإن جهلت علمّك، وإن عميت بصرك ، وهو أبداً معك كلّمادمت معه، اكتسبت من شرفه شرفاً ومن نوره نوراً ومن حياته حياة، ومن علمه علماً ومن غناه وعزّه، غناً وعزّاً، يقينك المقتنيات الدّالة الأبديّة و يفيض عليك بالصّلات، الموجودة الخفيّة وأنت رابحة غير خاسرة.

الفصل الثّامن:

انّه من كان له حبيب ففقده، ثمّ وجد مع فقده إيّاه عنه عوضاً و بديلاً يوشك أن يسلاه و ينساه، ولاسيّما اذا كان الآتي أوفق وأحمد من الماضي، ومن فقد حبيباً ثمّ لم يجد عنه عوضاً، يوشك أن يطول حزنه و يعظم حسرته، ومن السّياسة يانفس: ان كان لك خليل، أنت متحقّقة

من فقده، وفراقه أن ترين عنه بديلاً وتلتمسي لك صاحباً وقريناً. ومن الواجب أن يكون لك لمستأنف أحمد وأوفق من الماضي.

يانفس: فمن قبل مزايلتك عالم الكون والفساد تمكّني من مواصلتك عالم العقل، ومن قبل مفارقتك قرينك الغادر، الدّنيّ الفاني تخيّلي فراقه، وتخلي عنه رو يداً رو يداً واستقبلي مواصلة خليلك الآتي وانسي به وانصافي اليه رو يداً رو يداً، يانفس: انّه من كان ساكن منزل فنغصه وأراد الخروج، فينبغي أن يجد منزلاً قبل انتقاله منه، فانّه من انتقل من موضع ولم يعرف له موضعاً آخر ينتقل اليه، يوشك أن يبقى تائهاً مضطرّاً والإضطرار يلجئه الى السّكنى حيث وجد على غير ترتيب ولا اختيار، ولعلّه يسكن للضّرورة موضعاً شرّاً من موضعه الأوّل، فيتنغّص عيشه وتتكدّر حياته.

يانفس: انّه مامن أحد يسكن في موضع وهو يشتهي أن ينتقل منه الى ماهو أشرف من الأوّل وأوسع وأبهى، فمابالك يانفس: أنت وأنت توثرين السّكنى في المساكن المظلمة الخربة الموحشة، وتتركين المساكن النيّرة، المضيئة المؤنسة، حتّى متى تكوني من عمار الخرابات الموحشة، وتكون منازلك الأزليّة الخفيّة منك، معطّلة خالية.

يانفس: تيقّني ماأنا باسطه لك وممثّله، انّي تأمّلت هذا العالم مختبراً له وباحثاً عنه، فوجدت سؤالها على جهة الابتداء على معنى امتياز، وكلّما لطف وشرف امتاز الى العلو وكلّما كنت وخسّ، هبط الى الأسفل ثمّ وجدت الحركة الفلكيّة يقسّم هيولي هذا العالم على أربعة أصول: وهي النّار والهواء والماء والأرض، وانّي اعتبرت هذه الأركان الأربعة في حركاتها ومعانيها، فوجدتها تتحرّك بالطّبع حركة هيام وموت لاحركة عقل وحياة، وانّي وجدت الأشياء كائنة من هذه الأركان ذات حياة ونطق وعقل، فعجبت كيف تكون الأشياء الميتة الجاهلة، أصول الأشياء الحيّة العاقلة، ثمّ قلت لعلّ هذه الأركان اذا امتزجت في ابدان الحيوان النّاطق، أحدثت فيها حياة وعقلاً، لكن كيف يساغ[1] في العقل أن يمتزج ميّت بميّت، فيفتح بينهما حيّ ويمتزج جهل بجهل، فيكون من بينهما عقل، فدفعتني الضّرورة «حينئذ»: أن أقول: هذا الشّيء الحيّ الفاقد، هو شيء ليس من هيولي هذا العالم، أعني عالم الكون والفساد، بل هي أشياء طارئة غريبة واردة وصادرة، وانّه من الممتنع أن يكون الموت ينبوع الحياة وأن يكون الجهل ينبوع العقل، فينبغي يانفس: انّ تتيقني انّ هذا الشّيء العاقل ليس هو من أركان هذا

١. يساغ: ساغ الأمر: جاز فعله، فهو سائغ.

العالم، بل هو شيء آخر غيره فابحثي عنه لتعرفيه واستكشفي حاله لتخبريه، فبذلك تستعدين وتستكملين علمك وكمالك.

الفصل التّاسع:

يانفس: انّه من أصعب الأشياء وأشدّها امتناعاً، ان نعمل عمل الصّياغة بأداة الفلاحة، أو صنعة النجارة بأداة الخياطة، ولكلّ صنعة أداة ليس يستوفى عملها إلاّ بها، لابغيرها واذا كان الإنسان عارفاً بجميع الصّنائع ومستعملاً جميع أدواتها فقدينبغي له اذا أراد أن يعمل الخياطة، أن يرمي من يده أداة الفلاحة و يأخذ للخياطة أداتها، التّي تصلح لها.

يانفس: ينبغي لمن أراد أن يدرك العلم وعمل الخير، أن يترك من يده أداة الجهل والشر و يأخذ للعلم والخير أداتهما الّتي تصلح لهما وأداة العلم والخير هو بغض الدّنيا والزّهد فيها، كما انّ أداة الجهل والشر هو حبّ الدّنيا والرّغبة فيها.

يانفس: انّ حدّ العذاب، مشاهدة النّفس مااختلف وتغيّر، وانّ حدّ النّعم مشاهدة النّفس ماائتفق وأدام وثبت دائماً، والبرهان على ذلك يانفس: انّ ماشاهدته في عالم الحسّ، فانّ أشدّ النّاس جزعاً وخوفاً واستكانة من كان في النّعيم، ثمّ عدمه وانتقل الى الشّتاء وذلك مقاساة الاختلاف والتّغير، وانّ الإنسان الّذي قدنشأ في الشّتاء واعتاده، فهو لايعرف سواه، لايكون جزعاً خائفاً كالّذي كان في النّعيم، فيؤل الى الشّتاء. فتبيّن يانفس: انّ العذاب هو الاختلاف والتّغيّر، وانّ النعيم هو الا تّفاق والدّولة، فان أردت يانفس: الرّاحة من العذاب، فانتقلي من عالم الاختلاف والتّغيير الى عالم الدّولة والبقاء. يانفس: ان أردت أن تعلمي حال النّفوس بعد مفارقتها الجسد، فانظري الى حالها وهي ملازمة له، فان كانت موفقة للإصابة، فانّها بعد مفارقتها الجسد لن يؤدّيها عادتها بالاصابة إلاّ الى الاصابة، وحسن الاصابة والثّواب، وإن كانت مقارنة للخطأ، فانّ عادتها بالخطأ، لن يودّها إلاّ الى الخطأ، والخطأ يثمر لها العقاب والعمى وسوء المنقلب.

الفصل العاشر:

يانفس: انّي اذا سألت حالك، فيطول تعجّبي لها، تظهرين بالقول، انّك زاهدة بالشّقاء والاحزان، وأنت بالفعل راغبة فيها، وملازمة لها ومغالبة لأهلها عليها، وتظهرين بالقول، انّك راغبة في النّعيم والسّرور وأنت بالفعل زاهدة فيه ومنحرفة عنه ومستوحشة من الطّريق اليه. وهذا يانفس: فعل مختلف، والفعل المختلف لايظهر إلاّ عن فاعل ليس بفارد ولامتوحّد، بل فيه

اشتراك وتركيب، لأنَّ الشّيء الفارد لايفعل إلاَّ فعلاً فارداً لااختلاف فيه. والشّيء المختلط لايفعل إلاَّ فعلاً مختلطاً. فقد تبيّن يانفس: الآن انَّك لم تخلصي من غشّك ولم تتهذّبي من سوء مكتسباتك الّتي اكتسبتها في سالفات أدوارك ،وانَّه قديبقى فيك جزء صدي هو السّبب في اختلاف مايظهر من فعلك، فإن كان هذاالصّدأ[1] فيك بالعرض السّريع الزوال، فبادريه بالجلاء والصقال قبل أن يستحكم في ذاتك، وإن كان هذا الصّدأ فيك مستحكماً باقياً، فعودي الى النّار فانسبكي فيها لتخرجي منها صافية محضة، فانَّ المرآة ذات الجرب الثّابت لاينجح فيها الجلاء، ولاينقلع صدأها الاّ بالنّار والسّبك.

يانفس: تمثّلي بالتّوهّم مفارقة الحواسّ الخمس ثم انظري بعد ذلك، هل أنت مدركة أشياء هي غير ماكنت مشاهدة لها بالحواسّ فقدان رجوعك الى وطنك ووقوعك ارائك؟ وذلك: انَّ العقل اذا زاد أدراك ماهيّته، أفرده ممَّا سواه، وأسرعه ممَّا قارنه، ثمَّ أدركه ادراكاً فارداً بذاته الفاردة، لأنَّه كما انَّ الحسّ لايدرك شيئاً فارداً، كذلك العقل لايدرك شيئاً مركّباً ولايعلمه علماً حقيقيّاً، دون أن يفرد معانيه كلّها على الإنفراد. وقد تبيّن: انَّ بالحسّ الّذي هو المركّب، تدرك المركّبات،وانَّ بالعقل الّذي هو الشّيء الفارد البسيط تدرك الأشياء الفاردة والبسيطة. فتأمّل.

يانفس: كيف العقل كلّما أجرى نحو المركّب فارق الفردانيّة، فارق أيضاً الإدراك الفردانيّ، الّذي هو الإدراك الحقّ، واللّذة الحقّ والعلم الحقّ، وكلّما رجع متوجّهاً نحو التوحيد وفارق التّركيب والإشتراك ، أدرك الأشيأء الفاردة الأبديّة وعدم الأشياء المركّبة. فقدتبيّن من هذا الشّرح انَّ حياة النّفس في مفارقتها عالم الطّبيعة،وإن موتها اللّبوث فيها.

الفصل الحادي عشر:

يانفس: هذا عالم الطّبيعة قدوردته واخترته، فهل اختبرت منه غير مبصرات موحشة مفزعة ملهيّة، ومطعومات مؤلمة وروائح كاذبة منتنة وملموسات دنسة نجسة؟ وكلّماوردت الى هذه الأشياء ارتبطت بها اعجاباً وعشقاً وهوىً ونسيت معانيك الذّاتيّة الشّريفة. فلمَّاعرفت خطأك وزللك. وهيهات هيهات يانفس: ماالذّنب إلاَّ ذنب من خبأه ولاالخطأ إلاَّ خطأ من أخطأه. فتلافي يانفس خطأك وزللك، فانَّك وقعت فيماتكرهين بهواك وشهوتك.

يانفس: تيقّني بأنَّ كلَّ مكروه أصابك وأنت في عالم الكون والفساد، فانَّ أصله وسببه من

١. صدأ: الحديد وسخه «مجمع البحرين».

قبلك ومن حيث خطأك وزللك، ومتى ورد عليك وارد من المكاره، فلم تعرفي سببه وأصله، فهو من خطأك القديم الأوّل، الّذي قدنسيته، لأنّه من أتى الى دار المصائب فدخلها، ثمّ أصابته مصيبة، فانّ ذلك لخطئه اذا أتى الى دار المصائب، وقدكان لابدّ له من دخولها. واعظم من هذا كلّه انّه قدحذر منها فلم يحذر، وخوّف منها فلم يخف، ونصح فلم يقبل النّصح، واتّبع هواه وشهوته.

يانفس: قدكنت وأنت خارج السّجن ترين الأشياء وتستمعين الأخبار، فلمّا دخلت الى السّجن خفى ذلك كلّه عنك، وصرت مسجونة أسيرة تتشوّقين الى خبر تسمعينه، فما الّذي حملك على دخول السّجن؟ أليس هذا بخطائك؟ يانفس: قدكنت في عالم الوحدة مبصرة، غنيّة، عالمة تبصرين العوالم كلّها منضّدة بين يديك، وهي كلّها صافية، نيّرة، مضيئة مشفّة، وفي أسفلها عالم الكون والفساد، أسود مظلم وهو يلوح كما يلوح الحجر الأسود في الماء الصّافي، فقام لك أن تدخلينه لتخبريه وتعلمي علمه، فلمّا عزمت على ذلك، خرجت من رتبة التّوحيد، ونزلت الى رتبة الإشراك ، ومضيت مع الحركة، تطلبين ماهيته، فصرت الى عالم الكون والفساد، فكان مثلك في ذلك: أعني خروجك عن عالم الوحدة ورغبتك وشهوتك في عالم المركّبات، كالطّائر القاصد الى الفخّ المنصوب، ليسلب منه حبّة، فسلبه الفخّ المنصوب مهجته، أو كالسّمكة الّتي في الماء الّتي أرادت أن تبتلع طعم الصّياد، فبلعها الصّياد.

فأنت يانفس: شاهدت بنورك وصفائك عالم الظّلمة ومازجتيه، فتغشّى نورك وأظلمك وأعماك وخفي عنك جميع معلوماتك، وماكنت تبصرينه و بقيت أسيرة رهينة، أفليس هذا كلّه بخطائك القديم؟ ولكنّ متى آثرت الرّجوع يانفس: فاقصدي الأشياء الضّالة، الّتي كانت في الطّبيعة، فانسلخي منها وتنقّي، فانّ نقاءك منها هو سبب خلاصك ورجوعك، وانّي لأجمع لك هذه الأشياء كلّها في معنى واحد، ليسهل عليك علمها، فانّ هذه الأشياء كلّها يجمعها معنى واحد، وهو التّلذّذ الجسماني، فكلّ ماوجدته لذيذاً بالعقل، فخذيه واستعمليه.

يانفس: انّ النّار تنطفيء ونار الشّهوة لا تنطفيء، والأوجاع تعرض للبدن ثمّ تزول و يستراح منها، وأوجاع الشّهوات لايستريح منها المستريح، إلاّ أن يداويها بالعقل. دواؤها موتها واقتناء الصّبر عنها، لأنّ حياة الشّهوة مواصلتها وموتها مقاطعتها. وقدينبغي يانفس ان تعلمي: انّ شهوات الدّنيا ليست كلّها في المآكل؛ بل فيها ماهو خارج عن المآكل. ولكن شهوة المآكل أضرّها، وذلك لأنّ الجسد لايشتهي الأشربه إلاّ بعد أن يشبع، ولايشتهي النّكاح إلاّ بعد أن شرب وكذلك الكسوة وجميع المقتنيات الحاملة للنّفس على ركوب المهالك، المحوجة اليها الى

الضّعة والخساسة والدّناءة.

يانفس: انّي قدبصرتك، فلا تعمى وقدصوّبتك فلاتخطئي، فتعظم حسرتك و يتضاعف عذابك باتباعك هواك وشهوتك. يانفس: انَّ الأعمى اذا وقع في جبّ كان معذوراً عند نفسه وعند غيره. وامّا البصير اذا أتى الى جبّ وهو يبصره، فألقى نفسه فيه بهوله وشهوته، فأيّ عذر له عند نفسه وعند غيره؟ يانفس: ماأعظم حسرة الواقع في المكروه بعلم و بصيرة! وماأشدّعذابه! ومعنى شدّة عذابه علمه، ومعرفته وفطنته بما فعل بنفسه.

الفصل الثّاني عشر:

يانفس: انَّه من غرس شجرة الصّبر، أثمرت له الظّفر ففاز بالغلبة، وانَّ أسعد السّعداء من سما الى شيء فظفر به. ومن غرس شجرة الفشل، أثمرت له الحرمان، ومن أشقى الأشقياء من سما الى شيء فحرمه. يانفس: فاقرني في جميع مطلوباتك كلّها بالصّبر، فانَّ الصّبر خُلق النّفس الأشرف، الّذي تكتسب الخير وتدرك السّعادة. يانفس: انَّ مرارة الصّبر تثمر الحلاوة والرّاحة، وحلاوة الفشل تثمر المرارة والتعب.

يانفس: اقتني الصّبر والثّبات على عبادة إله واحد، فهو أهنأ لعيشك وأعظم لراحتك، واحذري ان يحذرك الملل والضّجر، فتخرجي عن الوحدانيّة، فتكثر آلهتك ومن كثرت آلهته، كثرت خدمته، واشتدّ تعبه ونصبه، وتنوّعت همومه وتشعّبت نفسه، وهلكت في وجوه التّشعّب. يانفس: إنّما الملل والضّجر مقرون بالنّفوس البهيميّة، والصّبر والثّبات مقرون بالنّفوس التّامّة الإنسانيّة، فلايحرّفنّك الملل والضّجر عن حدّ الصّبر، فتروحي الى اتّخاذ الآلهة، ثمَّ تقتسمي بعبادتهم وخدمتهم، فيطفيء نورك و يضعف قوّتك و يزول سلطانك وهذا هو موتك فاحذريه.

يانفس: انَّه ينبغي أن تقفي على معرفة مالها من المعاني والصّور ولا تتوهّمي، انَّ خارج ذاتك ممّا يجب أن تطلبين علمه، بل جميع معلوماتك كلّها هي معك وفيك، فلا تتوهّمين بطلبك ماهو معك فانَّ كثيراً من النّاس يكون معه الشّيء، فينسى انَّه معه، فيطلبه خارجاً عن نفسه، ثمَّ يأتيه الذّكر فيذكره ويجده مع نفسه لاخارجاً عنها. يانفس: انَّ آلة الصّانع اذا خلقت أو كانت منقصة لانهدامها، أقلّ منفعة بهاديها، أقلّ جدوى له عليه، فتركها خير له من استعمالها، واستبدالها أصلح له من سحه عليها.

يانفس: انَّه يجب على الصّانع متى وجد الآلة المحمودة أن يعمل بها و يكدّ ويحرص على الانتساب في جميع الأموال، ليبلغ به الغنى واذا استغنى عن العمل، باع أداته بثمن بخس

واستراح من الكدّ والتّعب. يانفس: فتلطّفي في اتّخاذ الأداة المحمودة فاذا وجدتها فاحسني سياستها بالعدل، واستأنفي الاكتساب والاقتناء، فاذا نلت الغنى وكثر مالك فبيعي أداتك بأوكس ثمن، وفوزي بما كسبت وانصرفي من محلّ الاكتساب.

الفصل الثّالث عشر:

يانفس: ينبغي أن تعلمي وتتحققي: انّ حدّ اللّذة هو مايملّ ومتى طلبت النّفس وهي في عالم الطّبيعة لذّة، فقد همت الى غير موجود وطلبت ماليس بممكن والدّليل البيّن على هذا انّ جميع ماتشافهه النّفس في هذه الدّنيا مملول والمملول لاينبغي أن يسمّى لذّة، اذ كان حدّ اللّذة مالايملّ. أو ماتنظري يانفس الى أهل هذه الدّنيا كيف يحثّون في طلب اللّذات و يتوهّمون انّها موجودة في الدّنيا، وهي ليست بموجودة.

فتبيّن انّ النّاس يطلبون في الدّنيا ماليس فيها. يانفس: تأمّلي هوس النّاس، كيف ترد الى معاني الدّنيا كلّها، فتشافهها مشافهة ذائق مختبر ثمّ تصدّ عنها صدود مال منضجر، وليس أحد يوجد في هذه الدّنيا راضياً بمنزلته فيها. مالأعنها ضجراً منها. يانفس: كيف توجد في الدّنيا لذّة! وكلّ رتبة تعفّ النّفس عليها في الدّنيا تحتاج الى الصّبر، والصّبر مرّ المذاق، وكلّ شيء حلو اذا خالطته المرارة فهو مرّ، ومتى نفرت النّفس من الصّبر والتأبّد به ثمّ ذهبت صوب المرض لها، حصلت على التّوهان تذوق هذا وتتركه، وتواصل هذا ثمّ تقطعه، ترغب في هذا ثمّ ترفضه، وهذا معنى قبيح وفعل خسيس وخلق دنيء، ومتى تأيّدت النّفس بالصّبر على أيّ رتبة كانت من رتب الدّنيا، فقد اقتربت لها مرارة الصّبر، فقد حصل من هذا الشّرح انّه امّا أن يكون الإنسان يأتها ذراقاً، فيحصل على رتبة الخساسة والدناءة، وامّا أن يكون برتبة صالحة من رتب الدّنيا مع الصّبر عليها، فيحصل على مقاساة المرارة مدّة مقامه في عالم الطّبيعة، ولأكل المرارة مع اكتساب الشّرف والعزّ صرف الحلاوة، مع اكتساب الخساسة والدّناءة.

يانفس: انّ غرض الحقّ وشفاء العقل، أن تكون الأشياء على ترتيبها الطّبيعي ثابتة، فاذا كانت كذلك، فما أحسنها وأكملها وأعدلها، وذلك كالصّانع الّذي ينبغي أن يكون هو الّذي يستعمل الأداة لاالأداة تكون مستعملة له كالفارس الّذي ينبغي أن يكون هو الّذي يدبّر الفرس ويجرّبه و يروضه، لاأن تكون الفرس تدبّر الفارس. وكالسّلطان الّذي من الواجب أن يكون هو المدبّر للرّعيّة والسّائس لها، لاأن تكون الرّعيّة تدبّره وتسوسه، فاذا جرت هذه الأشياء على كيانها الطّبيعي، ظهر الحقّ والعدل الحسنان الجميلان، واذا انعكست بالضّدّ، ظهر الشرّ والجور القبيحان.

يانفس: إن كان الجسد بالنَّفس يحيى وبها يبصر و يسمع و يشمّ و يذوق ويمسّ، فقد وجب ضرورة الإقرار بأنَّ الجسد آلة النَّفس، ومن القبيح أن تكون الآلة مدبرة الصَّانع وتستعمله وتستفيد منه، فانَّ الصَّانع المدبّر الجاهل اذا اتّخذ الآلة اشتغل بترتيبها وترذيفها وترفيها عن استعمالها، والإكتساب بها، ويحصل على عبارته لها «فحينئذ» ينقلب الحقّ باطلاً، و يصير العدل جوراً، والحسن الجميل قبيحاً، كما يصير الحيّ العاقل البصير السّميع الشَّريف عبد الميّت الأعمى والأبكم الجاهل الخسيس.

يانفس: انَّ السيّئات متى خلت، لايخلق المخلوق البتّة، وإنَّما هي محنة يمتحن بها النَّاس، فاذا امتحن بها العاقل الرَّشيد، تبين من نفسه الضّعيف عن القيام بتدبيرها، فخضع وذلَّ ورغب الى سايس الكلّ، الفائض بالخير كلّه على الطَّالبين اليه، فاكتسب نفسه باضافتها الى الخير خيراً فيهتدي الى حسن السّيرة، فتكون هذه النَّفس نشرت من ينبوع الخير والعدل، ثمَّ يفيض بمافيها على من يشمله سياستها، فبذلك يكون ظهور العدل والخير والسّعادة للسَّائس والمسوس.

فأمَّا الجاهل فانَّه اذا امتحن بالسّياسة سرّه ذلك وأبهجه، ورأى أن تفوقه وطبعه ماتقوم بها و باضعافها، «فحينئذ» يتهاون تدبيرها و ينصرف بجميع قوته الى التّلذّذ والتّنعّم المثمرين،الجهل والعمى والزَّلل والخطأ، فتكون تلك النَّفس تشرب من ينبوع الشرّوالجور، ثمَّ يفيض لها من يحبب سياستها، فيكون بذلك ظهورالجور والشرّ وهلك السّائس والمسوس.

يانفس: اذا دخلت عالم الأحلام، فينبغي أن تتمثّلي انَّ النَّائم الحالم فيه: إنَّما هو نائم نام نوماً ثانياً وحالم حلماً ثانياً، فاذا استيقظ، فإنَّما هو نائم انتبه من نومه العرضي ورجع الى نومه الطَّبيعي، كرجل أبيض اللّون بالطَّبع، فعرض له الخجل فاحمرَّ لونه، ثمَّ رجع الى لونه الطَّبيعي بسرعة، فالإنسان في الدّنيا نائم بالعرض، ثمَّ يعرض له النَّوم بالعرض غير الثَّابت فكأنَّه انَّما اكتسى نوماً على نوم، فإذا انتبه فانَّما انتبه من نوم الى نوم.

يانفس: تيقّني قولي هذا واعلمي انَّك إنَّما أنت في الدّنيا راقدة، وانَّ جميع ماأنت مشاهدة له فيها، إنَّما هو أحلام، كما انَّه يعرض لك النّوم، الّذي هو بالعرض، السَّريع الزَّوال، فتنامي وتحلمي، واذا زال ذلك العرض، انسلخت من جميع الأشياء، التّي كنت مشاهدة لها، انسلاخاً كليّاً، ورجعت الى مشاهدة الأشياء الطَّبيعيّة، الّتي هي بالعرض الثَّابت، الّتي أنت بها أشدّ تحقّقاً منك بتلك الأشياء الّتي هي بالعرض، السَّريع الزَّوال. و«كذلك» اذا استيقظت من نومك الطَّبيعي، الّذي هو الدّنيا ورجعت الى اليقظة الحقيقيّة، الّتي هي عالم العقل، فانَّك إنَّما ترجعين الى معان وأشياء أنت بها أشدّ تحقّقاً منك، بما كنت مشاهدة له في رقدتك في عالم الطَّبيعة، فكما

انّه يانفس: أحلام الدّنيا ليست بحقّ بالاضافة الى أسباب الدّنيا، «فكذلك» أسباب الدّنيا ليست بشيء حقّ بالاضافة الى عالم العقل، الّذي هو الحقّ والمحلّ الحقّ.

يانفس: تأمّلي هذا المعنى، فامّا أن تضحكي منه تعجّباً أو تعبري منه تخوّفاً، ان طائرين ربطا معاً في رباط واحد ثمّ خليا، لقدعظم عذابهما و بعدت الرّاحة عنهما، وانّ فرحة كلّ واحد منهما وراحته انفصاله عن الآخر، فاذا كانا طائرين، هما من نوع واحد وشكل واحد، ارتبطا فاعقبتهما المرابطة على تشاكلهما أنواع العذاب، فكيف اذا ارتبطت أشياء مختلفة في الشّكل: كحمل ربط مع ذئب أو ثور ربط مع أسد، أو حيّ ربط مع ميّت.

يانفس: هل يكون أشقى من حيّ، الحيّ المرابط لميّت؟ أو هل يكون أشقى من عالم ربط مع جاهل؟ يانفس: فاذا كانت راحة الحيّ أن ينحلّ من مرابطة الميّت، وراحة العالم أن ينحلّ من مرابطة الجاهل، فان كنت يانفس: تقرّين بحقيقة هذه المعاني، فقد تجلّت الغشاوة عن بصرك والأخلاق المخرجة لك من الظّلم الى الأنوار.

يانفس: تأمّلي جوهرك واعتبريه واعلمي: انّ جوهر النّفس جوهر عالي الشّرف، لمناسبتها جميع العوالم وحلولها بكلّ محلّ. وانّها تنسب في بعض الأحايين[1] الى عالم الطّبيعة، فتكون انسانيّة مشاهدة للمحسوسات مشافهة للمآكل والمشارب وجميع معاني الطّبيعة. وتارة تنسب الى عالمها الأخصّ بها، فتكون نفساً، حيّة، حاسة، محسّة، مستعملة، محرّكة، مبهجة ذات استبحاث وتأمّل واختبار وارادة.

فهذه المعاني هي معاني النّفس، وهي الحياة المنبثة في جميع ماحتوى عليه ملكوت النفس. وتارة تنسب الى عالم العقل فتكون منتزعة الصّور من الهيولي، مدركة للبسائط الأول، مميّزة متصوّرة، عاقلة لجميع المعاني الفاردة البسيطة. وتارة تنسب الى العالم الإلٰهي، فتكون نهمة للخير والجود، آمرة بهما خلوة من الجور والشر، ناهية عنهما،حكيمة الأفعال، متقنة، ومن أوضح الدّلائل على أنّ النّفس تناسب العلة الأولى، ماهو موجود في خلقها: من انّها تسمو الى الاحاطة بجميع الأشياء، الّتي يحتوي عليها الملكوت الأعظم، لن تلق مستقرّة، راضية، تامّة الرّضى، دون أن تبلغ العالم العلوي العقلي بجميع مافيه، «فحينئذ» تلفى النّفس غير طالبة شيئاً، تارة مستقرّة تامة الرّضا، ومن استعمل الاستقراء في ذاته، توجّهت له حقيقة ذلك.

يانفس: هل يكون أشقى منك وأعظم منك حسرة؟ وقدأصبحت في محلة الأعاجم وحيدة

١. الأحايين: جمع حين. الوقت عموماً والمدّة «المنجد»

فريدة، فتبثي[١] لهم الشّكوى بلفظك، فلايفهمون، و يبثّون إليك من لفظهم، فلا تفهميه، ومتى قارن الشّيء خلافه، فهو مجهود مرهوق، مشتغل عن ذاته بذات غيره. يانفس: ماأعظم حسراتك أن تنطقي فلاتجدي سابقاً، وتبثّي الشّكوى، فلاتجدي راحماً، فليت شعري ثمَّ ليت شعري، ماعند من أصبح غريباً عن وطنه، نائياً عن معدنه، بعيداً عن أصله ونبعته، قدأوقعه هواه وشارف على استشمار زلله وخطأه، محمولاً على مركب الغرور والسّهو، مقروناً بمذلّة اللّذة واللّهو، ساهياً في طلبه، موقوفاً على عطيّته، فليعلم الرّاكب على لُجّة البحر في المراكب المزخرفة عند تحلّلها، انّه إنّما صاحب من خذله واستسلم الى من خدعه وغرّه. فيالها من حسرة! ماأعظمها بمغرور خبيث، خائن وقرين خاذل.

يانفس: انّه من غرس طيّباً أكل طيّباً، ومن غرس خبيثاً، أكل خبيثاً، وانّ ثمرة العمل الصّالح كأصلها. وثمرة العمل الرّديء كأصلها، وقليل من العلم مع العمل به أنفع من كثرة العلم مع قلّة العمل به. والله وليّ التّوفيق ومنه هداية الطّريق.

اللّهمَّ يامالك السّرائر و يامرشد البصائر و يامن دلّت عليه الضّمائر إن كان جائزاً في حكمتك أن ترشد وتصلح شأننا، وأن تحسن الإختيار لنا، وأن تحيي بذكرنا مارثّ[٢] من ذكر آبائنا ودرس من أحوالهم، وأن تجعل سعينا في هذه الحياة الفانية لنا، لاعلينا فافعل بنا ذلك ولاتجعل ماأفنينا من العمر في طلب معرفتك باطلاً.

اللّهمَّ ارحم نفسنا المتعلّقة بحبلك وأحسن عونها على المخلص إليك. والحمدلله أوّلاً وآخراً.

ايقاظ ١

يجب على العلماء بعدما اتّعظوا بمواعظ الله وتخلّقوا بأخلاق الله، الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والدّليل على وجوبهما: الآيات والأخبار، امّا الآيات قال الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: «ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف

١. فتبثي: بَثَّ، بثّاً و بثّث الخبر: أذاعه ونشره «المنجد».
٢. الرثّ: الشيء البالي وقد رثّ الحبل وغيره يرث رثاثة.

وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»[١]. وقال أيضاً: «كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[٢]. وانّه «تعالى» ذمّ قوماً من بني اسرائيل، وأوعدهم أشدّ العذاب بتركهم الأمرين ولعنهم بلسان نبيّهم حيث قال في سوره المائدة: «لعن الّذين كفرُوا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»[٣]. وغير ذلك من الآيات.

وأمّا الأخبار فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لايزال النّاس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البرّ فاذا لم يفعلوا ذلك نزعت عنهم البركات وسلّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السّماء»[٤]. وعن أمير المؤمنين عليه السّلام: «من ترك انكار المنكر بقلبه و يده ولسانه، فهو ميّت بين الأحياء»[٥]. وخطب عليه السّلام: «فحمد الله وأثنى عليه وقال: امّا بعد، فانّه إنّما هلك من كان قبلكم، حيث ماعملوا من المعاصي ولم ينهاهم الرّبانيّون والأحبار عن ذلك، وانّهم لمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربّانيّون والأحبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر. واعلموا: انّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً»[٦].

«انّ الأمر ينزل من السّماء الى الأرض كقطرات المطر الى كلّ نفس بما قُسِمَ لها من زيادة أونقصان، فان رأى أحدكم لأخيه غفيرة[٧] في أهل أومال أونَفْسٍ فلا تكوننّ له فتنه، فانّ المرء المسلم مالم يغش دناءة تظهر فَيَخْشعُ لها إذا ذكرت، و يغرى بها لئام النّاس كان كالفالج الياسر[٨] الّذي ينتظر أوّل

١. سورة آل عمران/١٠٤.
٢. سورة آل عمران/١١٠.
٣. سورة المائدة/٧٩.
٤. وسائل الشيعة: ج١١ ص٣٩٨.
٥. وسائل الشيعة: ج١١ ص٤٠٤.
٦. فروع الكافي: ج٥ ص٥٧ طبعة دار الكتب الاسلامية.
٧. غفيرة: زيادة وكثرة، كقولهم جمّ غفير.
٨. الفالج: الظافر الغالب في قماره، فلج يفلُجُ كنصر ينصر ومنه المثل: «من يأت الحكم وحده يفلج».
الياسر: الذي يلعب بقداح الميسر أي المقامر وفي الكلام تقديم وتأخير ونسقه كالياسر الفالج كقوله تعالى: «وغرابيب سود» كما في غريب كلامه عليه السلام/٨؛ كالياسر الفالج ينتظر أول فوزة من قداحه.

فوزة من قداحه[١]، توجب له المغنم و يرفع بها عنه المغرم و«كذلك» المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله تعالى إحدى الحسنيين: امّا داعي الله عزّوجلّ فماعند الله خير له، وامّا رزق الله فاذا هوذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه وانّ المال والبنين حرث الدّنيا، والعمل الصّالح حرث الآخرة وقديجمعهما الله تعالى لأقوام، فاحذروا من الله «تعالى» ماحذّركم من نفسه واخشوه خشية، ليست بتعذير، واعملوا في غير رياء ولاسمعة، فانّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له»[٢].

وقال الصّادق «ع»: «ويل لقوم لايدينون لله بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»[٣]؛ وأيضاً قال عليه السّلام: «أوحى الله تعالى الى شعيب النّبيّ انّي معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم، وستّين ألفاً من أخيارهم، فقال: ياربّ هؤلاء الأشرار! فمابال الأخيار؟ فأوحى الله عزّوجلّ اليه: انّهم داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[٤].

وقال الكاظم عليه السّلام: «لتأمرونّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلايستجاب لهم»[٥]؛ وقال أبوجعفر عليه السّلام: «ماقدّست أمّة لم تأخذ لضعيفها من قويّها بحقّه غيرمتتعتع»[٦]؛ وقال «ع»: «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما أعزّه الله ومن خذلهما خذله الله»[٧].

والحاصل: انّ الأخبار في الباب كثيرة متواترة، فمن أرادها فليطلب من مواردها.

وامّا موضوعها: فالمعروف هو كلّ فعل حسن اختصّ بوصف زائد على حسنه؛ والمنكر كلّ وصف قبيح شرعاً. والأمر هو الحمل على فعل الطّاعات. والنّهي هو الحمل على ترك المنهيّات، وقدأجمع العلماء، الضرورة على وجوبهما، بل انّهما صارا من فروع الأحكام، كما هو المدوّن في كتب الفقه وعدّهما الفقهاء من فروع الدّين، والعقل أيضاً يحكم بوجوبهما من جهة كونهما لطفاً، وانّ كلّ لطف واجب وان كان

١. قداحه: السهم قبل أن يرش. المغنم: النفع؛المغرم: الضرّ.
٢. نهج البلاغة، خطبة: ٦٤/٢٣ صبحي صالح.
٣. فروع الكافي: ج٥ ص٥٧ طبعة دار الكتب الاسلامية.
٤. وسائل الشيعة ٤١٦/١١ نقلاً عن فروع الكافي: ج٥ ص٥٦.
٥. وسائل الشيعة ٣٩٤/١١ نقلاً عن فروع الكافي: ج٥ ص٥٦.
٦. وسائل الشيعة ٣٩٥/١١ نقلاً عن فروع الكافي: ج٥ ص٥٦.
٧. نفس المصدر ٣٩٨/١١ نقلاً عن فروع الكافي ٥٩/٥.

قد أوردوا عليه: بأنّه لو كان واجباً بالعقل لم يرتفع معروف ولم يقع منكر؛ بل يلزم أن يكون الله تبارك و«تعالى»، مخلاً بالواجب. وذكروا في بيان الملازمة: انّ الأمر بالمعروف اذا كان هو الحمل عليه وحقيقة النّهي عن المنكر، هو المنع منه، فانّه يجب على كلّ من حصل وجه الوجوب في حقّه، فكان يجب على الله تعالى، الحمل على المعروف والمنع عن المنكر، فامّا أن يفعلهما فلايرتفع معروف ولايقع منكر، و يلزم إلجاءاً ولايفعلهما، فيكون مخلاً بالواجب واللاّزم بقسميه باطل، فالملزوم مثله.

ولكن أجابوا عنه: بأنّ الواجب علينا في الأمر والنّهي غير الواجب عليه «تعالى»، فانّ الواجب يختلف باختلاف الامرين والنّاهين، فالقادر يجب عليه بالقلب واللّسان واليد، والعاجز بالقلب لاغير، واذا كان الواجب مختلفاً بالنّسبة الينا واليه تعالى. ويجب عليه من ذلك التّوعّد والإنذار بالمخالفة، كيلايبطل التّكليف.

وأيضاً اختلفوا في وجوبهما عيناً أو كفاية. و يدلّ على الأوّل عمومات القرآن وعلى الثّاني قوله «تعالى» «ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر»[1]؛ حيث لاعموم فيه وانّ المطلوب في نظر الشّارع تحصيل المعروف وارتفاع المنكر، ولم يتعلّق غرضه بايقاعه من مباشر معيّن، فيكون كفائيّاً. وأيضاً روي عن الرّضا عليه السّلام: «انّه سئل عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أواجب هو على الأمّة جميعاً فقال: لا، وقيل له: ولِمَ، قال: إنّما هو على القويّ المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لاعلى الضّعفة الّذين لايهتدون سبيلاً»[2]، الى آخر الحديث.

وامّا كيفيّته ومقداره ومراتبه؛ فأقلّها هو الّذي يظهر من بعض الأخبار: أن يأمر النّاس بما يأمر به نفسه، و ينهاهم بماينهى عن نفسه، كما روي عن أبي عبدالله «ع» قال: «لمّانزلت هذه الآية: «ياأيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً»، جلس رجل من المسلمين يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي، كلفت أهلي. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عمّا تنهى عنه نفسك، وأقلّه أن يقول: ثلاث مرّات اتّق

١. سورة آل عمران/١٠٤.
٢. فروع الكافي: ج٥ ص٥٩.

الله»[١]؛ كما في رواية غياث بن ابراهيم «كان أبو عبدالله عليه السّلام، اذا مرَّ بجماعة يختصمون لايعزهم حتّى يقول: ثلاثاً اتّق الله و يرفع بها صوته»[٢].

وامّا النّهي عن المنكر، فقال أمير المؤمنين «ع»: «أدنى الإنكار أن يلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة»؛ وقال الصّادق «ع»: «حسب المؤمن عذراً[٣] إذا رأى منكراً أن يعلم الله من نيّته انّه له كاره»[٤].

وامّا على مراتبه فهو متدرّج الى أن يقبل القابل من الأمتثال في الفعل والتّرك، ولو بالضّرب والتّأديب. ولمّا كان ماروي عن أمير المؤمنين عليه السّلام حاو ياً مانحن بصدده فالأنسب في المقام ذكره وهو ماورواه الحسن بن عليّ بن شعبة في كتابه، المسمّى بتحف العقول عن الإمام التّقيّ السّبط الشّهيد أبي عبدالله الحسين بن عليّ عليهما السّلام في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قال «ع»: ويروى عن أمير المؤمنين: «اعتبروا أيّها النّاس بماوعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار، إذ يقول: «لولاينهاهم الرّبّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم»[٥]؛ وقال: «لعن الّذين كفروا من بني اسرائيل ـ الى قوله ـ لبئس ماكانوا يفعلون»[٦].

وإنّما عاب الله ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظّلمة الّذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلاينهونهم عن ذلك، رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة ممّا يحذرون، والله يقول: «فلاتخشوا النّاس واخشوني»[٧]؛ وقال «تعالى شأنه»: «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[٨]؛ فبدء الله بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فريضة منه، لعلمه بانّها اذا أدّيت وأُقيمت، استقامت الفرائض كلّها هيّنها وصعبها.

١. فروع الكافي: ج٥ ص٥٩.
٢. فروع الكافي: ج٥ ص٦١.
٣. وفي بعض النسخ «عذراً» يكون: [عزاً].
٤. فروع الكافي: ج٥ ص٦٠ وفي بعض النسخ «من نيّته انّه له كاره» تكون: [من قلبه انكاره].
٥. سورة المائدة/٦٦.
٦. سورة المائدة/٨١.
٧. سورة المائدة/٤٧.
٨. سورة التوبة/٧٢.

وذلك: انَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر دعاء الى الاسلام، مع ردّ المظالم ومخالفة الظّالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصَّدقات من مواضعها ووضعها في حقّها.

ثمَّ أنتم أيّتها العصابة: عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنَّصيحة معروفة، وبالله في أنفس النَّاس مهابة. يهابكم الشَّريف ويكرمكم الضّعيف، ويؤثركم من لافضل لكم عليه، ولايد لكم عنده، تشفعون في الحوائج اذا امتنعت من طلاّبها وتمشون في الطَّريق بهيئة الملوك وكرامة الأكابر، أليس كلّ ذلك إنَّما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحقّ الله؟ وإن كنتم عن أكثر حقّه تقصّرون، فاستخففتم بحقّ الأئمَّة، فأمَّا حقّ الضّعفاء فضيّعتم. وامَّا حقّكم بزعمكم فطلبتم. فلامالاً بذلتموه ولانفساً خاطرتم بها للّذي خلقها، ولاعشيرة عاديتموها في ذات الله، أنتم تتمنّون على الله جنّته ومجاورة رسله وأمانه من عذابه.

لقد خشيت عليكم أيّها المتمنّون على الله أن تحلّ بكم نقمة من نقماته، لأنَّكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضّلتم بها، ومن يعرف بالله لا تكرمون، وأنتم بالله في عباده تكرمون، وقدترون عهود الله منقوضة، فلا تفزعون وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمّة رسول الله محقورة والعمى والبكم والزّمن في المدائن مهملة لا ترحمون، ولافي منزلتكم تعملون، ولافي عمل منها تعنون وبالأدهان والمصانعة عند الظّلمة تأمنون، وكلّ ذلك ممَّا أمركم الله به من النَّهي والتّناهي وأنتم عنه غافلون وأنتم أعظم النَّاس مصيبة لماغلبتم عليه من منازل العلماء، لوكنتم تسعون ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وماسلبتم ذلك إلاَّ بتفرّقكم عن الحقّ واختلافكم في السنّة بعد البيّنة الواضحة. ولوصبرتم على الأذى وتحمّلتم المؤونة في ذات الله، كانت أمورالله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنَّكم مكنتم الظّلمة من منزلتكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشّبهات ويسيرون بالشَّهوات، سلّطهم على ذلك فراركم من الموت واعجابكم بالحياة الّتي هي مفارقتكم، فاسلمتم الضّعفاء في أيديهم، فمن بين مستعبد مقهور وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم، اقتداء بالأشرار وجرأة على الجبّار، في كلّ بلد منهم على

منبره خطيب مصقع، فالأرض لهم شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة، والنّاس لهم خول لايدفعون يدلامس، فمن بين جبّار عنيد وذي سطوة على الضّعفة شديد، مطاع لايعرف المبدىء المعيد. فياعجباً ومالي لاأعجب من غاشّ غشوم، ومتصدّق ظلوم وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فالله الحاكم فيمافيه تنازعناوالقاضي بحكمه فيما شجر بيننا.

اللهمَّ انَّك تعلم انَّه لم يكن ماكان منَّا تنافساً في سلطان، ولاإلتماساً من فضول الحطام، ولكن لنرى المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك و يأمن المظلومون من عبادك و يعمل بفرائضك وسننك وأحكامك؛ فانّكم الاّتنصرونا[1] وتنصفونا قوي الظّلمة عليكم، وعملوا في اطفاء نور نبيّكم وحسبنا الله وعليه توكّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير[2].

ايقاظ ١

يجب على العالم الإجتناب عن الوسواس في جميع أفعاله وأقواله. نعم مراتب الإحتياط فيها أولى وأنسب، ولكن لابدَّ أوّلاً من تشخيص موضوع الوسواس عن غيره، حتّى لايشتبه الحال عليه، ولابدَّ «حينئذ» من تمهيد مقدّمة تنفع في المقام، وهي على ماذكره بعض الحكماء من المتألّهين انَّ اللّطيفة الإنسانية المسمّاة بلسان الشّرع بالقلب وعند طائفة بالنّفس النّاطقة جوهر روحاني متوسّط في أوائل النّشأة بين العالمين، الملك والملكوت كأنّها نهاية هذا و بداية ذلك ينفعل عمّافوقه، فالقلب بمثابة أرض تتكوّن فيها أنواع المخلوقات على صورها المثالية. أو مثل مرآة منصوبة تجتازمن أمامها أصناف الصّور المختلفة، فيتراىٰ فيها صورة بعد صورة ولاتخلو دائماً عنها، ومداخل هذه الآثار المتجدّدة في القلب امّا من الظّواهر كالحواس الخمس، وامّا من البواطن

١. وفي تحف العقول [فانكم تنصرونا].
٢. تحف العقول: ص ١٧٢ طبعة مؤسسة الأعلمي في بيروت.

كالخيال والفكر والأخلاق النّفسانيّة كالشّهوة والغضب وغيرهما، فاذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب و«كذلك» اذا هاجت الشّهوة بسبب كثرة الأكل أو لقوّة في المزاج، حصل منها أثر فيه وإن كفّ عن الإحساس، فالخيالات الحاصلة في النّفس لا تنقطع و ينتقل الخيال من شيء الى شيء، وبحسبه ينتقل القلب من حال الى حال، فثبت انّ القلب الإنساني، محلّ الحوادث الإدراكيّة وموضوع الأحوال النّفسانيّة، وهذه الأحوال هي الدّواعي والإرادة الّتي هي بواعث للأفعال المقدورة، القادرة بالقدرة، والقلب في التّغير والتّأثير دائماً من آثار تلك الأسباب، الخارجة والدّاخلة وأحضر الآثار الحاصلة فيه هي المسمّاة بالخواطر، وإنّما هي ادراكات وعلوم، امّا على سبيل التّجدد، أوعلى سبيل التّذكّر و يسمّى بالخاطر، لأنّها تخطر بالبال بعد أن كان القلب غافلاً عنها.

فالخواطر محركات للإرادات والأشواق وهي باعثات ودواعي للقوى والقدر، وهي فاعلات أي محرّكات للأعضاء والجوارح، وبها تظهر الأفاعيل في الخارج، فمبدء الفعل البشريّ هو الخاطر والخاطر يحرّك الرّغبة وهي تحرّك العزم والنيّة وهي تبعث القدرة، والقدرة تحرّك العضو، فيصدر الفعل من هذه المبادىء المترتّبة كلّ ذلك بإذن الله ومشيئته وقدرته، هكذا جرت مشيئة الله في أفعال عباده، ومن أنكر هذه الوسائط وعزل الأسباب عن فعلها فقدأساء الأدب مع الله مسبّب الأسباب، أراد رفع ماوضعه الله وعزل مانصبه. فاذا تمهّد ماذكرناه.

فنقول: انّ الخواطر المحركة للإرادة تنقسم الى قسمين: قسم يدعو الى الشر أعني مايضر في العاقبة. وقسم يدعو الى الخير أعني ماينفع في الآخرة. فهما خاطران مختلفان، فافتقر الى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمّى إلهاماً، والخاطر المذموم يسمّى وسواساً. ثمّ انّك قدعلمت: انّ هذه الخواطر حادثة، والحادث لابدّ له من سبب محدث، ومهما اختلفت الحوادث، دلّ على أنّ أسبابها القريبة مختلفة، سيّما الاختلاف بالذّات والنّوع.

هذا ماعرف أيضاً من مشيئة الله في ترتيب المسبّبات على الأسباب، فمهما إستنارت حيطان البيت بنور النّار وأظلم سقفه واسودّ بالدّخان، علمت انّ سبب

السّواد غير سبب الاستنارة. و«كذلك» أنوار القلب وظلماته سببان مختلفان، فسبب الخاطر الدّاعي الى الخير يسمّى ملكاً، وسبب الخاطر الدّاعي الى الشر يسمّى شيطاناً، واللّطف الّذي يتهيّأ به القلب لقبول إلهام الملك يسمّى توفيقاً، والّذي به يتهيّأ لقبول وسوسة الشّيطان يسمّى أغواء خذلاناً، فانّ المعاني المختلفة تفتقر في التّعبير عنها الى أسامي مختلفة، فالملك عبارة عن خلق خلقه الله شأنه افاضة الخير، وإلهام الحقّ وافادة العلم والوعد بالمعروف، وقد خلقه وسخّره لذلك.

والشّيطان عبارة عن خلق شأنه ضدّ ذلك وهو الإغواء والإلجاء بالغرور والوعد بالشرّ والأمر بالمنكر والتخويف والإيعاد بالفقر عند الهمّ في الخير، فالوسوسة في مقابلة الإلهاء، والشّيطان في مقابلة الملك، والتّوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الاشارة بقوله «تعالى»: «ومن كلّ شيء خلقنا زوجين»[1]؛ والله الواحد لامقابل له ولاضدّ ولاندّ والممكنات أمور متقابلات وهو الواحد الفرد، الخالق للأزواج والأضداد والأنداد. والقلب مادام كونه قلباً متجاذب بين الشّيطان والملك؛ وقدورد عن النّبيّ «ص»: «انّ في القلب لمّتان لمّة من الملك، وعد بالخير وتصديق بالحقّ، ولمّة من الشّيطان ايعاد بالشرّ وتكذيب بالحقّ ونهي عن الخير- الى أن قال- والقلب بأصل الفطرة، صالح لقبول آثار الملائكة»[2].

ولقبول آثار الشّيطان قبولاً متساوياً؛ وإنّما يترجّح أحد الجانبين على الآخر، امّا باتباع الهوى والإكباب على الشّهوات، أو بالإعراض عنها ومخالفتها، ولكلّ من الملائكة والشّياطين جنود، فان اتّبع الإنسان مقتضى الشّهوة والغضب والهوى والدّواعي الذّميمة والأخلاق السّيّئة، ظهر تسلّط العدوّ بواسطة الهوى والجهل، وصار القلب عشّ الشّيطان وملكه، وإن جاهد الهوى والشّهوات أو سلك سبيل الله وتشبّه بأخلاق الملائكة بالعلم والطّهارة والتّقوى، وذكر الحقّ وآياته واشتاق الى الآخرة وزهد في الدّنيا، صار قلبه كالسّماء، مستقرّ الملائكة الكرام، ومهبط الإلهامات، ومعدن المعارف الإلٰهيّة والاشراقات العقليّة. فقدظهر لك معنى الوسوسة وقابلها

١. سورة الذاريات/٤٩.
٢. الدرّ المنثور، ج١/٣٤٨

ومبدئها الفاعلي، الّذي هوالشّيطان، ومعنى الإلهـام الّذي يقابلها، وقابله ومبدئها الفاعلي هو الملك، وعلمت أسباب كلّ من الطّرفين ومبادئه وغاياته وحفظ القلب من الوسواس سبب لدخول الجنّة، كما ورد في الخطابات الّتي خاطب الله رسوله المكرّم ليلة المعراج، على ماذكره الشّيخ الإمام أبوعمروغلمان محمّد البلخي، حيث قال الله «تعالى»: «ياأحمد وعزّتي وجلالي: مامن عبد ضمن لي بأربع خصال إلاّ أدخلته الجنّة، يطوي لسانه ولايفتحه إلاّ بمايعينه، ويحفظ قلبه من الوسواس، ويحفظ علمي ونظري اليه، ويكون قرّة عينه الجوع»[1].

والظّاهر انّ المراد بالوسواس في الأخبار هو الّذي يقع للانسان في الأعمال والطّاعات وهو المعبّر عنه باطاعة الشّيطان وعدم العقل، كما روي في الكافي عن محمدبن يحيى عن أحمدبن محمّد عن ابن محبوب عن عبدالله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السّلام، رجلاً مبتلى بالوضوء والصّلوٰة وقلت: هو رجل عاقل فقال أبو عبدالله «ع»: «وأيّ عقل له وهويطيع الشّيطان. فقلت له: وكيف يطيع الشّيطان؟ فقال: سله هذا الّذي يأتيه من أيّ شيء هوفيقول لك: من عمل الشّيطان»[2].

أقول: ابتلاؤه امّا من جهة نيّة الوضوء والصّلوٰة، وامّا من جهة اسباغ أعضاء الوضوء، وفي الصّلوٰة من وقوع الشّك في أداء الحروف عن مخارجها، أو في عدد الرّكعات، أو السّهو في كلّ واحد من الأقوال والأفعال. وهذا كلّه امّا من خيل الشّيطان وخيل العقل أو الجهل بأحكام الشّرع، فان كان الوسواس في النّيّة فدفعه من أسهل الأمر، لأنّ الاخطار بالبال مرّة أخرى ليس بأمر مشكل أوّلاً، وثانياً بناء العلماء في عصرنا هذا ومن تقدّم عليهم الى زمان الأردبيلي «ره» على كفاية الدّاعي؛ بل قيل: انّ الفعل لاينفك عن النّيّة، بل اتيان العمل بلاقصد من جملة المحالات، إلاّ أن يكون العاقل مجنوناً أو عابثاً أو نائماً أو مغمى عليه؛ بل العابث والمجنون أيضاً قاصدان الفعل، كما لايخفى، بل القصد في كلّ عمل ملازم له.

١. ارشاد القلوب /٢٠٠ط مؤسسة الأعلمي.
٢. أصول الكافي: ج١ ص١٢.

وامّا إن كان الوسواس في أعمال الوضوء والصّلٰوة، فهو أشنع وأقبح لقوله «ع»: «إن سألت عنه فأجابك انّه من عمل الشّيطان»، فهذا محض صورة لم يؤمن به قلبه، ولوعرف على وجه البصيرة انّه من الشّيطان لابدّ له من تركه وإلاّ يكون جاهلاً لاعاقلاً، كما قاله عليه السّلام: وكيف يستأنس العاقل مع الشّيطان، الّذي يجري مجرى الدّم في الإنسان، فلولا الحفظ منه «تعالى» لاختطفته الشّياطين في كلّ آن، فانّ للإنسان أعداء من الشّياطين وكلّ واحد منهم مستعدّ في أمر الإنسان الى شيء من الغواية والضّلالة، ولكنّ الله تبارك و«تعالى»: جعل قبال كلّ واحد من الشّياطين طائفة من الملائكة لحفظ عباده العجزة، وتلك حكمة بالغة لايسأل عنها، وولادة الشّياطين بعضهم من بعض، كتكوّن شرر نار كثيرة الدّخان من نار أخرى مثلها؛ وهكذا تولّد ملك من ملك كحصول نور من نور، على ماذكره بعض الحكماء.

وروي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «وكلّ بالمؤمن مائة وستّون ملكاً يذبّون عنه مالم يقدر عليه من ذلك البصر سبعة أملاك يذبّون عنه، كما يذبّ عن قصعة العسل الذّباب في اليوم الصّائف، ومالوبدلكم لرأيتموهم على كلّ سهل وجبل كلّهم باسط يده فاغر فاه. ومالووكّل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشّياطين»؛ وقال: قال جابربن عبدالله: «انّ آدم «ع» لمّا هبط قال: ياربّ هذا العبد الّذي جعلت بيني وبينه عداوة ألا تعينني عليه، لأقوى عليه، قال: لايولد لك ولد إلاّ وكّل به ملك. قال: ربّ زدني قال: أجزي بالسّيّئة سيّئة وبالحسنة عشراً الى ماأريد. قال: ربّ زدني: قال: باب التّوبة مفتوح مادام في الجسد روح. قال إبليس: هذا العبد الّذي كرّمته عليّ ألا تعينني عليه لأقوى عليه. قال: لايولد له ولد إلاّ ولد لك ولد قال: ربّ زدني قال: تجري منهم مجرى الدّم. قال: ربّ زدني قال: «اجلب عليهم بخيلك ورجلك ـ الى قوله «تعالى» غروراً»[1].

بل يظهر من كلمات بعضهم انّ الشّياطين أيضاً جنود مجنّدة كالملائكة، وان لكلّ نوع من المعاصي شيطاناً يخصه و يدعو لها، كما قال مجاهد: انّ لإبليس خمسة من الأولاد، قدجعل كلّ واحد منهم على شيء من أمره. وقال: أسماؤهم ثبور وأعور

١. سورة الاسراء /٦٤.

ومسوط وراسم وذلينور، فامّا ثبور فهو صاحب المصائب، الّذي يأمر بالثبور وشقّ الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهليّة، وامّا أعور فهو صاحب الرّياء يأمر به و يزيّنه، وامّا مسوط فهو صاحب الكذب، وامّا راسم فيدخل مع الرّجل الى أهله و يريه العيب فيهم و يغضبه عليهم، وامّا ذلينور فهو صاحب السّوق و بسببه لايزالون ملتطمين، وشيطان الصّلوٰة يسمّى خربا، وشيطان الوضوء الولهان. انتهى.

وامّا علاج الوسوسة، فقدعلّمه أميرالمؤمنين «ع» لكميل بن زياد في جملة وصاياه إيّاه، حيث قال عليه السّلام: «ياكميل اذا وسوس الشّيطان في صدرك فقل: أعوذ بالله القويّ من الشّيطان الغويّ، وأعوذ بمحمّد الرّضيّ من شرّماقدروقضى، وأعوذ بإله النّاس، من شرّالجنّة والنّاس أجمعين، تكفى مؤنة إبليس والشّياطين معه ولوانّهم كلّهم أبالسة مثله»؛

«يا كميل: انّ لهم خدعاً وشقاسق وزخارف ووساوس وخيلاء على كلّ أحد قدرمنزلته في الطّاعة والمعصية، فبحسب ذلك يستولون عليه بالغلبة»؛

«يا كميل: لاعدوّ أعدا منهم، ولاضارّ أضربّك منهم، أمنيتهم أن تكون معهم غداً اذا جثوا في العذاب، لايفترعنهم بشرره، ولايقصرعنهم خالدين فيها أبداً»؛

«يا كميل: سخط الله «تعالى» محيط من لم يحترزمنهم باسمه ونيّته وجميع عزائمه وعودوجلّ وعزّ صلّى الله على نبيّه وآله وسلّم»؛

«يا كميل: انّهم يخدعوك بأنفسهم، فاذا لم تجبهم مكروا بك و بنفسك تجيبهم شهواتك واعطائك أمانيك وارادتك و يستولون لك و ينسونك و ينهونك و يأمرونك ويحسنون ظنّك بالله عزّوجلّ حتّى ترجوه فتغتر بذلك وتعصيه وجزاء العاصي لظىٰ»؛

«يا كميل: احفظ قول الله عزّوجلّ: الشّيطان سوّل لهم وأملى لهم[1]، والمسوّل الشّيطان والمملي الله»؛

«يا كميل: اذكر قول الله «تعالى» لإبليس لعنه الله: واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشّيطان إلاّ غروراً»[2]؛

١. سورة محمد/٢٥.
٢. سورة الاسراء/٦٤.

«يا كميل: انَّ ابليس لايعد عن نفسه وإنَّما يعد عن ربّه ليحملهم على معصيته فيورّطهم»؛

«يا كميل: انَّه يأتي لك بلطف كيد فيأمرك بمالم يعلم انَّك قد ألفته من طاعة لا تدعها فتحسب انَّ ذلك ملك كريم وإنَّما هو شيطان رجيم، فاذا سكنت اليه واطمأننت حملك على العظائم المهلكة، الّتي لانجاة معها»؛

«يا كميل: انَّ له فخاخاً ينصبها، فاحذر أن يوقعك فيها»؛

«يا كميل: انَّ الأرض مملوّة من فخاخهم، فلن ينجو منها إلاّ من تشبّث بنا، وقد أعلمك الله انَّه لن ينجو منها إلاّ عباده، وعباده أولياؤنا؛ وهو يا كميل: قول الله عزَّ وجلَّ: «انَّ عبادي ليس لك عليهم سُلطان» [1]؛ وقوله عزَّ وجلَّ: «إنَّما سلطانه على الّذين يتولّونه والّذين هم به مشركون» [2]؛ »

«يا كميل: انج بولايتنا من أن يشركك من في مالك وولدك، كما أمر»؛

«يا كميل: لا تغتر بأقوام يصلّون فيطيلون و يصومون فيداومون و يتصدّقون، فيحسبون انَّهم موقفون»؛

«يا كميل: أقسم بالله وسمعت رسول الله صلَّى الله عليه وآله يقول: «انَّ الشَّيطان اذا حمل قوماً على الفواحش مثل الزِّنا وشرب الخمر والربا وماأشبه ذلك من الخناء والمآثم، حبّب إليهم العبادة الشَّديدة والخشوع والرّكوع والسّجود، ثمَّ حملهم على ولاية الّذين يدعون الى النار و يوم القيامة لاينصرون» [3]. انتهى.

فالعاقل لابدَّ أن يسدّ طريق الشَّياطين الى قلبه و يطردها عن سور باله وخياله بعدم سماع الوسوسة منه، بل الوسوسة بمعنى التحرّز، وعدم السّماع لازم للعلماء في اطاعة من يدور حولهم من شياطين وأباليس الدّنيا، الّذين هم في صورة الإنسان وسيرته ولباس البشر. ولعمري انَّهم أشدّ إغواء من الشَّياطين والأباليس، بل هم السَّبب والدّاعي الى سوق العلماء الى الرّئاسة المذمومة، وهم الّذين يخدع العلماء خفق نعالهم وقولهم: أنت آقائي وسيّدي ومولاى، فلولا المردة، ليس للرّئاسة اسم ولا رسم، فالعاقل كلّ العقل، هو الّذي لاينخدع بالمردة وكثرتها، بل يشتغل على ماهو

١. سورة الاسراء/٦٥.

٢. سورة النحل/١٠٠.

٣. نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ج٨/٢٢٣-٢١٩

مأمور به، من تحصيل العلم والبحث والتدريس وقضاء حوائج النّاس بعنوان الشّرع المبين.

فظهر انّ للعلماء الأخيار أن لاينخدعوا بتملّقات الجهّال؛ بل الواجب التحرّز عن ارادتهم، فانّ الإمام عليه الصّلوٰة والسّلام، ذكر من خصال الجهّال ثلاثة أمور متقاربة الوقوع:

أحدها: انّه ممّا يزعج قلوبها و يستخفّها الأطماع، وإن كانت فاسدة خالية عن سبب صحيح، فانّ الجاهل كثيراً ماينزعج من مكانه، بطمع فاسد لاأصل له ولاطائل تحته.

وثانيها: انّ قلوبهم مقيّدة، مرتهنة بالأماني الفارغة، والآمال الكاذبة، فكثيراً مايفرحون بها وتطمئنّ قلوبهم إليها.

وثالثها: انّهم ينخدعون سريعاً، فيستسخر قلوبهم خدائع الخادعين و يستعبدها مكر الماكرين، ولهذا يعدهم الشّيطان ويمنّيهم بالآمال والأماني الباطلة، و يغرّهم و يستفزهم و يستعبدهم بالخدائع، «ومايعدهم الشّيطان إلاّ غروراً»[1]؛ كما ورد في الخبر الصّحيح، كما رواه في الكافي عن عليّ بن محمّد عن سهل بن زياد عن النّوفلي عن السّكوني عن جعفر عن أبيه «ع» قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «انّ قلوب الجهّال تستفزها الأطماع و ترتهنها المنى و تستعلقها الخدائع»[2]. انتهى.

ومن المعلوم الواضح، انّ الجاهل مضاد العاقل ومن ليس له عقل، لا ثمرة فيه وفي ارادته أصلاً، بل هو لاينتفع من نفسه بشيء من الكمالات وكيف ينفع غيره، بل لا تنفعه عباداته واحساناته، كما في الكافي عن عليّ بن ابراهيم عن أبيه عن يحيى بن المبارك عن أبي عبدالله بن الجبلة عن اسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله «ع» قال: «قلت جعلت فداك انّ لي جاراً كثير الصّدقة، كثير الصّلوٰة، كثير الحجّ لابأس به. قال فقال: ياإسحاق كيف عقله قال قلت جعلت فداك ليس له عقل قال فقال «ع»: لايرتفع بذلك منه [وفي

١. سورة الاسراء/٦٤.
٢. أصول الكافي: ج١ ص٢٣.

بعض النّسخ] لاينتفع بذلك»[١].

فعلى الأوّل: الفاعل عمل ذلك الشّخص، وضمير منه راجع الى الشّخص؛ وعلى الثّاني: يكون الأمر بالعكس أي لاينتفع ذلك الشّخص من عمله بسبب عدم عقله؛ فالعقل له مدخليّة عظيمة في الإنتفاع من الطّاعات والصّدقات، ولذا صارت درجات العلماء، الّذين هم العقلاء، أعلا من درجات سائر النّاس، بعد الأنبياء والأولياء، ومن المشهور: المعروف بقدر المعرفة.

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله، لأبي الدّرداء: «ازدد عقلاً تزدد من ربّك قرباً»؛ وقال «ص» لأمير المؤمنين: «ياعلي اذا تقرّب النّاس الى خالقهم بأبواب البرّ فتقرّب أنت بعقلك». فظهر انّ العقل هو الّذي يوجب زيادة المثوبات أيضاً، فانّ مراتب الفضل في الأجر والجزاء على حسب درجات العقول في الشّرف والبهاء. اللهمّ اجعلنا من العقلاء؛ امّا موضوعاً وامّا حكماً، بمعنى الحشر في زمرتهم لامحالة بمحمّد وآله الطّاهرين الشّرفاء.

ايقاظ ١

يجب على العلماء الصّبر على البلايا والمحن، والصّبر على مشاق أيّام التّحصيل، و بعد الفراغ، الصّبر على ازدحام النّاس عليهم من جهة أخذ المسائل والفتاوى، ورفع احتياج المحتاجين وقضاء حوائج السّائلين، الّتي يقدر عليها و يكون من شأن العالم قضاؤها، مع ملاحظة حالته من عدم استلزامها هتك حرمته وتوهينه.

فاعلم أوّلاً: انّ الصّبر على قسمين على ماذكره العلماء:

أحدهما: بدني كتحمّل المشاق بالبدن والثّبات عليه، وهو امّا بالفعل كتعاطي الأفعال الشّاقة، أو بالإحتمال كالصّبر على الضّرب الشّديد والألم العظيم.

١. أصول الكافي: ج١ ص٢٤.

وثانيهما: هو الصَّبر النَّفساني وهو منع النَّفس من مقتضيات الشَّهوة ومشتهيات الطّبع، ثمَّ هذا الصّبر إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سمّي عفّته. وإن كان على احتمال مكروه، اختلفت أساميه عند النَّاس باختلاف المكروه، الّذي عليه الصَّبر، فإن كان في مصيبته اقتصر عليه باسم الصَّبر و يضادّه حالة تسمَّى الجزع والهلع، وهو اطلاق داع الهوى في رفع الصّوت وضرب الخدّ وشقّ الجيب وغيرها، وإن كان في حال الغنى يسمَّى ضبط النَّفس، و يضاده حالة تسمَّى البَطر. وإن كان في حرب ومقاتلة يسمَّى شجاعة، و يضادّه الجبن. وإن كان كظم الغيض والغضب يسمَّى حلماً، و يضادّه النزق. وإن كان في نائبة من نوائب الزَّمان مضجرة، سمّي سعة الصّدر، و يضادّه الضجر والندم وضيق الصّدر. وإن كان في اخفاء كلام يسمَّى كتمان السّرّ و يسمَّى صاحبه كتوماً [و يضادّه افشاء السّرّ.] وإن كان عن فضول العيش سمّي زهداً و يضاده الحرص. وإن كان على قدر يسير من المال سمّي بالقناعة و يضادّه الشّره؛ وقدجمع الله «تعالى» أقسام ذلك كلّه، وسمّى الكلّ الصَّبر، فقال: والصَّابرين في البأساء أي المصيبة، والضّرّاء أي الفقر، وحين البأس أي المحاربة، «أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتّقون»[1].

وقيل ليس الصَّبر أن لايجد الإنسان ألم المكروه ولاأن لايكره ذلك، لأن ذلك غير ممكن. إنَّما الصَّبر هو حمل النَّفس على ترك اظهار الجزع، فاذا كظم الحزن وكفّ النَّفس عن ابراز آثاره كان صاحبه صابراً؛ وإن ظهر دمع عين أو تغيّر لون. ولذا ورد: انَّ الصَّبر عند الصَّدمة الأولى و«كذلك»، لامن ظهر منه في الابتداء إلاَّ مايعدّ معه من الصَّابرين، ثمَّ صبر، فذلك يسمَّى سلواً، وهو ممَّا لابدَّ منه.

ولذا قيل: لوكلّف النَّاس ادامة الجزع، لم يقدروا عليه. وقال الغزالي: اعلم انَّ الصَّبر من خواصّ الإنسان ولايتصوّر ذلك في البهائم والملائكة. امَّا في البهائم فلنقصانها. وامَّا في الملائكة فلكمالها. بيان ذلك: انَّ البهائم سلّطت عليها الشَّهوات وليس لشهواتها عقل يعارضها، حتّى يسمَّى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشَّهوة صبراً.

١. سورة البقرة/١٧٧.

وامّا الملائكة فانّهم جردوا للشّوق الى حضرة الرّبوبيّة والإبتهاج بدرجة القرب منها. ولم يسلّط عليهم شهوة صارفة عنها، حتّى تحتاج الى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر.

وامّا الإنسان فانّه خلق في ابتداء الصّبى ناقصاً مثل البهيمة ولم تخلق فيه إلاّ شهوة الغذاء، الّذي هو محتاج اليه، ثمّ شهوة اللّعب، ثمّ شهوة النّكاح وليس له قوّة الصّبر البتّة،اذ الصّبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مطالبها.

امّا البالغ فانّ فيه شهوة تدعوه الى طلب اللّذات العاجلة، والإعراض عن الدّار الآخرة. وعقلاً يدعوه الى الإعراض عنها وطلب اللّذات الرّوحانيّة الباقية، فاذا عرف العقل انّ الإشتغال بطلب هذه اللّذات العاجلة يمنعه عن الوصول الى تلك اللّذات الباقية، صارت داعية العقل صادّة ومانعة لداعية الشّهوة من العمل، فيسمّى ذلك الصّدّ والمنع صبراً.

وامّا فضيلة الصّبر بعد الإغماض بأنّ الله «تعالى» وعد الصّابرين بأن يكون معهم، حيث قال: «واصبروا انّ الله مع الصّابرين»[١]؛ قد ذكر الصّبر في نيّف وسبعين موضعاً من القرآن، وأضاف أكثر الخيرات اليه. فقال: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا»[٢]؛ وقال: «وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا بأحسن ما كانوا يعملون»[٣]؛ وجعل جزاء الصّابرين مرّتين حيث قال: «أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا»[٤].

والصّابرين انّ أحدهما: في الدّنيا من ترتيب الآثار للصّبر والفوائد الدنيويّة له. وثانيهما: علو الدّرجات في الآخرة وقد جعل الله «تعالى» أجر كلّ شيء من الأعمال مقدراً إلاّ الصّبر، حيث قال: «إنّما يوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب»[٥]؛ ولأجل انّ الصّوم

١. سورة الانفال/٤٦.
٢. سورة السجدة/٢٤.
٣. سورة الأعراف/١٣٧.
٤. سورة القصص/٥٤.
٥. سورة الزمر/١٠.

من الصّبر وهو الصَّبر على الجوع والعطش وترك اللّذات من المآكل والمشارب وغيرها، نسبه الله لنفسه، وقال: «الصّوم لي وأنا أجزي به»[١]؛ وعلّق النّصرة على الصّبر، وقال: «بلى ان تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة»[٢]؛ ووصف الله الصَّابرين أوصافاً لم يجمعها لغيرهم فقال: «أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»[٣]. وأمر النّبيّ صلّى الله عليه وآله، أن يبشّر الصَّابرين حيث قال: «وبشّر الصَّابرين».

وامّا الأخبار في فضيلة الصّبر وأجر الصَّابرين فلاتحصى ولا تعدّ ليس المقام مقتضياً لذكرها، لأنَّ العلماء هم العارفون بحال الأخبار، وبنائنا على الإختصار من باب التّذكرة والتذكر؛ بل أقول: انَّ لكلّ حقيقة، وعلى كلّ حق حقيقة، وحقيقة الإيمان بمعنى ثبوته في سويدة القلب اقراراً، أو تصديقاً على مايفهم من الأخبار، الصَّبر عند البلاء، والشّكر عند الرّفاه، والرّضا بقضاء الله والتّفويض الى الله، والتّسليم لأمر الله، وبه قال أمير المؤمنين عليه الصَّلوٰة والسَّلام: «اَلإيمانُ على أَربعِ دَعائمَ: على الصَّبرِ، واليَقينِ، والعَدلِ، والجِهادِ. والصَّبرُ مِنها على أربعِ شُعَب: على الشَّوقِ، والشَّفَقِ، والزُّهدِ، والتَّرقُّبِ: فمَنِ اَشْتاقَ إلى الجنَّةِ سَلا عنِ الشَّهواتِ؛ ومَن أَشفَقَ مِنَ النَّارِ اَجتَنبَ المُحَرَّماتِ؛ ومَن زَهدَ في الدُّنيا اَسْتَهانَ بِالمُصيباتِ؛ ومَنِ اَرتَقَبَ اَلموتَ سارعَ إلىٰ الخيراتِ. واليقينُ مِنها على أربعِ شُعبٍ: على تَبصِرَةِ الفِطنَةِ، وتأوُّلِ الحِكمَةِ، ومَوعظَةِ العِبرَةِ، وسُنَّةِ الأوَّلينَ. فمَن تَبصَّرَ في الفِطنَةِ تَبيَّنَتْ لهُ الحِكمَةُ؛ ومَن تبيَّنتْ لهُ الحِكمَةُ عَرفَ العِبرَةَ؛ ومَن عرفَ العبرَةَ فكَأنَّما كانَ في الأولينَ. والعَدلُ مِنها على أربعِ شُعبٍ: على غائصِ الفَهمِ، وغَوْرِ العِلْمِ، وزُهرَةِ الحُكمِ، ورَساخَةِ الحِلمِ، فمَن فَهِمَ عَلِمَ غورَ العِلْمِ؛ ومَن عَلِمَ غورَ العِلمِ صَدرَ عن شرائِعِ الحُكمِ؛ ومَن حلُمَ لم يُفرِّطْ في أمرِهِ وعاشَ في النَّاسِ حَميداً.

والجِهادُ منها على أربعِ شُعبٍ: على الأمرِ بالمَعروفِ، والنَّهيِ عنِ المُنكرِ، والصِّدقِ في المواطِنِ، وشَنآنِ الفاسقينَ: فمَن أمرَ بالمَعروفِ شدَّ ظُهورَ المُؤمنينَ، ومَن نَهىٰ عنِ المُنكرِ أرغمَ أُنوفَ الكافِرينَ؛ ومَن

١. ميزان الحكمة، ج٥/٤٦٥.
٢. سورة آل عمران/١٢٥.
٣. سورة البقرة/١٥٧.

صَدقَ في المَواطنِ قَضىٰ ماعليه؛ ومَن شَنىء الفاسِقينَ وغَضِبَ لِلّهِ، غَضبَ اللّهُ لَهُ وأرضاهُ يَومَ القِيامَةِ»[١].

فظهر انَّ الصَّبر أوَّل دعائم الإيمان، فالأولى والأليق اتّصاف العلماء به في جميع حالاته، سيّما الى زحام الفقراء والضّعفاء عند اظهار حاجاتهم، خصوصاً فقراء زماننا هذا، نعوذ بالله، فانَّهم اخذوا السّؤال حرفة لهم، ورفع الحياء عن وجوههم، والعجب كلّ العجب انَّه كلّماتتوسّع الدّولة في العالم، يزيد صنف الفقراء، مع كثرة الصنائع في الدّنيا واحتياج أهل الدّنيا الى الخادم، وذلك لأجل أكلهم الخبز بعنوان التسوّل وقد جرت العادة بأن من أكل لقمة السّؤال، لاينحني ظهره على الكسب أبداً.

لطيفة لذيذة:

حكي انَّ دهقاناً من أهل الرّساتيق مشى الى مزرعته لينظر الى شغل عمّاله، فوجدهم تاركين العمل للراحة وفكّوا الثّورين اللذين يحرثون بهما فقال قوموا لشغلكم، فقاموا وأخذوا الثّورين لير بطوهما للفدّان، شردوتمرّدأحدهما فكلّما عالجوا لير بطوه ماتمكّنوا منه، فسأل الدّهقان من عمّاله عن مأكل الثّور قالوا: بأنَّ سائلاً أتى عندنا ونام في ظلّ هذا الشّجر ساعة، وعنده جراب مملوء من خبز السّؤال، وهذا الثّور خرقه وأكل من خبزه. قال: اذبحوه الآن، فانَّه بعدما ذاق خبز السّائل، مايشتغل أصلاً. فاذا كان خبز السّؤال بهذا المقدار الّذي يؤثّر في الحيوان فكيف تأثيره في الإنسان، نعوذ بالله.

نعم محبّة الفقراء لازم لكن أيّ الفقراء الفقراء الّذين قال الله «تعالى» في حقّهم ليلة المعراج: **«ياأحمد انَّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء والتقرّب إليهم، قال: ياربّ ومن الفقراء؟ قال «تعالى»: الّذين رضوا بالقليل وصبروا على الجوع، وشكروا على الرّخاء، ولم‌يشكوا جوعهم ولاظمأهم، ولايكذّبوا بألسنتهم، ولم‌يغضبوا على ربّهم ولم‌يغتمّوا على مافاتهم، ولم‌يفرحوا بماآتاهم»**[٢]. انتهى.

وأهل السّؤال كلّهم مضاد لتلك الأوصاف كلّها، وقد أمر الله «تعالى» بالدّنو الى

١. نهج البلاغة، صبحي صالح: الحكم ٣١ ص٤٧٣.

٢. ارشاد القلوب/ ٢٠٠ط مؤسسة الأعلمي

الفقراء، حيث قال: «ياأحمد محبّتي محبّة الفقراء فادن الفقراء وقرّب مجلسهم منك أدنك وبعّد الأغنياء وبعّد مجلسهم عنك فانّ الفقراء أحبّائي». ولمّا كان مارواه المجلسي عليه الرّحمة من مكالمات الله مع نبيّ الرّحمة، جامعاً لجميع الأخلاق الحسنة وحاو ياً لتمام الكمالات المحسنة، فالأولى ختم الرّسالة بذكرها تيّمناً:

روي عن كتاب ارشاد القلوب للدّيلمي: روي عن أميرالمؤمنين عليه السّلام: انّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله، سأل ربّه سبحانه ليلة المعراج فقال: «ياربّ أيّ الأعمال أفضل فقال الله عزّوجلّ: ليس شيء عندي أفضل من التّوكّل عليّ، والرّضى بما قسمت.

يا محمّد وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ ووجبت محبّتي للمتواصلين فيّ، ووجبت محبّتي للمتوكّلين عليّ وليس لمحبّتي علم ولاغاية ولانهاية، كلّما رفعت لهم علماً وضعت لهم علماً، أولئك الّذين نظروا الى المخلوقين بنظري إليهم ولم يرفعوا الحوائج الى الخلق، بطونهم خفيفة من أكل الحلال نعيمهم في الدّنيا ذكري ومحبّتي ورضائي عنهم.

يا أحمد: ان أحببت أن تكون أورع النّاس، فازهد في الدّنيا وارغب في الآخرة فقال: إلهي كيف أزهد في الدّنيا وأرغب في الآخرة. قال: خذ من الدّنيا خفاً من الطّعام والشّراب واللّباس، ولا تدخر لغد ودم على ذكري. فقال: ياربّ وكيف أدوم؟ فقال: بالخلوة عن النّاس وبغضك الحلو والحامض، وفراغ بطنك وبيتك من الدّنيا.

يا أحمد: فاحذر أن تكون مثل الصّبي اذا نظر الى الأخضر والأصفر أحبّه واذا أعطي شيء من الحلو والحامض أغترّ به فقال ياربّ دلّني على عمل أتقرّب به إليك قال اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلاً قال ياربّ وكيف؟ قال اجعل نومك صلوٰة وطعامك الجوع.

يا أحمد وعزّتي وجلالي مامن عبد مؤمن ضمن لي بأربع خصال إلاّ أدخلته الجنّة، ان يطوي لسانه فلايفتحه إلاّ بمايعنيه، ويحفظ قلبه من الوسواس، ويحفظ علمي ونظري اليه وتكون قرّة عينه الجوع.

يا أحمد لوذقت حلاوة الجوع والصّمت والخلوة وماورثوا منها قال ياربّ ماميراث الجوع قال الحكمة وحفظ القلب والتقرّب إليّ والحزن الدّائم وخفّة المؤنة بين النّاس وقول الحقّ ولايبالي عاش بيسر أو بعسر.

يا أحمد هل تدري بأيّ وقت يتقرّب العبد الى الله قال: لايا ربّ قال: اذا كان جائعاً أو ساجداً.

يا أحمد عجبت من ثلاثة عبيد، عبد دخل في الصّلوٰة وهو يعلم الى من يرفع يديه وقدّام من هووهو

ينعس وعجبت من عبد له قوت يوم من الحشيش أو غيره وهو يهتم لغد، وعجبت من عبد لايدري انّي راض أم ساخط عليه وهو يضحك.

يا أحمد انّ في الجنة قصراً من لؤلؤ فوق لؤلؤ ودرة فوق درّة ليس فيها قصم ولا وصل فيها الخواص انظر اليهم كلّ يوم سبعين مرّة وأكلّمهم كلّما نظرت إليهم أزيد في ملكهم سبعين ضعفاً وإذا تلذّذ أهل الجنّة بالطّعام والشّراب تلذّذوا بكلامي وذكري وحديثي قال: ياربّ ماعلامة أولئك قال هم في الدّنيا مسجونون قد سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام، وبطونهم من فضول الطّعام.

يا أحمد انّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء، والتقرّب إليهم، قال ياربّ ومن الفقراء قال الّذين رضوا بالقليل وصبروا على الجوع وشكروا على الرّخاء ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم ولم يكذّبوا بألسنتهم ولم يغضبوا على ربّهم ولم يغتموا على مافاتهم ولم يفرحوا بما آتاهم.

يا أحمد محبّتي محبّة الفقراء فادن الفقراء وقرّب مجلسهم منك أدنك، وبعّد الأغنياء وبعّد مجلسهم منك فانّ الفقراء أحبّائي.

يا أحمد لا تتزيّن بلين اللّباس وطيب الطّعام ولين الوطاء فانّ النّفس مأوى كلّ شرّ وهي رفيق كلّ سوء تجرّها الى طاعة الله وتجرّك الى معصية الله وتخالفك في طاعته وتطيعك فيما تكره وتطغى اذا شبعت وتشكو اذا جاعت وتغضب اذا افتقرت وتتكبّر اذا استغنت وتنسى اذا كبرت وتغفل اذا أمنت وهي قرينة الشّيطان ومثل النّفس كمثل النّعامة تأكل الكثير واذا حمل عليها لا تطير ومثل الدّفلى لونه حسن وطعمه مرّ.

يا أحمد ابغض الدّنيا وأهلها وأحبّ الآخرة وأهلها قال: ياربّ ومن أهل الدّنيا ومن أهل الآخرة، قال: أهل الدّنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرّضا لايعتذر الى من أساء إليه ولا يقبل عذر من اعتذر اليه كسلان عند الطّاعة شجاع عند المعصية أمله بعيد وأجله قريب لايحاسب نفسه قليل المنفعة كثير الكلام قليل الخوف كثير الفرح عند الطّعام وانّ أهل الدّنيا لايشكرون عند الرّخاء ولايصبرون عند البلاء كثير النّاس عندهم قليل يحمدون أنفسهم بما لايفعلون ويدّعون بما ليس لهم ويذكرون مساوي النّاس ويخفون حسناتهم قال: ياربّ هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدّنيا.

قال: ياأحمد انّ عيب أهل الدّنيا كثير فيهم الجهل والحمق لايتواضعون لمن يتعلّمون منه وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء.

يا أحمد انّ أهل الخير رقيقة وجوههم كثير حياؤهم قليل حمقهم كثير نفعهم قليل مكرهم، النّاس

منهم في راحة وأنفسهم منهم في تعب، كلامهم موزون محاسبين لأنفسهم متعبين لها،تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، اذا كتب النّاس من الغافلين كتبوا من الذّاكرين في أوّل النّعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون، دعاؤهم عند الله مرفوع وكلامهم مسموع تفرح الملائكة بهم يدور دعاؤهم تحت الحجب يحبّ الرّبّ أن يسمع كلامهم كما تحبّ الوالدة ولدها ولايشغلهم عن الله شيء طرفة عين ولايريدون كثرة الطّعام ولاكثرة الكلام ولاكثرة اللّباس، النّاس عندهم موتى والله عندهم حيّ قيّوم كريم، يدعون المدبرين كرماً ويزيدون المقبلين تلطّفاً قدصارت الدّنيا والآخرة عندهم واحدة يموت النّاس مرة ويموت أحدهم في كلّ يوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم والشّيطان الّذي يجري في عروقهم لوتحرّكت ريح لزعزع عنهم وان قاموا بين يديّ كأنّهم بنيان مرصوص لاأرى في قلبهم شغلاً لمخلوق، فوعزّتي وجلالي لأحيينّهم حياة طيّبة اذا فارقت أرواحهم من جسدهم لاأسلّط عليهم ملك الموت ولايلي قبض روحهم غيري ولأفتحنّ لروحهم أبواب السّماء كلّها ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني ولآمرنّ الجنان فلتزيّننّ من الزّينة والحور العين فلتزفن والملائكة فلتصلين والأشجار فلتثمرنّ وثمار الجنّة فلتدلين ولآمرنّ ريحاً من الرّياح الّتي تحت العرش فلتحملنّ جبال الكافور والمسك الأزفر فلتصيرنّ وقوداً من غير النّار فلتدخلنّ به ولايكون بيني وبين روحه ستر فأقول: له عند قبض روحه مرحباً وأهلاً بقدومك عليّ، أصعد بالكرامة والبشرى والرّحمة والرّضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً انّ الله عنده أجر عظيم فلورأيت الملائكة كيف يأخذ بها واحد ويعطيها الآخر.

يا أحمد انّ أهل الآخرة لايهنؤهم الطّعام منذ عرفوا ربّهم ولايشغلهم مصيبة منذ عرفوا سيّئاتهم يبكون على خطاياهم يتعبون أنفسهم ولايريحونها، وانّ راحة أهل الجنّة في الموت والآخرة مستراح العابدين مؤنسهم دموعهم الّتي تفيض على خدودهم وجلوسهم مع الملائكة الّذين عن أيمانهم وعن شمائلهم ومناجاتهم مع الجليل الّذي فوق عرشه وإنّ أهل الآخرة قلوبهم في أجوافهم قدقرحت. يقولون متى نبرح من دار الفناء الى دار البقاء.

يا أحمد هل تعرف ماللزّاهدين عندي في الآخرة؟ قال: لا ياربّ قال: يبعث الخلق ويناقشون الحساب وهم من ذلك آمنون انّ أدنى ماأعطى للزّاهدين في الآخرة أن أعطيهم مفاتيح الجنان كلّها حتّى يفتحوا أيّ باب شاءوا ولاأحجب عنهم وجهي ولأنعمنّهم بألوان التّلذّذ من كلامي ولأجلسنّهم في مقعد صدق واذكرهم ماصنعوا وتعبوا في دار الدّنيا وأفتح لهم في دار الآخرة أربعة أبواب باب

تدخل عليهم الهدايا منه بكرة وعشيّاً من عندي و باب ينظرون منه اليَّ كيف شاءوا بلاصعوبة و باب يطلعون منه الى النّار فينظرون منه الى الظّالمين كيف يعذّبون و باب تدخل عليهم منه الوصائف والحور العين، قال: ياربّ من هؤلاء الزّاهدين والّذين وصفتهم قال: الزّاهد هو الّذي ليس له بيت يخرب فيغتم لخرابه ولاله ولد يموت فيحزن لموته ولاله شيء يذهب فيحزن لذهابه ولايصرفه انسان يشغله عن الله طرفة عين ولاله فضل طعام يسأل عنه ولا ثوب لين.

يا أحمد وجوه الزّاهدين مصفرّة من تعب اللّيل وصوم النّهار وألسنتهم كلال من ذكر الله تعالى قلوبهم في صدورهم مطعونة من كثرة مايخالفون أهواءهم قدضمروا أنفسهم من كثرة صمتهم قدأعطوا المجهود من أنفسهم لامن خوف من نار ولا من طمع في جنّة، ولكن ينظرون في ملكوت السّمٰوات والأرض فيعلمون انَّ الله سبحانه و«تعالى» أهل للعبادة كأنّماينظرون اليَّ من فوقها. قال: ياربّ هل تعطي لأحد من أمتّي هذا؟

قال: ياأحمد هذه درجة الأنبياء والصّديقين من أمّتك وأمّة غيرك ، وأقوام من الشهداء.

«قال ياربّ أيّ الزّهاد أكثر،زهّاد أمّتي أم زهادبني اسرائيل؟ قال انَّ زهاد بني اسرائيل في زهاد امّتك كشعرة سوداء في بقرة بيضاء فقال ياربّ وكيف ذلك وعدد بني اسرائيل أكثر من أمّتي قال لأنّهم شكوا بعد اليقين وجحدوا بعد الإقرار قال رسول الله صلّى الله عليه وآله فحمدت الله للزّاهدين كثيراً وشكرته ودعوته وقلت اللّهمَّ احفظهم وارحمهم واحفظ عليهم دينهم الّذي ارتضيت لهم اللّهم ارزقهم إيمان المؤمنين الّذي ليس بعده شك وزيغ،وورعاًليس بعده رغبة، وخوفاً ليس بعده غفلة، وعلماً ليس بعده جهل،وعقلاً ليس بعده حمق، وقرباً ليس بعده بعد، وخشوعاً ليس بعده نسيان، وكرماً ليس بعده هوان، وصبراً ليس بعده قساوة وذكراًليس بعده ضجر، وحلماً ليس بعده عجلة، واملأ قلوبهم حياء منك حتّى يستحيوا منك كلّ وقت وتصبّرهم بآفات الدّنيا وآفات أنفسهم ووساوس الشّيطان فانّك تعلم مافي نفسي وأنت علاّم الغيوب».

ياأحمد عليك بالورع فانَّ الورع رأس الدّين ووسط الدّين وآخر الدّين انَّ الورع يقرّب العبد الى الله «تعالى».

ياأحمد انَّ الورع كالشّنوف بين الحُلى والخبز بين الطّعام انَّ الورع مثله كمثل السّفينة، كما انَّ في البحر لاينجو إلاّ من كان فيها«كذلك» لاينجو الزّاهدون إلاّ بالورع.انَّ الورع رأس الإيمان وعماد الدين.

ياأحمد ماعرفني عبد وخشع لي إلاّ وخشع له كلّ شيء.

ياأحمد الورع يفتح على العبد أبواب العبادة فتكرم به عند الخلق و يصل به الى الله عزّ وجلّ.

ياأحمد انّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فاذا طيبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي.

قال ياربّ ماأوّل العبادة؟ قال: أوّل العبادة الصّمت والصّوم. قال ياربّ ومامیراث الصّوم؟ قال: الصّوم يورث الحكمة والحكمة تورث المعرفة والمعرفة تورث اليقين فاذا استيقن العبد لايبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر واذا كان العبد في حالة الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كلّ ملك كأس من ماء الكوثر وكأس من الخمر يسقون روحه حتّى تذهب سكرته ومرارته و يبشّرونه بالبشارة العظماء و يقولون له: طبت وطاب مثواك انّك تقدم على العزيز الكريم الحبيب القريب فتطير الرّوح من أيدي الملائكة فتصعد الى الله «تعالى» في أسرع من طرفة العين ولايبقى حجاب ولاستر بينها وبين الله «تعالى» والله عزّ وجلّ إليها مشتاق وتجلس على عين عند العرش ثمّ يقال لها كيف تركت الدّنيا؟ فتقول إلهي وعزّتك وجلالك لاعلم لي بالدّنيا أنا منذ خلقتني خائف منك فيقول الله «تعالى» صدقت ياعبدي كنت بجسدك في الدّنيا وروحك معي فأنت بعيني سرّك وعلانيتك سلْ أعطك وتمنّ عليّ فأكرمك هذه جنّتي فتجنح فيها وهذه جواري فاسكنه فتقول الرّوح إلهي عرفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك وعزّتك وجلالك لوكان رضاك في أن أقطع إرباً إرباً واقتل سبعين قتلة بأشدّ مايقتل بها النّاس لكان رضاك أحبّ إليّ.

إلهي كيف أعجب بنفسي؟ وأنا ذليل إن لم تكرمني وأنا مغلوب إن لم تنصرني وأنا ضعيف إن لم تقوّني وأنا ميّت إن لم تحيني بذكرك ولولاسترك لافتضحت أوّل مرّة عصيتك.

إلهي كيف لاأطلب رضاك؟ وقد أكملت عقلي حتّى عرفتك وعرفت الحقّ من الباطل والأمر من النّهي والعلم من الجهل والنّور من الظّلمة فقال الله عزّ وجلّ وعزّتي وجلالي لاحجبت بيني و بينك في وقت من الأوقات، كذلك أفعل بأحبّائي.

ياأحمد هل تدري أيّ عيش أهنىٰ وأيّ حياة أبقىٰ؟ قال: اللهمّ لا قال: امّا العيش الهنيّ فهو الّذي لايفتر صاحبه عن ذكري ولاينسى نعمتي ولايجهل حقّي يطلب رضائي في ليله ونهاره وامّا الحياة الباقية فهي الّتي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدّنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده و يؤثر هواي على هواه و يبتغي مرضاتي و يعظّم حقي حقّ عظمتي و يذكر علمي به و يراقبني بالليل والنّهار عند كلّ سيّئة

ومعصية وينقّي قلبه عن كلّ ماأكره ويبغض الشّيطان ووساوسه ولايجعل لابليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً فاذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتّى اجعل قلبه لي وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النّعمة الّتي أنعمت بها على أهل محبّتي من خلقي وافتح عين قلبه وسمعه حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه الى جلالي وعظمتي وأضيّق عليه الدّنيا وأبغض إليه مافيها من اللّذّات واحذّره من الدّنيا ومافيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، فاذا كان هكذا يفرّ من النّاس فراراً وينقل من دار الفناء الى دار البقاء ومن دار الشّيطان الى دار الرّحمان.

ياأحمد ولأزيّننّه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيّ والحياة الباقية وهذا مقام الرّاضين فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال أعرّفه شكراً لايخالطه الجهل وذكراً لايخالطه النّسيان ومحبّة لايؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين فاذا أحبّني أحببته وأفتح عين قلبه الى جلالي ولاأخفي عليه خاصّة خلقي وأناجيه في ظلم اللّيل ونور النّهار حتّى ينقطع حديثه من المخلوقين ومجالسته معهم وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأعرّفه السّرّ الّذي سترته عن خلقي وألبسه الحياء حتّى يستحيي منه الخلق كلّهم ويمشي على الأرض مغفوراً له وأجعل قلبه واعياً وبصيراً ولاأخفي عليه شيئاً من جنّة ولانار وأعرّفه مايمرّ على النّاس في يوم القيامة من الهول والشّدّة وماأحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال والعلماء وأنور في قبره وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه ولايرى غمّ الموت وظلمة القبر واللّحد وهول المطّلع، ثمّ أنصب له ميزانه وأنشر له ديوانه ثمّ أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً ثمّ لاأجعل بيني وبينه ترجماناً فهذه صفات المحبّين.

ياأحمد اجعل همّك همّاً واحداً واجعل لسانك لساناً واحداً واجعل بدنك حيّاً لا تغفل أبداً، من غفل عنّي لاأبالي بأيّ وادٍ هلك.

ياأحمد استعمل عقلك قبل أن يذهب فمن استعمل عقله لايخطىء ولايطغى.

ياأحمد هل تدر لأيّ شيء فضّلتك على سائر الأنبياء؟ قال: اللّهمّ لا قال: باليقين وحسن الخلق وسخاوة النّفس ورحمة الخلق وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتاداً إلاّ بهذا.

ياأحمد انّ العبد اذا جاع بطنه وحفظ لسانه علمته الحكمة، فان كان كافراً تكون حكمته حجّة عليه ووبالاً، وإن كان مؤمناً تكون حكمته له نوراً وبرهاناً وشفاء ورحمة، فيعلم مالم يكن يعلم ويبصر مالم يكن يبصر فأوّل ماأبصره عيوب نفسه حتّى يشتغل بها عن عيوب غيره وأبصره دقائق العلم حتّى لايدخل عليه الشّيطان.

ياأحمد ليس شيء من العبادة أحبّ إليّ من الصّمت والصّوم فمن صام ولم يحفظ لسانه كان كمن

قام ولم يقرأ في صلوته فأعطيه أجر القيام ولا أعطيه أجر العابدين.

يا أحمد هل تدري متى يكون العبد عابداً؟ قال: لا ياربّ قال: اذا اجتمع فيه سبع خصال ورع يحجزه عن المحارم وصمت يكفه عمّا لايعني وخوف يزداد كلّ يوم من بكائه وحياء يستحي منّي في الخلاء وأكل مالابدَّ منه و يبغض الدّنيا لبغضي لها ويحبّ الأخيار لحبّي لهم.

يا أحمد ليس كلّ من قال أحبّ الله أحبّني حتّى يأخذ قوتاً و يلبس دوناً و ينام سجوداً و يطيل قياماً و يلزم صمتاً و يتوكّل عليّ و يبكي كثيراً و يقلّ ضحكاً ويخالف هواه و يتّخذ المسجد بيتاً والعلم صاحباً والزّهد جليساً والعلماء أحبّاء والفقراء رفقاء و يطلب رضائي و يفرّ من العاصين فراراً و يشغل بذكري اشتغالاً و يكثر التّسبيح دائماً و يكون بالعهد صادقاً و بالوعد وافياً و يكون قلبه طاهراً، وفي الصّلوة زاكياً، وفي الفرائض مجتهداً، وفيما عندي من الثّواب راغباً، ومن عذابي راهباً، ولأحبّائي قريباً وجليساً.

يا أحمد لوصلّى العبد صلوة أهل السّماء والأرض و يصوم صيام أهل السّماء والأرض وخلوى من الطّعام مثل الملائكة ولبس لباس العاري، ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدّنيا ذرّة أوسمعتها أورئاستها أو حليّها أو زينتها لايجاورني في داري ولأنزعنّ من قلبه محبّتي وعليك سلامي ورحمتي». والحمد لله ربّ العالمين[1]؛[2]

وأيضاً قال المجلسي عليه الرّحمة: باب ماأوصى به رسول الله صلّى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السّلام خصال أبي عن عليّ عن أبيه عن ابن مرار عن يونس يرفعه الى أبي عبدالله عليه السّلام قال: «كان فيما أوصى به رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السّلام، ياعليّ: أنهاك عن ثلاث خصال عظام: الحسد والحرص والكذب. يا عليّ: سيّد الأعمال ثلاث خصال: انصافك النّاس من نفسك ومواساة الأخ في الله عزّوجلّ وذكر الله تبارك وتعالى على كلّ حال. ياعلي: ثلاث فرحات للمؤمن في الدّنيا: لقاءالإخوان، والإفطار من الصّيام، والتّهجّد في آخر الليل. ياعليّ: ثلاث خصال من لم تكن فيه لم يتم له عمل، ورع يحجزه عن معاصي الله عزّوجلّ، وخلق يداري به النّاس، وحلم يردّ به جهل الجاهل.

١. بحار الأنوار.

٢. أقول: ورأيت في بعض الكتب لهذا الحديث سنداً هكذا قال: الإمام أبو عبدالله محمد بن علي البلخى عن أحمد بن اسماعيل. الجوهري عن أبي... عن علي بن أبي طالب(ع) وذكرنحوه انتهى.

يا عليّ: ثلاث من خصال حقائق الإيمان: الإنفاق في الإقتار وانصاف النّاس من نفسك، وبذل العلم للمتعلّم. ياعليّ: ثلاث خصال من مكارم الأخلاق: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عن من ظلمك»[1].

وأيضاً قال المجلسي «ره»: قال: السيّد قدّس الله روحه في كتاب سعد السّعود رأيت في الزّبور في السّورة الثالثة والثلاثين: «ثياب العاصيّ ثقال على الأبدان ووسخ على الوجه وتوسّخ الأبدان ينقطع بالماء ووسخ الذّنوب لاينقطع إلاّ بالمغفرة، طوبى للّذين كان باطنهم أحسن من ظاهرهم، ومن كانت له ودائع فرح بها يوم الآزفة، ومن عمل بالمعاصي وأسترها من المخلوقين، لم يقدر على اسرارها منّي، قد أوفيتكم ماوعدتكم من طيّبات الرّزق ونبات البحر وطير السّماء، ومن جميع الثّمرات ورزقتكم مالم تحتسبوا. وذلك كان على الذّنوب مغشر الصوّام: ابشر الصّائمين بمرتبة الفائزين، وقد أنزلت على أهل التّوراة بما أنزلت على داود. سوف تحرّف كتبي ويفترى عليّ كذباً، فمن صدّق بكتبي ورسلي فقد نجح وأفلح، وأنا العزيز الحكيم، سبحان الله خالق النّور».

وفي السّورة السّابعة والسّتين: «ابن آدم جعلت لكم الدّنيا دلائل على الآخرة، وانّ الرّجل منكم يستأجر الرّجل، فيطلب حسابه، فترعد فرائصه من أجل ذلك، وليس يخاف عقوبة النّار، وأنتم مكثرون التّمرّد وتجولون المعاصي في ظلم الدّجى، انّ الظّلام لايستركم عليّ، بل استخفيتم على الآدميّين وتهاونتم بي، ولو أمرت فطرات الأرض تبلعكم، فتجعلكم نكالاً، ولكن جدت عليكم بالإحسان، فانّ استغفرتموني تجدوني غفّاراً، فان تعصوني إتّكالاً على رحمتي، فقد يجب أن يتّقي من يتوكّل عليه. سبحان خالق النّور».

وفي السّورة الثّامنة والسّتّين: «ابن آدم لمارزقتكم اللّسان وأطلقت لكم الأوصال، ورزقتكم الأموال، جعلتم الأوصال كلّها عوناً على المعاصي، كأنّكم بي تغترون وبعقوبتي تتلاعبون، ومن أجرم الذّنوب وأعجبه حسنه، فلينظر الأرض كيف لعبت بالوجوه في القبور، وتجعلها رميماً، إنّما الجمال جمال من عوفي من النّار. واذا فرغتم من المعاصي رجعتم إليّ، أحسبتم انّي خلقتكم عبثاً، انّي إنّما جعلت الدّنيا رديف الآخرة، فسدّدوا وقاربوا واذكروا رحلة الدّنيا، وارجوا ثوابي، وخافوا عقابي، واذكروا صولة الزّبانية وضيق المسلك في النّار، وغمّ أبواب جهنّم وبرد الزمهرير. ازجروا أنفسكم حتّى

١. الخصال طبعة المكتبة الاسلامية./١٤٠

تنزجروا أرضوها باليسير من العمل، سبحان خالق النّور».

وفي السورة الحادية والسّبعين: «طلب الثّواب، بالخادعة تورث الحرمان وحسن العمل يقرّب منّي، أرأيتم لوانّ رجلاً أحضر سيفاً لانصل له، أو قوساً لاسهم له، أكان يردع عدوّه، وكذلك التّوحيد لايتمّ إلاّ بالعمل، واطعام الطّعام، سبحان خالق النور».

وفي السورة المائة: «من فرّغ نفسه بالموت، هانت عليه الدّنيا، ومن أكثر الهمّ والأباطيل، اقتحم عليه الموت من حيث لايشعر، انّ الله لايدع شابّاً لشبابه ولاشيخاً لكبره، اذا قربت آجالكم توفّتكم رُسلي، وهم لايفرّطون، فالويل لمن توفّته رسلي، وهو على الفواحش لم يدعها، والويل كلّ الويل لمن كان لأحد قبله تبعة خردلة، حتّى يؤدّيها من حسناته، والليل اذا أظلم، والصّبح اذا استنار، والسّماء الرّفيعة والسّحاب المسخّر، ليخرجنّ المظالم، ولتؤدّى كائنة ما كانت من حسناتكم، أو من سيّئات المظلوم، تجعل على سيّئاتكم، والسّعيد من أخذ كتابه بيمينه، وانصرف الى أهله مضيء الوجه، والشّقيّ من أخذ كتابه بشماله، ومن وراء ظهره، وانصرف الى أهله بالوجه بشراً، قد شحب لونه، وورمت قدماه، وخرج لسانه والِغاً على صدره وغلظ شعره، فصار في النّار محسوراً مبعّداً مدحوراً، وصارت عليه اللّعنة وسوء الحساب، وأنا القادر القاهر الّذي أعلم غيب السّماوات والأرض؛ وأعلم خائنة الأعين وماتخفي الصّدور، وأنا السّميع العليم».[1]

ونقل أيضاً عن أمالي المفيد «ره» عن أحمد بن الوليد عن أبيه عن الصّفّار عن القاشاني عن الإصبهاني عن النّقري عن حفص قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول: «قال عيسى بن مريم عليه السّلام لأصحابه: «تعملون للدّنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلاّ بالعمل. و يلكم علماء السّوء! الأجر تأخذون والعمل تضيّعون، يوشك ربّ العمل أن يقبل عمله، و يوشك أن يخرجوا من ضيق الدّنيا الى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم من هو في مسيره الى آخرته، وهو مقبل على دنياه ومايضرّه أحبّ اليه ممّا ينفعه»»[2].

وعن معاني الأخبار أبي عن سعد عن البرقي عن عليّ بن حديد عمّن ذكره من أبي عبدالله «ع» قال: «قال: عيسى بن مريم عليه السّلام: في خطبة قام فيها لبني اسرائيل: أصبحت فيكم وإدامي الجوع، وطعامي ماتنبت الأرض للوحوش والأنعام، وسراجي القمر، وفراشي التّراب،

١. أصول الكافي: ج ٢ ص ٣١٩.
٢. سعد السعود/ ٥٠ و ٥١ و ٥٢

ووسادتي الحجر، ليس لي بيت يخرب ولامال يتلف، ولاولد يموت، ولاإمرأة تحزن، أصبحت وليس لي شيء، وأمسيت وليس لي شيء، وأنا أغنى ولد آدم»[١].

وأيضاً عن معاني الأخبار أبي محمّد العطّار عن محمدبن الحسين عن أحمدبن سهل عن الأرذي العابد، قال: سمعت أبا فروة الأنصاري وكان من الشائحين يقول: قال عسيى بن مريم عليه السّلام: «يامعشر الحواريّين بحقٍّ أقول لكم: انَّ النّاس يقولون: انَّ البناء بأساسه وأنالاأقول لكم كذلك. قالوا فماذا تقول؟ ياروح الله: قال بحقٍّ أقول لكم: انَّ آخر حجر يضعه العامل هو الأساس»[٢]. قال أبوفروة: إنّما أراد خاتمة الأمر.

ايقاظ

في ذمّ الغرور قال الفيض «ره» في حقائقه: وهو سكون النّفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطّبع عن شبهة وخدعة من الشّيطان، فمن اعتقد انّه على خير امّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور قال الله تعالى: «فلا تغرّنّكم الحيٰوة الدّنيا ولايغرّنّكم بالله الغرور»[٣]؛ وقال عزَّ وجلَّ: «ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور»[٤].

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «حبّذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبّنون سهر الحمق واجتهادهم، ولمثقال ذرّة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين»[٥].

وقال «ص»: «الكيّس من دان نفسه وعمل لمابعد الموت، والأحمق من اتّبع نفسه هواه وتمنّى على الله الأمانيّ»[٦]؛

١. معاني الأخبار.
٢. معاني الأخبار: ج٢ ص٣٣١
٣. سورة فاطر/٥.
٤. سورة الحديد/١٤.
٥. المحجّة: ج٦ ص٢٩١.
٦. ميزان الحكمه، ج٨/٤٦٠.

ولنمثّل للغرور مثلاً للإيضاح: امّا الغرور بالحياة الدّنيا فمثاله ماقاله بعض الكفّار والعصاة، النّقد خير من النسيئة والدّنيا نقد والآخرة نسيئة، فاذن هي خير، فلابدّ من إيثارها. وقالوا: اليقين خير من الشّك، ولذّات الدّنيا يقين، ولذّات الآخرة شك فلا تترك اليقين بالشّك.

فهذه أقيسة فاسدة، قياس ابليس، حيث قال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[١]. والى هؤلاء الاشارة بقوله «تعالى»: «أولئك الّذين اشتروا الحيوٰة الدّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولاهم ينصرون»[٢]. وعلاج هذا الغرور امّا بتصديق الإيمان، بأن يصدقوا الله في قوله: «ماعندكم ينفد وماعند الله باق»[٣]؛ وقوله: «والآخرة خير وأبقى»[٤]؛ وقوله: «وماالحيوٰة الدّنيا إلاّ متاع الغرور»[٥].

وامّا البرهان، وهو أن يعرفوا فساد هذا القياس، الّذي نظمه في قلوبهم الشّيطان، فانّ فيه أصلين:

أحدهما: انّ الدّنيا نقد والآخرة نسيئة، وهذا صحيح، والآخر: انّ النّقد خير من النّسيئة، وهذا محلّ تلبيس، فليس الأمر كذلك، بل إن كان النّقد مثل النّسيئة في المقدار والمقصود، فهو خير. وإن كان أقلّ منه فالنّسيئة خير، فانّ هذا المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة. ولايقول: النّقد خير من النّسيئة فلاأتركه، وإذا حذّره الطّبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة، تركها في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل، وقدترك النّقد ورضي بالنسيئة، والتّجّار كلّهم يركبون البحار و يتعبون في الأسفار نقداً؛ لأجل الرّاحة والرّبح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال، فانسب لذّة الدّنيا من حيث مدّتها الى مدّة الآخرة.

وامّا قولهم: انّ اليقين خير من الشّك والدّنيا يقين والآخرة شك، فهو أكثر فساداً

١. سورة الأعراف/١٢.
٢. سورة البقرة/٨٦.
٣. سورة النحل/٩٦.
٤. سورة القصص/٦٠.
٥. سورة آل عمران/١٨٥.

من الأوّل، لأنّ كلي أصليه باطل، اذ اليقين خير من الشّك اذا كان مثله وإلاّ فالتّاجر في سعيه على يقين، وفي ربحه على شك، والمنفعة في اجتهاده على يقين، وفي ادراكه رتبة العلم على شك، والصّيّاد في تردّده في المقتنص على يقين، وفي اقتناصه الظّفر بالصّيد على شك، والمريض من مرارة الدّواء على يقين، ومن الشّفاء على شك. وكذلك الحزم دأب العقلاء، فمن شك في الآخرة، فيجب عليه بحكم الحزم أن يقول الصّبر أيّاماً قلائل وهو منتهى العمر، قليل بالاضافة الى مايقال من أمر الآخرة، فان كان ماقيل فيه كذباً، فمايفوتني إلاّ النّعم أيّام حياتي، وإن كان صدقاً فأبقى في النّار أبد الآباد. وهذا لايطاق.

وامّا الأصل الثّاني: وهو انّ الآخرة شك، فهو أيضاً خطأ؛ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان: أحدهما: الإيمان والتّصديق للأنبياء والعلماء. والثّاني: الوحي والإلهام للأنبياء والأولياء، اذ كشف لهم حقيقة الأشياء، كما هي عليها وشاهدوها بالبصيرة الباطنة، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظّاهر، فيخبرون عن مشاهدة لاعن سماع، وتقليد.

وامّا الغرور بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم و بألسنتهم: انّه إن كان لله معاد، فنحن أحقّ به من غيرنا ونحن أوفر حظّاً. وفيه أسعد حالاً، كما أخبر الله من قول الرّجلين المتحاورين، اذ قال: «وماأظنّ السّاعة قائمة ولئن رددت الى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً»[1].

وهذا قياس من أقيسة ابليس، لأنّهم ينظرون مرّة الى نعم الله عليهم في الدّنيا، فيقيسون عليها نعمة الآخرة، و ينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم، فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال «تعالى»: «ويقولون في أنفسهم لولايعذّبنا الله بمانقول»[2]؛ ومرّة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر،فيزدرون بهم ويحتقرونهم، فيقولون هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا و يقولون: لوكان خيراً ماسبقونا اليه. وقياسهم انّه قدأحسن

١. سورة الكهف/٣٦.
٢. سورة المجادلة/٨.

الله الينا بنعيم الدّنيا، وكلّ محسن فهو محبّ، وكلّ محبّ فانّه يحسن في المستقبل أيضاً. والتّلبيس تحت ظنّه: انّ كلّ محسن محبّ بل تحت ظنّه انّ انعامه عليه في الدّنيا احسان، فقد اغترّ بالله، اذ يظنّ انّه كريم عنده بدليل لايدلّ على الكرامة، بل عند ذوي البصائر يدلّ على الهوان، فانّ نعيم الدّنيا ولذّاتها، مهلكات، مبعدات من الله «تعالى» وانّ الله يحمي عبده الدّنيا وهو يحبّه، كما يحمي أحدكم مريضه من الطّعام والشّراب، وهو يحبّه كما ورد في الخبر.

وهذا المغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان، امّا بالبصيرة وامّا بالتّقليد. قال الله «تعالى»: «أيحسبون إنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون»[١]؛ وقال: «سنستدرجهم من حيث لايعلمون»[٢]؛ وقال: «فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى اذا فرحوا بماأوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون»[٣]؛ ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله و بصفاته، فانّ من عرفه لايأمن مكره، ولايغترّ بأمثال هذه الخيالات، و ينظر الى فرعون وقارون والى ملوك الأرض، وكيف أحسن الله إليهم ابتداء، ثمّ دمّرهم تدميراً، «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»[٤]؛ «فلايأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون»[٥]؛ انتهى كلامه.

أقول: بل قال الله تبارك و«تعالى»: «إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين»[٦]؛ بل انّ الله تبارك و«تعالى» أراد أن يتمّ للمتموّلين حجّة في الدّنيا، ليهلك من هلك عن بيّنة. وأيضاً المغترّين في الدّنيا لابدّ لهم من أن توجد فيهم صفة من الأوصاف الحميدة، من الحلم والتّديّن في دينه، والإحسان الى والديه، وعلى الفقراء من نحلتهم لامحالة. وهذه الصّفات محبوبة عند الله، وكلّ ماكان محبوبه «تعالى»، فله أجر عنده عزّ وجلّ، فنعم أجر العاملين، فلابدّ لهم أن يؤجروا بمافيهم من الصّفات الحميدة، فالله تبارك و«تعالى» يعطيهم في الدّنيا أجرهم، لكيلايبقى في الآخرة لهم نصيب عند الله،

١. سورة المؤمنون/٥٥.
٢. سورة القلم/٤٤.
٣. سورة الأنعام/٤٤.
٤. سورة آل عمران/٥٤.
٥. سورة الأعراف/٩٩.
٦. سورة آل عمران/١٧٨.

مثلاً يموّلهم، و يصحّح أبدانهم، ولايغتمّون بشيء في الدّنيا، ولا تلحق بهم مذلّة يفرحون فرحاً كثيراً، كما هو المحسوس والمشاهد، بخلاف طائفة الأثنى عشريّة، فانّهم من جهة إيمانهم مبتلون بالابتلاءات العجيبة، فكلّما كمل إيمانهم واعتقادهم، يزيد ابتلاؤهم، كما ورد انّه صلّى الله عليه وآله، سئل عن أشدّ النّاس بلاء في الدّنيا فقال: «النّبيّون ثمّ الأماثل فالأماثل، و يبتلى المؤمن على قدر ايمانه وحسن عمله، فمن صحّ ايمانه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله، قلّ بلاؤه»[١].

وقال: «لوكانت الدّنيا تعدل عند الله مثل جناح بعوضة، ماأعطي كافراًولامنافقاًمنهاشيئاً»[٢] فانّهم يأكلون مايشتهون و يلبسون مايريدون و يعملون مايشاؤون؛ كما قال «ص»: «من أكل مايشتهي ولبس مايشتهي وركب مايشتهي، لم ينظرالله إليه حتّى ينزع أويترك» بخلاف المؤمن، فانّ سيّئاته في الدّنيا كفّر عنها بابتلائه المصائب، من الفقر والحزن والمرض وغيرذلك »[٣]؛ كما قال «ص»: «ماأصاب المؤمن من نصب ولاوصب ولاحزن، حتّى الهمّ يهمّه إلاّ كفرالله به عنه، من سيّئاته»[٤]. وقال «ص»: «مثل المؤمن كمثل السّنبلة، تخرّمرّة وتستقيم مرّه؛ ومثل الكافر مثل الأرزة، لايزال مستقياً لايشعر»[٥].

ايقاظ

قال الفيض «قده»: اعلم: انّ فرق المغترّين كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً، كالّذي يتّخذ المساجد و يزخرفها من المال الحرام. ومنهم من لم يميّز بين مايسعى فيه لنفسه، ومايسعى فيه لله، كالواعظ الّذي غرضه

١. تحف العقول: ص٣٣.
٢. تحف العقول: ص٣٣.
٣. المصدر السابق: ص٣٣.
٤. تحف العقول: ص٣٣.
٥. تحف العقول: ص٣٣.

القبول والجاه؛ بل اشتغل بالوعظ و يظنّ انّه متّعظ بنفسه، فانّ أعلاهم رتبة من يتكلّم في أخلاق النّفس وصفات القلب من الخوف والرّجاء والصّبر والشّكر ونظائرها، و يظنّ بنفسه انّه اذا تكلّم بهذه الصّفات، ودعى الخلق اليها صار موصوفاً بها، وهو منفك عنها عند الله، إلاّ عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين، والأكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصّفات و يطالبونها بالحقيقة ولايقنعون منها بالتّذريق.

ومنهم: من يترك الأهمّ و يشتغل بغيره، كالّذي يترك الفرض و يشتغل بالنافلة ومنهم من يترك اللباب و يشتغل بالقشر، كالذي تكون همّته في الصلاة مقصورة على الوسواس في النيّة أو تصحيح مخارج الحروف، حتّى تفوته الجماعة وتخرج الصّلوٰة عن الوقت، ثمّ لايحضر قلبه في صلاته، و يزعم انّه اذا أتعب نفسه في تصحيح النيّة أو الحروف، تميّز عن العامّة بهذا الجهد. ومنهم: من اغترّ بقراءة القرآن، فبهذه هذا وربّما يختم في اليوم واللّيلة مرّة، ولسانه يجري به وقلبه متردّد في أودية الأماني، ومنهم: من اغترّ بالصّوم وربّما صام الدّهر ولايحفظ لسانه عن الغيبة ولابطنه عن الحرام عند الإفطار ثمّ يظنّ بنفسه الخير.

ومنهم: من اغترّ بالحجّ فيخرج الى الحجّ، من غير خروج من المظالم وقضاء الدّيون وطلب الزّاد الحلال و يضيع في الطّريق الصّلاة و يعجز عن طهارة الثّوب والبدن و يتعرّض لمكس الظّلمة، وذلك بعد سقوط حجّة الإسلام. ومنهم: من يتقلّد امامة المسجد الجامع، أو أذانه و يظنّ انّه على خير، ولوأمّ غيره أو أذن في وقت غيبته، قامت عليه القيامة ولوكان أورع وأعلم. ومنهم: من يأمر بالخير و ينسى نفسه، فاذا أمر عنف وطلب الرّئاسة والعزّ، واذا ردّ عليه اذا باشر منكراً غضب، وقال: انّه أنا المحتسب، فكيف تنكر عليّ، وإنّما غرضه الرّئاسة.

ومنهم: من أحكم العلوم الشرعيّة وتعمّق فيها واشتغل بها، وأهمل تفقّد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، وأهمل تفقّد قلبه، ليمحو عنه الصّفات المذمومة، والأخلاق الرديّة، واغترّ بعلمه وظنّ انّه عند الله بمكان، وانّه قدبلغ عن العلم مبلغاً لايعذّب الله مثله، بل يقبل في الخلق شفاعته وانّه لايطالبه بذنوبه، لكرامته على الله. ومنهم من يعجب بنفسه و يظنّ انّه منفك عن الأخلاق المذمومة،

وانّه أرفع عند الله من أن يبتليه بها، وإنّما يبتلى بها العوام. ثمّ اذا ظهر عليه مخايل الكبر والرّئاسة وطلب العلوّ والشّرافة. قال: هذا أكبر، وإنّما هذا طلب عزّ الدّين وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله، وارغام أنف المخالفين، ومهما أطلق اللّسان بالحسد من أقرانه أو يقوم من ردّ عليه شيئاً من كلامه، لم يظنّ بنفسه: انّ ذلك حسد، ولكن قال ذلك: أنّما غضب للحقّ وردّ على المبطل في عداوته وظلمه، ثمّ لوطعن في غيره من أهل العلم، لم يكن غضبه مثل غضب الآن، بل ربّما يفرح به واذا خطر له خاطر الرّياء، قال: هيهات، إنّما غرضي من اظهار العلم والعمل، اقتداء الخلق بي، ليهتدوا الى دين الله، أو يتخلّصوا من عقاب الله ولايتأمّل الغرور انّه لايفرح باقتداء النّاس بغيره، كما يفرح باقتدائهم به، فلوكان غرضه صلاح الخلق، لفرح بصلاحهم على يدي من كان.

وربّما يذكر هذا، فلايتركه الشّيطان أيضاً، بل يقول: إنّما ذلك، لأنّهم اذا اهتدوا بي، كان الأجر والثّواب لي، فإنّما فرحي بثواب الله لابقول الخلق، هذا مايظنّه بنفسه، والله مطّلع على سريرته. ومنهم من اشتغل بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والردّ على المخالفين، وأعتقد انّه لايكون للعبد عمل إلاّ بالإيمان، ولايصحّ ايمان إلاّ بأن يتعلّم جدلهم، ومايسمّونه أدلّة عقائدهم، وظنّ انّه لاأحد أعرف بالله وصفاته منهم، وانّه لاإيمان لمن لم يعتقد مذهبهم، ولم يتعلّم علمهم ودعا كلّ فرقة منهم الى نفسه؛ وفي الحديث النّبويّ: «**ماضلّ قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلاّ أتوا الجدل وخرّ بوا العمل**».[1]

ومنهم من ظنّ انّه حكم العبد بينه و بين الله «تعالى»، يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأو يل الألفاظ واغترّوا بالظّواهر وأخطأوا فيها ـ وذلك مثل فتواهم بأنّ المرأة مهما أبرأت الزّوج من الصّداق، برئت ذمّة الزّوج بينه و بين الله. وذلك خطأ، بل الزّوج قديسيء الى الزّوجة، بحيث تضيق عليها الأمور بسوء الخلق، فتضطر الى طلب الخلاص، فتبرىء الزّوج لتتخلّص منه، وهو ابراء من غير طيبة نفس. وقال الله «تعالى»: «**فان طبن لكم عن شيء منه نفساً**»[2].

١. نهج الفصاحة: ص٥٤٧. الحديث ٢٦٤٨.
٢. سورة النساء/٤.

وطيبة النّفس غير طيبة القلب، فالقلب قديريد مالا تطيب به النّفس، كالإنسان يريد الحجامة بقلبه، ولكن تكره بها نفسه، فإنّما طيبة النّفس أن تسمح بالإبراء لاعن ضرورة تقابله، وكذلك لوطلب من انسان مالاً على ملاء من النّاس، فاستحى من النّاس أن لايعطيه، وكان يودّ أن يكون سؤاله في خلوة، حتّى لايعطيه، ولكن خاف مذمّة النّاس، والسّؤال مظنّة الحياء والرّياء ضرب للقلب بالسّوط. ولافرق بين ضرب الباطن وضرب الظّاهر عند الله. قال: الباطن عند الله ظاهر، وكذلك من يعطى اتّقاء لشرّلسانه أو لشرّسعايته، فهو حرام عليه، ومن المغترّين قوم يسمّون بأهل الذّكر والتّصوّف، يدّعون البراءة من التّصنع والتّكلّف، يلبسون خرقاً ويجلسون حلقاً، يخترعون الأذكار و يتغنّون بالأشعار، يعلنون بالتّهليل وليس لهم من العلم والمعرفة سبيل، ابتدعوا شهيقاً ونهيقاً واخترعوا رقصاً وتصنيفاً، قدخاضوا الفتن وأخذوا بالبدع دون السّنن، دفعوا أصواتهم بالنّداء وصاحوا الصّيحة الشّنعاء.

ومنهم من يدّعي علم المعرفة ومشاهدة المعبود، ومجاوزة المقام المحمود، والملازمة في عين الشّهود، ولايعرف من هذه الأمور إلاّ الأسماء، ولكنّه تلقف من التّامات كلمات ترددها لدى الأغنياء، كأنّه يتكلّم عن الوحي ويخبرعن السّماء، ينظر الى أصناف العباد والعلماء بعين الإزدراء، يقول: في العباد انّهم أجزاء متبعون، وفي العلماء انّهم بالحديث عن الله لمحجوبون، و يدّعي لنفسه من الكرامات مالايدّعيه نبيّ مقرّب، لاعلماً أحكم، ولاعملاً هذّب، يأتي اليه الرّعاع الهمج من كلّ فجّ، أكثر من إتيانهم مكّة للحجّ، يزدحم عليه الجمع و يلقون اليه السّمع، وربّما يخرّون له سجّداً، كأنّهم اتّخذوه معبوداً يقبّلون يديه و يتهافتون على قدميه، يأذن لهم بالشّهوات و يرخّص لهم بالشّبهات، يأكل و يأكلون، كما تأكل الأنعام، ولايبالون من حلال أصابوا، أم من حرام، وهو لحلوائهم هاضم، ولدينه وأديانهم حاطم، «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء مايزرون»[1]؛ وامّا أرباب الأموال، ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرّباط والقناطر، ومايظهر للنّاس كافّة بأموال

١. سورة النحل/٢٥.

كسبوها من غير حلّها، و يكتبون أسماءهم بالأحجار عليها ليتخلّد ذكرهم، و يبقى بعد الموت أثرهم، و يظنّون انّهم قد استحقّوا المغفرة بذلك، وانّهم مخلصون فيه.

ولو كلّف أحد منهم، أن ينفق ديناراً ولايكتب اسمه على الموضع الّذي أنفق عليه، لشقّ عليه ولم تسمح به نفسه؛ والله «تعالى» مطّلع عليه، كتب اسمه أم لم يكتب، فلولا انّه يريد وجه الله، لاوجه النّاس، لما افتقر الى ذلك، وربّما يكون في جوار أحدهم أو في بلدهم فقير، وصرف المال عليهم أهمّ من صرفها على المساجد وزينتها.

ومنهم من ينفق الأموال في الصّدقات على الفقراء والمساكين، و يطلب به المحافل الجامعة، والفقراء الّذين عادتهم الشّكر والإفشاء للمعروف، و يكره التّصدّق في السّرّ، و يرى اخفاء الفقير لما أخذ منه حيفاً عليه وكفراناً. ومنهم من يحفظ ماله ويمسكه بحكم البخل، ثمّ يشتغل بالعبادات البدنيّة، الّتي لايحتاج فيها الى نفقة، كصيام النّهار وقيام اللّيل وختم القرآن، وهو يظنّ انّه على خير.

ومنهم من لا تسمح نفسه إلاّ بأداء الزكاة فقط، ثمّ يخرجها من المال الخبيث الرّديء، الّذي يرغب عنه و يطلب من الفقراء من يخدمه و يتردّد في حاجته و يظنّ انّه أدّاها لله، وأصناف الغرور لاتحصى. وفي مصباح الشّريعة قال الصّادق عليه السّلام: «المغرور في الدّنيا مسكين وفي الآخرة مغبون»، لأنّه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، حيث ربّما اغتررت بمالك وصحّة جسمك لعلّك تبقى، وربّما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك، لعلّك تنجو بهم. وربّما اغتررت بحالك ومنيتك وأصابتك مأمولك وهواك، وظننت انّك صادق ومصيب، وربّما اغتررت بماترى الخلق من النّدم على تقصيرك في العبادة، ولعلّ الله تعالى يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربّما أقمت نفسك بالعبادة متكلّفاً، والله يريد الإخلاص.

وربّما افتخرت بعلمك ونسبك، وأنت غافل عن مضمرات مافي علم الله. وربّما توهّمت انّك تدعو الله وأنت تدعو سواه، وربّما حسبت انّك ناصح للخلق، وأنت تريدهم مريدين لك، ان يميلوا إليك. وربّما ذممت نفسك وأنت تمدحها في الحقيقة.

واعلم انّك لن تخرج من ظلمات الغرور والتّمنّي إلاّ بصدق الإنابة الى الله

والاخبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا توافق العقل والعلم، ولا يحتمله الدّين والشّريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعلمك منك وأضيع عمراً فأورثت حسرة يوم القيامة. انتهى.

أقول: والأنسب ختم الرّسالة بقوله صلوات الله وسلامه عليه، والله **مامن عمل يقرّبكم من النّار إلاّ وقدنبّأتكم به ونهيتكم عنه. ومامن عمل يقرّبكم من الجنّة إلاّ وقدنبّأتكم به** [1]. في هذه الرّسالة. اللهمّ اجعل عواقب أمورنا خيراً:

مراد مانصيحت بود گفتيم حوالت با خدا كرديم ورفتيم [2]

«**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» [3]؛ إنّا عرضنا الأمانة على الأوراق فأبين أن يحملنها، والمرجوّ من الله تعالى أن تحملها قلوب الأمراء، وتحفظها صدور العلماء، بحول منك وقوّة، ياربّ العالمين .

١. تحف العقول: ص٣٤.
٢. كان قصدنا النصح، فقلنا ... على الله وكلّناكم ورحنا.
٣. سورة الكهف/٢٩.

7429

فهرست المصادر

١ ـ احياء علوم الدين
٢ ـ الاختصاص
٣ ـ ارشاد القلوب
٤ ـ اصول الكافي
٥ ـ الأمالي
٦ ـ بحار الانوار
٧ ـ الترغيب والترهيب
٨ ـ تحف العقول
٩ ـ تفسير البيان
١٠ ـ تفسير الكشاف
١١ ـ الجامع الصغير
١٢ ـ الخصال
١٣ ـ الدر المنشور
١٤ ـ سعد السعود
١٥ ـ سنن ابن ماجة
١٦ ـ سنن الدارمي
١٧ ـ سنن النسائي
١٨ ـ صحيح مسلم
١٩ ـ غرر الحكم
٢٠ ـ كنز العمال
٢١ ـ مجمع البيان
٢٢ ـ مجمع البحرين
٢٣ ـ المحجة البيضاء
٢٤ ـ مسكن الشجون
٢٥ ـ مسند احمد
٢٦ ـ مشارق انوار اليقين
٢٧ ـ معاني الاخبار
٢٨ ـ منية المريد
٢٩ ـ نهج البلاغة
٣٠ ـ نهج السعادة
٣١ ـ نهج الفصاحة
٣٢ ـ وسائل الشيعة

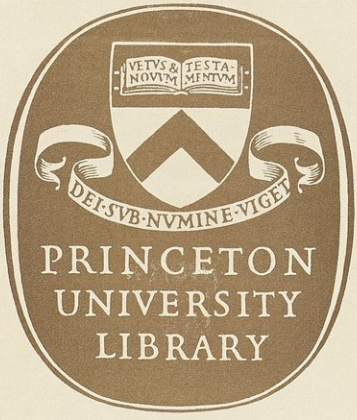
VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
MAR-APR 1992
We're Quality Bound

(ARAB)
BJ1291
.K89
Princeton University Library
32101 077807046

٤٠٠ ريال